دكتور عبد المتعال الجبرى

شطحات مصطفى محمود

فى تفسيراته العصرية للقرآن الكريم

هذا الكتاب ...

الحقيقة الإسلامية تحتاج إلى أسلحة فكرية قوية لحمايتها ...

أجل .. حمايتها من تأثيرات المناهج الهدامة ، وموروثات الفكر التخريبى ، وضغوط الواقع الموجه ، وسيطرة التصور المادى الأوربى ، وتحريفات بعض المتصوفة ...

ومشكلة الدكتور مصطفى محمود مع ثقتنا من إخلاصه فى محاولته للتفسير العصرى كما يقول أنه اقتحم مجال الحقيقة الإسلامية ، وجازف بالدخول إلى ميدان التفسير الصادق للقرآن دون أن تكون لديه القدرة الناقدة المتبصرة على رصد تسللات الأفكار المسمومة ، وعلى غربلة الموروثات الدخيلة ، وعلى تمحيص الشوائب التى لحقت بالتصور الإسلامى الصحيح من جراء بعض المتصوفة ، أو ضغوط الواقع ، أو هيمنة الحضارة المعاصرة .

والمؤلف هنا يحاور فقط الدكتور مصطفى محمود .. يحاوره علمياً .. ولأن محاورته علمية فإنه لم يطلق على كتابه هذا مثلاً « ضلالات مصطفى محمود » أو « خرافات مصطفى محمود » أو ما هو أكثر من ذلك مما تلوكه الآن ألسنة الناس ، وتتحدث به جمهرة المسلمين .. وإنما أطلق المؤلف على محاولات الدكتور الاجتهادية « شطحات مصطفى محمود » .. شطحات وكفى ..

فإلى عشرات الألوف من الشباب المسلم المعاصر الذى قرأ للدكتور وافتتن بفكره نقدم هذه المحاورة العلمية مع الطبيب الكاتب الذى اجتهد فأخطأ .. لعل هذا الشباب ... يعرف الحقيقة كما هى .. لا كما يتخيلها بعض الناس .

دار الاعتصام

طبعة مزيدة منقحة

دار الاعتصام
٨ شارع حسين حجازي - ت: ٣٥٤٦٠٢١/٣٥٥١٧٤٨ ص.ب ١٧٠ القاهرة
للطبع والنشر والتوزيع

دكتور عبد المتعال الجبري

شطحات مصطفى محمود في تفسيراته العصرية للقرآن الكريم

«ان البلاد الإسلامية قد وقعت فريسة مصطلحات خاطئة ومنها مصطلح (العصرية) وقد جنى هذا المصطلح على الإسلام جناية كبرى»

المستشرقة الأمريكية
مريم جميلة

دار الاعتصام

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر من الذين قالوا آمنَّا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ومن الذين هادوا سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين . لم يأتوك يحرفون الكلم من بعد مواضعه ، يقولون : إن أوتيتم هذا فخذوه ، وإن لم تؤتوه فاحذروا ، ومن يُرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً ، أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم ، لهم فى الدنيا خزى ولهم فى الآخرة عذاب عظيم ﴾

المائدة : ٤١

مقدمة

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

لله الحمد وعليه الاعتماد ، وصلاة وسلاما على رسول الله وعلى آله وصحبه وحامل اللواء من بعدهم إلى يوم الدين وبعد :

فهذه دراسة تحليلية وعلمية عن « القرآن فى محاولة لفهم عصرى للقرآن » ، وعن « لغز الموت » الكتابين اللذين أصدرهما الطبيب الكاتب الصحفى (مصطفى محمود) .

وقد عرضت ما قاله الكاتب بألفاظه وتعمدت عرض الجيد الجديد ، أو الشبيه بالجديد من الآراء التى سردها فى كتابيه إنصافاً للكاتب ، وتقديراً لسعة إطلاعه ، كما عرضت ما أراه مجانباً للحق بعيدا عن الصواب ، ومنزلقاً فكرياً هادئاً غامضاً ، ولكنه خطير على العقيدة والمفردات الإسلامية .

وتابعت ما نشر من ردود ، فوجدت أنه لابد مع كل هذه الردود والتجديدات فى كتابة الكاتب ، من هذه الدراسة التى أقدمها للكاتب وهواة الدراسة الإسلامية العميقة ، إحقاقا للحق وبيانا للصواب .

﴿ ومن يهد الله فهو المهتد ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً ﴾ .

لقد قوبل ما نشره الكاتب بمواقف مختلفة . فحمد له البعض ما كتبه ، واستنكر آخرون الكتابة فى مجلة صباح الخير ، لجلال الموضوع ، وأنه لا يتناسب مع نوعية المجلة بين الصحف . وآخرون شجعوا الكاتب ، لا من حيث الموضوع ، ولكن لما فيه من جرأة تهز مكانة فقهاء الشريعة حين يحقِّرهم على لسان الصوفية ، ويهز قداسة المفاهيم الإسلامية ذاتها من وجهة نظر الجمهور ، كالاستهانة بزى الإسلام ، وكنسبة علم الغيب للصوفية بما يسمى الكشف ، وكتأويل مدلول « شجرة آدم » والجنة والنار

والحوار فيها ، والحساب ، وتفسير كل ذلك بما ينكره المسلمون ، ولا يتفق مع اللغة ، بل ويهز ما لله من جلال حين يضفى عليه أسماء وألقاباً بلغة المهنة .

فستبقى هذه الأبحاث مع الزمن فى المكتبة الإسلامية وتمسى مراجع ، وتعد أقوالاً إسلامية صادرة من باحثين مسلمين ، إذ يجهل الذين يأتون من بعدنا فى العصور القادمة قيمة الكاتب العلمية ومدى أهليته لخوض هذا المجال . ويجهلون أنها مجرد خواطر كاتب صحفى ، ليست مثلما يكتبه فى مجال تخصصه وهو الطب . وآخرون أحسوا بالخطر الكامن فى هذه الجرأة فقالوا : لا ينبغى نشر هذه الأفكار ، دفعاً بعدم اختصاص الكاتب ، وعدم توافر الشروط اللازمة لخوض هذه الدراسة لديه . فللتخصص فى أى فن مزيته ، وهو ضرورة كبرى لا يجادل فيها إلا الجاهلون خبثاء الطوية .

وقديما قال الإمام مالك بن أنس : « ليس كل من أحب أن يجلس للحديث والفتيا جلس حتى يتشاور فيه أهل الصلاح والفضل ، فإن رأوه لذلك أهلا جلس ، وما جلست حتى شهد لى سبعون شيخاً من أهل العلم أنى موضع لذلك » .

وقد جاء فى الآثار ما معناه : يحمل هذا الدين فى كل جيل عُدوله أى الثقات : وهم المختصون الورعون الذين يتثبتون مما يقولونه .

وفى الحديث الشريف : « من قال فى القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار » .

وفى حديث لعمر بن الخطاب : « ولكنى أخاف على هذه الأمة رجلاً قرأ القرآن حتى أزلقه . ثم تأوّله على غير تأويله » .

والحق أن المفسر لكتاب الله ، أو القائل شيئا فى أمر الدين ، سواء كان شفهياً أو تحريرياً ، وبخاصة ما يذاع منه حين يكون ما يقوله خطأ ـ إنما يحمل وزر خطئه ووزر من ضل به . والثواب الذى وعد الله به من اجتهد فأخطأ . أخشى أن يكون مقصوراً على الخطأ المقصور على المخطىء ، لا الخطأ الذى يخالف ما عليه إجماع الذين يعتد بإجماعهم .

وإذا علمنا أن الصليبية والصهيونية العالميتين يتلقف رجالاتها سقطات بعض الكتاب المسلمين ويذيعونها ، ويبنون عليها مسائل خاطئة يستنبطونها ، فإنه يتضح لنا قيمة الخطر الناشىء عن حديث منحرف فى الإسلام .

وندرك أنه يجب على المسلم أن يكون ورعاً ، يتحاشى أن يقول كلمة فى الإسلام قبل أن يسأل عنها ويقتلها بحثا حتى يطمئن قلبه .

لقد قامت زوبعة حول الموضوعات التى أثارها الكاتب ، أما النقد الموضوعى الذى يتناول الموضوع فى الصميم فلا يزال يحتاج هذه الدراسة ، وهو عبء ، وأتمنى أن يسد الثغرة كتابى هذا وينفع الله به ويوفقنى والأخ الكاتب للصواب ، ويجبنا فى طريق العمل الإسلامى وتحت ظل الحقيقة ، وراية القرآن .

عبد المتعال الجبرى

الفصل الأول

عـــدة المفســـر

- الاتجاه نحو التفاسير العصرية
- ما يجب أن يعلمه المفسر.
- سؤال وجواب.

الاتجاه نحو التفاسير العصرية

منذ فجر هذا القرن تظهر بين آونة وأخرى تفاسير للآيات الكريمة وللسنة المطهرة تعكس ما يبرق فى العصر من علوم ونظريات جديدة ..

فالشيخ محمد عبده وتلميذه رشيد رضا فى المنار ، وعبد العزيز جاويش فيما نشر من تفسيره بمجلة الهداية الإسلامية ، مظهر للتأثر بالدراسات الاجتماعية ، وللتطلع فى مصر والعالم العربى حينذاك إلى تغيير اجتماعى أساسه تلك الدراسات الاجتماعية والإنسانية التى سادت عصرهم .

وفى الثلاثينات وأوائل الأربعينات ظهر الشيخ طنطاوى جوهرى بتفسير للقرآن فى ضوء سيطرة العلوم الكونية والإنسانية ، والتطلع إلى وثبة أكبر فى مجال العلوم المختلفة ، ولخّص ذلك فى كتابه المسمى « الحكمة الإسلامية العليا » ، وإلى جنبه قامت دراسات تخصصية : مثل كتاب « الإسلام يترسم خطى الطب الحديث » للدكتور الطبيب حامد الغوابى ، وزادت هذه الدراسات كلما بهرنا العلم ، وعزّنا الإحساس بما نحن فيه من تأخر . وآخر ما وصلنا ما نشره الطبيب مصطفى محمود بمجلة « صباح الخير » فى ديسمبر سنة ١٩٦٩ وأوائل عام ١٩٧٠ وهو لاشك يمثل فى الطبيب هذه التطلعات الآملة فى أن يفهم المسلمون الإسلام بروح يغذوها العلم ، وترضعها المعرفة من أعلى مستوياتها .

كما أنه لاشك تمثل فى كتابته صور لتلهف الظمآن إلى آفاق روحية متدفعة اندفاع من أتخمه الشبع من المادة بكل صورها ومعانيها حتى أحس بثقل أغلالها ، فكان اندفاع الثائر فى قوة يريد الخلاص ... والخلاص وحده .. غير عابىء بأى شىء ، فوقع فى شطحات صوفية رددها الغزالى ، كما فى تفسير الآية : ﴿ **إنك ميت** ﴾ الزمر : ٣٠ (انظر مشكاة الأنوار للغزالى) .

ووقع فى سقطات الباطنية ، كما سنشير إليه نقلا عن (فضائح الباطنية للغزالى) .. ووقع فى أسر الانفعال والرغبة فى التعبير المتحرر المنطلق انطلاق المراهق لم تُهذّب عبارته التقاليد المرعية .. فى جنب الله .. ومجالى الدراسات الإسلامية ... لم يعرف الالتزام

الذى يقتضيه المقام .. وإن كان له فى ذلك محاولات تشكر فى هدفها ، وتقتضى النصح المخلص فيها .

ورغبة فى أن ينتفع الكاتب وأمثاله ـ فى محاولاتهم المخلصة ـ بالقوانين والواجبات المتبعة فى هذا اللون من الدراسة ، أنشر هذه اللمسات ، معتذرا عما إذا كان قد سقط منى عبارة ، ربما لا تكون مترفقة ورحيمة بكاتب له دراساته الواسعة . والكاتب وان نقصه فى هذه المحاولة الأولى فى الآفاق الإسلامية ـ كثير من التوفيق فإننى أدعو : راجياً الله أن يوفقه ويوفقنا لالتزام صراطه المستقيم .

ولا يفوتنى أن أشير هنا إلى أن الإلحاح على صوغ المفاهيم الإسلامية ونصوص الشريعة فى قوالب النظريات العلمية المعاصرة ، له خطره على الإسلام ذاته فى المدى البعيد لحركة الحرب ضد الإسلام .

لقد حاولت المسيحية بأوروبا أن تجدد نفسها ، فأدخلت على شروح الإنجيل دراسات فى الطبيعة والفلك والرياضة والطب وشتى العلوم .. ودرست هذه العلوم بقوانينها على أنها وحى مقدس ، فلما جدت نظريات أخرى قام صراع مرير بين جوانح كل متدين اختلط عليه ماهو من كلام الله وماهو من كلام البشر .. فدفعوا ـ عما ظنوه مقدساً من الكلم ـ كل نظرية وبحث يغاير ما اعتقدوه .. وبانتصار هذه النظريات فقدت الكتب الشارحة للإنجيل قداستها ، بل فقدت كل الدراسات المسيحية (الإكليريكية) احترامها .

وأكثر من هذا فإنه قد أصبحت المسيحية فى نظر كثير من أبناء الشعوب التى كانت تدين بها مظهراً للتخلف تجب محاربته بشدة ، فأقيمت معارض ومتاحف للإلحاد ، وعرضت المسرحيات والقصص التى تنقد الدين وتسخر به ممثلا فى رجاله وأفكاره وطقوسه .. بالصورة التى يعرفها كل من له إلمام بتاريخ الأديان .

ومن قبل هذا كان انهيار الديانة « الزردشتية » وسقوطها ، عندما وضع فى كتب علماء الدين ومدارسهم التى كانت تهيمن على الثقافة ـ ما ليس من الدين من علوم الفلك والطبيعة وغيرهما .

فإنه بتجدد العلوم والفلسفات ظهر ضعف هذه الدراسات العلمية التى تضمنتها كتب الزردشتيين المقدسة ، فلم تقو على مصارعة الفلسفات اليونانية والسوريانية ،

فقامت ثورات عليها ، وتمزقت شر ممزق ، فظهرت المزدية والمانوية وغيرهما من فصائل المجوسية ، واضطر كبار رجال الدين ، بل وساسة الفرس إلى أن يمحوا من (الأوفستا) كثيراً من النصوص المتعارضة مع العلم ، معتقدين أن هذه خطوة تنقذ الديانة المجوسية من سخرية العقل والعلوم الناهضة إبان ذلك . ونحن نتساءل .

هل تشجيع المستعمر لهذا الخط من التفاسير أولا ... ثم انسياق المخلصين فى هذا التيار ـ دون سوء قصد ـ ثانيا .. يُسْلمنا إلى المأساة التى تحطمت المسيحية على صخرتها ؟

إنها محاولات ـ لاشك ـ خير منها عدمُها ، وأوْلَى ألا تسمى تفسيراً للقرآن .... ومع ذلك فلن تستطيع أن تنال من الإسلام شيئاً .

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ الحجر : ٩ ـ وكم سبقت فى كيده محاولات فباءت بالفشل .

كناطح صخرة يوماً ليوهنها   فلم يضرها وأوْهَى قرنَه الوَعِل[1]

(١) الوعل : تيس الجبل ، وجمعه أوعال ، ووعول ، ووعل .

مايجب على المفسر أن يعلمه

أولاً : حفظ القرآن

على الذين يريدون أن يتصدوا لكتاب الله يفسرونه أو يستنبطون منه شيئا أن يتزودوا بالوعى التام للكتاب الكريم ، يحفظونه ، ويذكرون كل نصوصه ، ويضعونها نصب أعينهم : حيث يترابط بعضها ببعض ، ويفسر بعضها بعضا .

وإن عدم حفظ الكاتب أدى إلى وقوع تصحيف فى بعض الآيات وإلى الاستشهاد الخاطىء ببعض الآيات : فكثيرا ما يتورط فيحمل آيتين أو أكثر على معنى واحد ، ويستشهد بهما لأمر بعينه ، وتكون إحدى الآيات فى سياق غير سياق الآية أو الآيات الأخرى .

مثال ذلك سرده ثلاث آيات متتابعة من الكتاب[1] فى الاستشهاد لما يبدو نعمة ، وقد يكون فى الحقيقة نقمة ، بينا إحدى الآيات ، آية التوبة نزلت فى منافقى المدينة الذين قعدوا عن الجهاد مع المصطفى ﷺ فى غزوة تبوك ﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ ، إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ .

والثانية : فى سورة المؤمنون الآية ٥٥ ـ ٥٦ نزلت فى سياق الحديث عن قوم موسى ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ ﴾ .

والثالثة : فى آل عمران : ١٧٨ جاء سياقها فى الكفار من قريش ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ ﴾ .

كما استشهد لتحرير[2] النفس من الشهوات بآيتى التوبة : ١١١ ، والبقرة : ٥٤ ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ﴾ ـ ﴿ فَاقْتُلُوا

---

(١) القرآن : محاولة لفهم عصرى للقرآن ص ٨٠ ط أولى .
(٢) القرآن : محاولة لفهم عصرى للقرآن ص : ٩٠

أَنفُسَكُمْ ، ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ ﴾ باترا سياق الآية الأولى فى وعد الله للمجاهدين ، وسياق الأخرى فى زجر عبدة العجل من بنى إسرائيل .

ولا يمكن أن يجتمع المؤمنون المجاهدون والكافرون الظالمون فى سياق واحد إلا عند من لا يفقهون .

ويأتى فى موضوع الشورى (ص ١٥٦) بخمس آيات سرداً ، مبتورة من سياقها واثنتان منها فحسب ـ يقبلها موقف الشورى . أما الثلاث الأخريات ﴿ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ﴾ ق : ٤٥ و ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ، لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾ الغاشية : ٢١ ـ ٢٢ ـ و ﴿ وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾ آل عمران ـ ٦٤ ـ فإنه لا صلة لها بالشورى من قريب أو بعيد ، وإنما هى فى حرية الاعتقاد ، والآيتان الأوليان فى الكفار ، والثالثة فى أهل الكتاب[1] .

ثانياً : علوم اللغة :

وعلى الذى يريد التفسير أن يتوسع فى معرفة قواعد اللغة العربية بلاغة ، ونحوا ، ولغة ، وقد كانت أم المؤمنين عائشة تستشهد بالشعر العربى الجاهلى عند بيان المعنى اللغوى للكلمة من القرآن طبقاً للاستعمال العربى الأصيل .. وإنك لتجد القرطبى مليئا بالشواهد على الاستعمالات العربية للفظة القرآنية ، وكان ابن الأنبارى يحفظ ثلاثمائة ألف شاهد من الشعر أو النثر على الاستخدام اللغوى لألفاظ القرآن .

على أن من الخطأ أيضاً أن يفسر القرآن بمجرد إساغة اللغة للمعنى دون نظر إلى الله منزل الكتاب وإلى رسوله والمخاطبين به .

وقد عرضنا لأثر التقصير فى هذه النواحى عند وجود مظاهر ونتائج هذا التقصير فى (محاولة) المفسر للتفسير العصرى ، وما ضل الباطنية وضللوا غيرهم إلا بالفهم المنحرف فى كتاب الله وسنة رسوله ، وأيما فهم فى كتاب الله لا يخضع لهذه القواعد فهو رَدٌّ .

وقد قال الإمام مالك : لا أوتى برجل غير عالم بلغة العرب ، يفسر كتاب الله إلا جعلته نكالاً .

---

(١) القرآن والتفسير العصرى لبنت الشاطىء ص ٥٥ : ٥٦ ط أولى .

ثالثاً : مناهج البحث

يجب أن يتوافر للمفسر القدرة على اختيار أحسن الآراء ، والمعرفة بمصادر الأدلة حتى يمكنه ترجيح رأى على رأى ، ولهذا يجب الإلمام بمناهج البحث وقواعد المنطق وبخاصة القواعد التى تسمى « علم أصول الفقه » ، ليأمن الباحثُ العِثار .

وليس يكفي مجرد معرفة الأصول من الوجهة النظرية ، بل لابد من المرس بها من الناحية التطبيقية ، وهكذا قل فى علم « أصول الدين » التى تسمى « علم التوحيد » او « علم الكلام » وكأصول الفقه علم « مصطلح الحديث » ، وعلم الرجال ، فالمرس بذلك واجب حتى تتكون لدى الباحث الحاسة التى يميز بها بين ما يقبل من النصوص ومالا يقبل ، فكم من حديث ضعيف استشهد به الكاتب . بل كان يستشهد بمالا إسناد له ولا ثبوت لروايته ، كالكتب المقدسة عند الكتابيين : نصارى ويهود ، وهى كتب لا يُعرف كيف وصلتنا ، وأساطير فى نظر المسلمين مجهولة الرواة ، بل وفى نظر المشركين ، كما قال القرآن ﴿ **وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تُملَى عليه بُكْرَةً وأصيلاً** ﴾ الفرقان : ٥

وقد نسبت إلى بعض القديسين منهم ، ممن لا يُعلم ورعه ، وبعضهم مختلفٌ فى ذاته مثل يوحنا : أهو يوحنا الحوارى أم الإسكندرى ؟

هذا بالرغم من أن بعض هذه النصوص تخالف النصوص الإسلامية فيما ظنه الكاتب خلافاً يسيراً ﴿ **وتحسبونه هيّناً وهو عند الله عظيم** ﴾ .

قال السيوطى : وكل لفظ احتمل معنيين فصاعداً فهو الذى لا يجوز لغير العلماء الاجتهاد فيه ، وعليهم اعتماد الشواهد والدلائل دون مجرد الرأى ، أمّا ما يجرى مجرى الغيب والمتشابه ، فلا قول فيه لأحد ، وإنما يرجع إلى الوارد عن النبى – فقط – وهذا هو سر وجوب التزوّد بالسنة النبوية المطهرة .

رابعاً : أسباب النزول

العلم بما ورد من أسباب نزول آيات الذكر الحكيم ، فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب ، ولهذا كان أصح قولى الفقهاء أنه إذا لم يعرف المفتى أو القاضى ما نواه الحالف رجع إلى سبب يمينه . وما هيَّجها وأثارها .

ولا بد من ذلك لأنه يعطينا « خط السير » فى البحث عن مواطن الهداية – والاسترشاد بها ، بالرغم من أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، فإن من لا يعرف الخصوص لا يعرف العموم ودلالته ، وإذا قال الصحابى نزلت هذه الآية فى كذا فإن البخارى يعد ذلك حديثاً مسنداً ، أى مرفوعاً إلى النبى ﷺ . وغيره يعده تفسيراً من الصحابى إلا إذا كان ما قاله فيما لا مجال للاجتهاد فيه ، ولا هو منقول عن لسان العرب وإلا اعتبر مرفوعاً[1] .

والدراسة الواسعة للبيئة التى نزل فيها القرآن أمر واجب سواء البيئة الطبيعية التى تتمثل فى جغرافية الجزيرة العربية وما حولها . أو الاجتماعية التى تتمثل فى التاريخ والعادات والتقاليد والنظم التى كانت موجودة عند نزول القرآن كالملابس الشفافة أو العارية الصدر ، وكتصفيف الشعر ، أو ضفر الغدائر (الضفائر) وكألوان الزينة ، وما كان من عادة اختلاط الجنسين ، وما إلى ذلك من صور الحياة .. كل ذلك إدراكه أمر لابد منه ، لنعرف – بموازنة ماضينا الجاهلى مع حاضرنا الاجتماعى – حكم الله ؛ وأين نحن من الإسلام ، ولنعرف الإرشاد الذى توجهه لنا الآيات .

وكم من ألفاظ كانت لها مدلولات فى العصر الجاهلى ، ثم صارت تستعمل فى غير ما وضعت له ، أو وردت فيه النصوص .. وذلك أن الألفاظ لها حياة وموت ، كالإنسان وسائر الأشياء ، ومن لم يعرف البيئة القرآنية الأولى وفيها مدلولات اللغة القرآنية ، فلن يستبين المراد من الآيات .

خامساً : علوم البلاغة

عاب الإمام عبد القاهر الجرجانى أولئك المفسرين الذين يتعرضون لتفسير القرآن من غير إلمام بالبلاغة فقال : « ومن عادة قوم – ممن يتعاطون التفسير بغير علم – أن يتوهموا فى الألفاظ الموضوعة على المجاز والتمثيل أنها على ظواهرها ، فيفسدوا المعنى بذلك ، ويبطلوا الغرض ، ويمنعوا أنفسهم والسامع منهم العلم بموضع البلاغة وبمكان الشرف » .

وناهيك إذا هم أخذوا فى ذكر الوجوه ، وجعلوا يكثرون من غير طائل .. وهناك ترى ما شئت من باب جهل قد فتحوه ، وزند ضلالة قد قدحوا به . ونسأل الله

---

(١) مقدمة فى أصول التفسير لابن تيمية ص : ٤٨ .

العصمة والتوفيق.

ولابد من ارتباط المفسر بالجو البلاغي للآية. مثلا يفسر مصطفى محمود لفظ «يعشو» في الآية الكريمة ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ الزخرف: ٣٦، بأن معناه (يتصرف): تفسير لا يعطينا المعنى الكامل الذي يعطيه لفظ (يعشو).

فالحيوان أو الطائر أو الإنسان الذي يعشو تكون له عينان، ومع هذا فهو يتخبط. فلا هو يريد أن يسلم قياده لغيره، كالعميان يقودهم المبصرون، ولا هو مبصر يمشي على بينة فهو على عينيه حجاب كالضباب حيناً، وكالضوء الشديد الذي لا يستطيع أن يفتح فيه عينيه حينا آخر، ولذا فهو يتعثر كلما خطا خطوة، أو يصطدم بشر من الشرور لا يتبيّنه، ويضرب في الحياة على غير هدى، لأن مشاغل الدنيا تقف حجباً دون رؤيته الحق. فيظل في موقف مواجهة للقرآن يتخبّط، ويذوق آلام التعثر والضلال، وهو ممن قال الله عنهم ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ وهذا المعنى المأخوذ من الجو البلاغي للآية غير مدلول كلمة (يتصرف) التي قالها الكاتب.

إن الذي قيض له قرين من الشياطين يحمله شيطانه على اللجاجة، ويزين له الشر والعدوان والبغي. فلا ينصرف عن المخاصمة أبدا، ولا يلقي السلاح، ولا ييأس لفشل محاولاته المضادة.

سادساً: معايشة القرآن والتزامه:

ولا يكون هذا إلا بالتأمل الدائب في نصوصه، واستنطاقها الفتوى في كل ما يجِدّ للمسلم، أو يجري تحت ناظريه من شئون، وإلا بأن يأخذ نفسه بالكتاب الكريم، فستتفتح له أبواب من المعرفة في أثناء التطبيق، لا تتم للمتأملين فيه بنظرات تجريدية فقط، فهناك فرق كبير بين صورتين: إحداهما ناشئة عن نظرة تجريدية، وثانيتهما ناشئة عن ممارسة تجريبية، كطالب الهندسة أو الطب يدركان عند التطبيق كثيراً من المعرفة الجديدة التي يمكن أن نسميها «معارف التطبيق» لا يمكن أن تنال إلا بالممارسة.

فالذين يعيشون القرآن بغاياته وأخلاقه الرئيسية يمرون بنفس المواقف التي مر بها الذين نزل القرآن فيهم، أو في عصرهم، فيدركونه غضاً طريا صافيا نقيا كأنه ابن الساعة.

فالإنسان ـ الذي هو الموضوع الرئيس للمسلم ـ من حيث بيان أسباب السعادة والشقاء، والأخذ بيده إلى ما فيه خيره في الدنيا والآخرة بما شرعه له سبحانه من عبادات، وبما وضحه من معتقدات وسير للأولين، ونماذج لما في الكون والحياة من أمثال يستفاد من ضربها.. هذا الإنسان: عندما يعيش القرآن، أي يحيا بالقرآن ويحيا القرآن فيه، يجد أنماط الناس الذين نزل القرآن يُحاجّهم ويدعوهم من منافقين وكفّار، وكتابيّين معرضين أو يبتغون الحق، كما يجد أنماط المواقف التي قابلت الدعوة الإسلامية: «فموقف يحتاج التبصير بالله إلهاً واحداً، والتبصير بالمسئولية والجزاء في الآخرة وحتمية العدالة لصلاح حال البشر في الدنيا.. كما كان ذلك في فجر الدعوة الإسلامية، وموقف يحتاج الصراع والجدال ومواجهة التوتر النفسي فيمن يجهلون الإسلام، ثم تأتي مرحلة التميز والتجمع للانطلاق بعد اشتداد الساعد، والقدرة على الجهاد وإبراز الكيان الإسلامي وحمايته.

ولكل مرحلة متطلبات تنزلت فيها آيات، بل ربما تكررت الآية لفظا أو بالمعنى لتأكيد ما يجب معرفته أو عمله، وليتم بروزه باعتباره الطابع الذي يجب أن يسود الآونة، وفي الوقت ذاته هو الذي يناسب الموقف، كتكرار الآيات في الصبر: والتوحيد، والثواب والعقاب، إذ تتكرر في القرآن وشتى العصور لأن «الحركة لا تستطيع الإغماض عنها أو التساهل فيها في أي مرحلة من مراحلها، ولو كانت هذه العقائد الأساسية وهنت في نفوس المؤمنين لما تقدمت حركة الإسلام بروحها الصحيحة وطبيعتها الفذة، وهذا هو السر في شمول جميع سور القرآن موضوعات ثابتة، ولكن في ألفاظ متجددة وأسلوب متنوع».

إنك لا تستطيع أن تفهم القرآن فهما صحيحا وواضحا إلا إذا آمنت به إيماناً يحركك في كل مواقفك الحيوية، كما حرك الذين صنعوا به التاريخ أو صنع بهم القرآن التاريخ الإسلامي والحضاري، فالقرآن كتاب حياة لها خصائصها.. وكما قال الشاعر:

لا يدرك الشوق إلا من يكابده ... ولا الصبابة إلا من يعانيها

سابعاً: تحديد المسألة:

وكلما حدد الدارس إطار المسألة التي يريد معرفة الوجهة القرآنية في شأنها، فحدد

النواحي الأساسية في البحث ، واستخلص وجهات النظر البشرية حتى برزت له منطقة العجز البشري التي وقف الدارسون عندها مكتوفي الأيدي ، فإن القرآن يفاجئه بالإجابة التي تسدُّ الثغرة في الفكر البشري[1] .

ثامناً : العبرة بعموم اللفظ

قال العلماء : العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، فيتناول الحكم ما نزل فيه النص وما على شاكلته ، إما بالنص نفسه عند الجمهور ، أو بالقياس على النص ، أو بنص آخر عند البعض[2] .

تاسعاً : معرفة القراءات

وعلى الدارس كذلك أن يلم بأطراف من القراءات التي قد تختلف عن قراءته التي يتلو بها القرآن ، وذلك لما تمدُّنا به هذه القراءات من معان لابدَّ منها ، كقوله تعالى : ﴿ إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ﴾ قرأ بعضهم : (فتثبتوا) . والتثبت يعطي المدى الذي يجب أن يكون عليه التبيُّن واستكشاف الحقيقة . وحتى القراءات الشاذة ينبغي العلم بها . كقوله تعالى ﴿ وعلى الذين يطيقونه فِدْيَةٌ طعامُ مِسكين ﴾ . نزلت في صيام رمضان لبيان حكم الإفطار فيه وما يجب على المفطر ، وقد قرىء في الشواذ : ﴿ وعلى الذين يُطَوَّقونه ﴾ أي يُحَمَّلُون عليه ويتكلَّفونه ولا يطيقونه بيسر ، فهي تحدِّد نوع الطاقة ، وهي التي تكون مع بذل أقصى الجهد .

وقد قرىء (يَعْشَ) بفتح الشين ، فهو مشتق من الفعل (عشي) ـ بكسر الشين ـ إذا عمي بآفةٍ في بصره .

أما القراءة المشهورة (يَعْشُ) فهي من الأصل (عشى) أي ضعف بصره بلا آفة ، فكأنه يتعامى وقرىء (يعشو) وبعدها (نُقَيِّضُ) برفع الفعلين ، باعتبار الجملة مكونة من مبتدأ وخبر ، وليست جملة شرطية كالقراءتين الأوليين . وعلى هذا فهي تفيد ثبوت الخبر للمبتدأ ، وتفيد تجدُّد حدوثه ، وكأن تقيض قرين من الشياطين يكون كلما تعامى المرء أو تجاهل شرائع الله .

(1) المرجع السابق ص : ٥٢ .
(2) مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية ـ التعليق ص : ٤٧ .

ومزيَّة معرفة هذه القراءات : أنها تدلنا على أن من عمي عن الحق أو تعامى عنه متخبطا رافضا إرشاد الله زاده الشيطان غواية لأن الشر يولدُ الشر ، حتى يصبح المرء وكأنه صديق حميم للشيطان .

عاشراً : دراسة السيرة والسنة

وفي دراسة سيرة الرسول ﷺ وسنته وبخاصة الأحاديث التي وردت في تفسير كلمات أو آيات من القرآن وفي فتاواه ﷺ لأصحابه .

وفي المأثور عن الصحابة ممن هم أكثر منَّا دراية باللغة وبمواطن نزول القرآن وأسباب نزوله ، بل والمأثور عن التابعين كمجاهد وقتادة وسعيد بن جبير وعكرمة وعطاء والحسن البصري ومسروق بن الأجدع وسعيد بن المسيِّب ، فقد نقلوا ما سمعوه عن الصحابة ولا نجد بينهم خلافاً ، غير أن منهم من يروي الحديث بالنص ، ومنهم من يرويه بالمعنى ، ومنهم من يعبر عن الشيء بلازمه أو نظيره والمعنى واحد[1] ، وفي الصور التطبيقية للإسلام ممثَّلَةً في الرعيل الأول من حمَلته .

وفي كل ذلك ما يضع لنا معالم على الطريق الحق والهدى ، حين نعرض لتفسير القرآن ـ لا يزيغ عنها إلا هالك .

وفي القرآن الكريم ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ الأحزاب : ٢١ . وهذا أمر لنا بأن نهتدي بالرسول في فهم الكتاب الكريم .

وقد جاء القرآن مؤكدا أن هذا الذي ذكرناه من دراسة سيرته وسنته وفتاواه مما هو صلب عمل الرسول ، واجبنا هو إتباعه ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ النحل : ٤٤ . وقال سبحانه ـ في شأن الصحابة وتابعيهم ﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ، أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ الواقعة : ١٠ ـ ١١ وقال ﴿ وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ التوبة : ١٠٠ .

فهذه نصوص توجب علينا أن نأخذ عنهم أيضا ، لأنهم مقربون ومرضيٌّ عنهم من الله ﴿ فَإِنَّ اللهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ التوبة : ٩٦ .

(1) مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية ص : ١٠٣ ـ ١٠٤ .

وهذه الآيات شاهد لحديث البخاري الذي رواه عن رسول الله ﷺ (أصحابي كالنجوم ، بأيهم اقتديتم اهتديتم) بالرغم مما قيل في سند الحديث .

بل إن النبي ﷺ صرح لنا بضرورة اقتفاء آثار الصحابة الراشدين باعتبارهم في حياتهم الصورَ التطبيقية للرسالة التي جاء بها . فقال ﷺ (عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ)

حادي عشر : دراسة العلوم الكونية والاجتماعية

والعلوم الكونية والاجتماعية والنفسية والصوفية ، وكل ما خلق الله من معارف ، لابد للمفسر من الاطلاع عليها ، فهي تعطينا شواهد تزيدنا يقينا بنسب القرآن إلى عالم الغيب والشهادة الحكيم الخبير ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ ، وَفِي أَنْفُسِهِمْ ، حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ فصلت : ٥٣ .

ولا شك أن حقائق العلوم المنوعة التي سبق القرآن بتبيانها وسبيل الوصول إليها من تجارب ومعدات علمية لم تكن موجودة عند نزول القرآن ، وما كان من الممكن للعرب أن يعرفوا تفاصيلها ـ لا شك أن ذلك يزيدنا يقينا بأن القرآن من عند الله .

فهي بهذا تؤكد لنا علم الله بالغيبيات ، وهيمنته على المخلوقات ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ ، وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ ؟ ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ القمر : ٤٩ .

فهي ظلال من المعرفة تساعدنا على تصوُّر عظمة الله في كتابه المسطور ، وأنه على النحو الذي تجد عظمته في كتابه المنشور ، كتاب الوجود فنقف أمامه سبحانه خاشعين مسلمين ، بل مؤمنين قانتين .

فكما قيل : إن شرائع الله التي تتضاءل أمامها عقول الفلاسفة مجتمعين ، وإخباره سبحانه عن الغيب العلمي الذي أشار إليه في كتابه منذ قرون ـ ثم تحقق في عالمنا ما سبق أن أنبأنا به ـ كل هذا يمنحنا الإيمان بصدق مبلغ الكتاب إلينا وهو الأميُّ الأمين .

كما تعطينا اليقين بصدق ما في الكتاب من غيب آخر ، موعده يوم الدين ومكانه في الدار الآخرة .

وأبحاثنا العلمية ـ معشر البشر ـ ينعكس عليها قصور مداركنا وقُدُراتنا . ومن ثَمّ

فهي أقل من أن تفهم في ضوئها كتاب الله . وإنما الصواب والمنطقي أن نفهمها في ضوء كتاب الله فإن الكامل هو الذي يحكم على الناقص ، وهذا هو قول القرآن : ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ، يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ ، وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ . وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ المائدة : ١٥ : ١٦ . وعلى الذي يريد أن يقف على أعلى منصة يخاطب فيها العالمين أن يقرأ على الأقل كتاباً من كل نوع من هذه الأنواع ، ليميز الخبيث من الطيب ، وليستوثق لنفسه مما يتفق مع فكره ، ويناقش ما يعارضه ، ولتكتمل له جوانب عديدة للمضمون القرآني .

فكل لون من التفاسير مرآة تعكس من ناحيتها جانباً كريما في القرآن . على المفسر للقرآن أن يجليه ـ وكذا كل جوانب الجمال في القرآن ، وإلا كان كمن أراد أن يعرض صورة لشيء فعرض صورة جزء منه ، وترك باقي الأجزاء محجوبة عن الأنظار ، إن مأدُبة القرآن ممتدة فسيحة ، فعلى من أراد أن يقدمها للناس أن يعرف كل ما عليها ، وما تحتويه ، وأن يعرضها لمن أراد أن يقدمها إليه كاملة ، فلا يترك فيها شيئا خفيا إلا كشف عنه وجلاه بحسه الورع المستنير .

كما أنه لازم لكيلا يعول على الآراء الضعيفة برغم بيان العلماء وجوه الضعف ، وفي هذا تحريف للكلم عن مواضعه وتفسير يبعدنا عن مقاصد القرآن إلى مآرب الأشخاص وشهواتهم .

سؤال وجواب

وقد أثار البعض سؤالاً مضمونه هل لكل مسلم أن يفهم من كتاب الله ما شاء أن يفهمه ، كما قال أحد الخبازين لابن أختي الجامعي (خذ من القرآن ما شئت كيفما شئت)

وهل يمكن للإنسان أن يتلقى فهمه للدين عن أي شخص قادر على التعبير؟

ربَّما قال بعض الباحثين المحدثين (المعاصرين) : إنَّ للمسلم أن يفهم ما يشاء ، ولكن عليه ألا يذيع على الناس إلا ما اتفقت عليه جمهرة المسلمين ، أو كان وجه الحق فيما يقوله واضحاً .

والحق أن المسلم كما أنه مسئول عن كل ما يذيعه ـ مسئول عن نفسه أيضاً ، فلا يصح أن يعمل إلا فى إطار الحقيقة التى لا يرتاب فيها ، والحقيقة التى تتأبى على الرِّيبة هى ما كانت قائمة على أصول العلم وقواعده . فإذا كانت فى التفسير لوحظ فيها كل ما ذكرناه عند عدة المفسر.

وقد عرفنا أنه لا يجوز أن يُتلقى الدين إلا عن ورع لا يقول إلا عن علم قائم على الأصول العلمية التى ذكرنا طرفاً منها خاصاً بتفسير القرآن .

ثانى عشر: ورع المفتى وعدالته

وقد اتفقت كلمة المسلمين على أن الفتوى لا تؤخذ إلا من الورع العدل ، فمن اشتهر بالفسق ، أو كان مجهول الحال ، لا تؤخذ عنه رواية الحديث .

وهكذا فى التفسير : يشترط فى مفسرى القرآن أن يكونوا ممن عاشوا فى تعاليمه ، وتكوّن لهم الحسُّ الإسلامى المرهف ، الذى ينفى عن آفاق فكره وسوسة الشيطان ، وزيف أفكاره ، كما ينفى الصَّيْرفىُّ الماهر العملة الزائفة .

وهذا الشرط لازم لأن هنالك كثيراً من التفاسير تحمل وجهات نظر متعارضة ، فالشيعة والمعتزلة والفقهاء والصوفية والنُّحاةُ والبلاغيون وأهل السنة من المتكلمين والاجتماعيين والعلميين.. لهم فى القرآن كلام .

***

الفصل الثانى

إعجاز القرآن

١ ـ فى الموسيقى القرآنية

٢ ـ بماذا كان إعجاز القرآن؟

أمثلة للإعجاز العلمى :

- السمع والبصر.
- آثار الرياح فى الزراعة .
- بيت العنكبوت .
- الفرق بين السنين القمرية والشمسية .
- البصمات .
- الكشف الصوفى .

١ ـ فى الموسيق القرآنية

يقول الدكتور : إذا كان للشعر موسيقاه الظاهرة التى تتمثل فى الوزن والقافية فإن كل كلمة فى القرآن وكل جملة من الآيات البينات تصدح موسيقاها الساحرة بين اخلها بطريقة تدل على أن مصدرها غير مدرك ، ويصحبها جلال ومهابة وروعة فى التصوير والظلال التى ترسم المعنى . قد لا ندركها الآن بحكم العادة أو البلادة ، أو الإغراق فى العامية ، حتى ذهلنا عن أسرار الجمال فى لغتنا العربية ، ثم زاد الطين بلّة فساد الأداء من المرتلين الذين لا يصحب ترتيلهم الانفعال الذى يتناسب والمعنى الذى يتلونه ، وإنك لتخشع لسماع الآية بجرسها وموسيقاها حتى قبل أن تعيشها وتفهم معناها ،ومن ثم كانت ترجمتها ضربا من المحال ، ومحاولة فاشلة لنقل البناء العظيم فى كل شىء ، مكانةً وبهاء وصورة . لقد كان القرآن جديداً فى معانيه ومبانيه ، إذ لم يكن للإنجيل فى اللغة العربية نصيب ، فإن أول نص مسيحى مترجم إلى العربية هو مخطوط بمكتبة القديس ، بطرسبرج ، كتب حوالى عام ١٠٦٠ م ، والقرآن أصدق فى عباراته . فترجمو التوراة يذكرون أن إخوة يوسف استخدموا « الحمير » ، بينما القرآن يذكر أنهم استخدموا العير .

والحمار حفرى لا يقوى على اجتياز الصحارى الواسعة من فلسطين إلى مصر ، بينما الإبل هى الحيوان المألوف فى هذه الرحلات .

والقرآن يحمل الدليل على أنه من عند الله . وليس لمحمد عليه الصلاة والسلام فيه شىء ، إذ أنه يعزل النبى بحياته الشخصية عن القرآن ، بل ويتنزل بما يتناقض مع الرأى الشخصى للنبى ﴿ وَلاَ تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ ﴾ طه : ١١٤ ، ويتنزل عليه العتاب ﴿ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ ﴾ .

ويضع فى أوائل السور حروفا مقطعة لم يكن النبى على علم بها : ﴿ الم ، حم ، عسق ﴾ وكأنها مفاتيح الشفرة .

● **تعقيب :**

وحسنا ما قاله الكاتب ، غير أنا نسأله

● **أولاً** : كيف يعزل النبى بحياته الشخصية عن القرآن وهو المثل البشرى الذى جعله الله القدوة ؟ أليس من الحياة الشخصية قوله سبحانه للنبى : ﴿ **لم تحرّم ما أحلّ الله لك تبتغى مرضاة أزواجك ..** ﴾ الآيات فى سورة التحريم ؟ وقوله سبحانه : ﴿ **يا نساء النبى من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب** ﴾ الآيات ٣٠ ـ ٣٤ من سورة الأحزاب . وقوله : ﴿ **يأيها النبى قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهنّ من جلابيبهن** ﴾ الأحزاب : ٥٩ .

● **ثانياً** : وكيف لا يعلم النبى مفاتيح الشفرة ، وهو حلقة الاتصال بيننا وبين الله .. وكيف يستساغ من المتحدث الرسمى عن الملك ألا يكون فاهماً للبيان الذى يذيعه ؟ ولله المثل الأعلى .

قد يقال : ولماذا لم يرد عن الرسول نص بمعناها ؟

والجواب : أن أصحاب النبى لم يسألوا عنها ، لأنهم فهموا منها فهماً ما ، ورضوا بما فهموه .. وكم من كلمات فى اللغة ، وكم من أفانين فى استعمالها نجهلها .. فكيف نسقط شعورنا بالجهل على رسول الله الذى علمه ربه وأدبه فأحسن تأديبه .. ومن الأدب العلم .

ثم أنه واضح جلى أن هذه الحروف يقف أمامها العلماء مواقف شتى ، كل منهم راض عن موقفه منها .. وهى بحيث تُشع أنوار هذه المواقف طرًّا .

ومتتبع كتب التفسير يجد موضوع هذه الحروف مطروحاً للمناقشة بما تضيق عنه هذه الصفحات ، فليرجع إليها فى المراجع الكبرى من شاء .

ومعظم هذه الآراء تدل على بعض الجوانب التى لا تضيق بها هذه الحروف ، ولا تتعارض مع العقل والعلم :

(ا) قال بعض العلماء : إن السورة التى تبدأ بحروف هجائية مثل (نٓ ـ صٓ ـ حمٓ) يغلب فيها الحرف الذى فى افتتاحها على غيره ، بحيث أننا لو عددنا أحرف كل سورة وقسمناها مجموعات ، كل مجموعة تحت حرف هجائى لوجدنا أن الحروف التى ابتدأت بها السورة هى الأكثر فى الكلمات ، مما يدل على أن هذه الحروف جاءت إشارة إلى ما قلناه .

فمثلا فى سورة (ق) كان ينبغى أن نجد حرف (ق) يتمتع بأغلبية بين الحروف الهجائية فى السورة وهكذا . ولكننا بمراجعة السورة وتصنيف حروفها وجدنا اللام

وردت (١٤٠) أربعين ومائة مرة ، بينما لفظ « ق » ورد (٥٧) سبعاً وخمسون مرة فقط . وفى سورة (ن) نجد أنها وردت (١٢١) مرة تماماً مثل اللام ، ولكن التنوين وهو النون الساكنة التى تثبت لفظاً لا خطاً ولا وقفاً هى التى ترجح الكفة . وقد وردت الهمزة ٦٦ مرة فالقاعدة إن صحت فى (ن) باعتبار التنوين نونا ساكنة لم تصح فى (ق) .

(ب) وفى سورة الشورى مثلاً ، نجد أن الله يضع الحروف ثم يطلق اسم الإشارة إليها ، ليدل على أن تركيب القرآن المعجز ، إنما هو من جنس الحروف التى فى أيديهم ، وأن منتهى الضّعف البشرى أن يعجز الإنسان عن أن يصنع بما فى يده صنيع الذى يتحداه ، والمادة مطروحة بين يدى المتحدِّى والمتحدَّى .

﴿ **حم . عسق : كَذَلِكَ .** ﴾ أى مثل هذه الحروف ﴿ **يُوحِى إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** ﴾ .

والإعجاز ليس فى الحروف ، وإنما فى قدرتها على استيعاب مالا يطيقه البشر من علم وإدراك وحكمة وجمال فنّىّ .

وكأن الله يشير بهذه الحروف إلى روح المعجزة فى القرآن ، وأنها ليست إلا لأنها منه سبحانه ، فأعجزتهم عن أن يأتوا بمثلها فى المضمون وفى الصياغة معاً .

(جـ) ومن العلماء من يقول : إنها ـ أحياناً ـ تقع أصواتاً للتنبيه على أهمية ما يأتى بعدها ، فهى أشبه بأدوات الاستفتاح والتنبيه مثل : ألا وكلاَّ وها .

(د) وقال آخرون : هذه الحروف ترمز إلى بعض صفات الله لأهميتها ، واقترحوا بعض الصفات التى تمثل جانبا من صفات الله ومتعلقاته . برزت فى السورة المفتتحة بهذه الحروف ، ولكن هذا قول ليس له سند مسند إلى رسول الله ﷺ .

(هـ) وقال آخرون : عند تفسير هذه الحروف : الله أعلم بمراده من هذه الحروف .

(و) وقال ابن حزم : إنها هى المتشابه الذى نهينا عن الخوض فيه ، ولم نكلف البحث عنه ، فالجرى وراءه عبث ينبغى التورع عنه .

ويعنى ابن حزم بالنهى قوله تعالى : ﴿ **هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ ، مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللهُ** ﴾ آل عمران : ٧ .

(ز) ويرى بعض المعاصرين أن وراء هذه الحروف أسراراً لم يكشف عنها العلم

بعد ، وقد يأتي المستقبل بما يكشف عن أسرارها ، فهي من باب الإعجاز بالغيب في باب العلوم التي يشير إليها القرآن قبل حدوثها بأجيال .

● **مأخذ بنت الشاطىء :**

قالت : تورط المفسر العصرى فى حديثه عن (المعمار القرآنى)[1] و (سيمفونية) سورة الفاتحة .

ومن قبله تورط الزميل الشاعر نزار قبانى فى مثل هذا حين بدا له أن يكتب إحدى قصار السور القرآنية على نسق الشعر ، وفاته أن القرآن قد أصر على نفي وصفه بالشعر ، ردًا على زعم المشركين أن محمداً شاعر ، وأن القرآن شعر ، وفى ذلك يقول تعالى : ﴿ **وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ** ﴾ .

وهى تريد بذلك خروج الكاتب على ما هو مألوف فى الحديث عن القرآن والنبوة من انتقاء ألفاظ مناسبة تجب مراعاتها .

ثم قالت :

ويؤكد التأويل العصرى عشر مرات أن القرآن يتحدث بالشفرة والرمز والألفاظ المطلسمة (ص٢٦ ، ٣٦ ، ٤٠ ، ٤٨ ، ٨٩ ، ١٢٦ ، ١٣٧ ، ١٦٨ ، ٢٠٢) ، وقال : إنه سبحانه سوف يشرحه ويبينه فى مستقبل الأعصر والدهور بينما قال القرآن ﴿ **وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ، وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ** ﴾ وقال : ﴿ **وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ ، وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** ﴾ .

أقول الحق : لقد تحيّرت مع هذا التأويل العصرى ، فحيث يقول مرات ، إن القرآن ليس كتاب علم (ص٢٦) ولا كتاب فلسفة ولا سياسة (١٥٧ ـ ١٥٨ ـ ١٣٨ ـ ١٦٨) يؤكد فى مواضع أخرى (أن التوحيد نشأت منه أعداد المعارف والعلوم) (ص ٣١٩) وهو يدلك على علوم لم تعلم بعد .. ويقدم إليك حكمة الأزل ، ودستور الحياة ، وفلسفة الأخلاق والحكم واللاهوت وما وراء الطبيعة ، وفى المعاملات والحرب والسلم . و ..) ص١٩٥ ـ وتتسابق العلوم فلا تكاد تلحق بأذيال القرآن) ص ٢١٣ .

وهذا اضطراب موضوعى وقع فيه الكاتب .

(١) مصطفى محمود : محاولة لفهم عصرى للقرآن ص ٧ .

٢ ـ بماذا كان إعجاز القرآن ؟

لإعجاز القرآن صور شتى ، فقد يكون إخباراً عن غيب سباق ـ وكانت الشواهد لا تدل عليه عند نزول القرآن ثم يقع هذا الغيب ، أو عن تاريخ مجهول تكشف الآثار عنه فيما بعد .

وقد يكون فى الحجة البسيطة المفحمة كالرد على منكرى البعث، بقوله ﴿ **أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ** ﴾ ـ وقد تحمل الحجة ـ مع منطقها ـ من الحيوية ما يقنع النفس بوجهة النظر القرآنية ، بحيث تستنكف ـ فيما بينها وبين نفسها ـ من موقفها المضاد لنظرات القرآن .. كقول الله فى الرد على عباد الأوثان بإظهار حقارتها التى تبرز حقارة عبادها فى أدب وترفق مناسب ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ، وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ، ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ** ﴾ . (الحج : ٧٣) .

ومن الإعجاز إيصاد[1] الباب فى مجال الأبحاث التى ليس من الإمكان الوصول إليها مثل كنه الروح .

... ومنه أيضا الإتجاه فى الإجابة إلى مايسميه البلغاء « أسلوب الحكيم » . كمن يسأل عن كيفية ظهور القمر من العوام .. فيذكر له ما يمكن أن ينتفع به من دراسات الفلك .

ومن الإعجاز تشريعه الحكيم ، إلى جانب الديباجة والصياغة الساحرة الأخاذة بمجامع القلوب حتى لا يملك السامع ـ مهما كان كافراً ـ أن يخفي إعجابه وتعظيمه لما سمع .. وأحيانا يسجد للقرآن ـ مع كفره ـ كما حدث لمن سمعوا النبي يقرأ النجم ، حتى انتهوا إلى قوله سبحانه ﴿ **فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا** ﴾ فسجد الجميع مسلمين وكفاراً .

وقال الكاتب : إن الإعجاز راجع إلى اللفظ ، بما يستثيره فى القلب من إحساس

(١) إيصاد : إغلاق : الفعل أوصد ، يوصد .

غامض .. مع اتساق كلماته للمعانى والموضوعات المعروضة على السامعين ، سهولة أو جزالة .. شدة أو رقة ، بحيث تستثير الإحساس النابض بالخضوع من قبل أن يتيقظ العقل فيحلل ويفكر ويتأمل .. وقد تحدى الله الدنيا أن يأتى أحد بسورة أو آية من مثل القرآن ، فكان العجز الدال على الإعجاز[١] .

أمثلة للإعجاز العلمى :

ذكر الكاتب من أمثلة الإعجاز العلمى بعض الكشوف العلمية الحديث التى تُنبّه إلى أن إشارة القرآن إليها ـ قبل التوصل إلى معرفتها بمئات السنين ـ هى الدليل على أن القرآن بلفظه ومعناه نزل من عند الله ، مصدقاً لرسوله ، وهادياً إلى صراط مستقيم .

السمع والبصر :

فالقرآن عندما يتحدث عن السمع يتبعه ذكر البصر فى أكثر من سبعة عشر موضعاً . كقوله : ﴿ **وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ** ﴾ السجدة : ٩ . وقوله ﴿ **إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ** ﴾ الحج : ٧٥ ، لأن السمع أعقد وأرهف من جهاز الإبصار فى الإدراك .

ومع ما قاله الكاتب قال علماء البلاغة : إن هذا الأسلوب يعرف بأسلوب (مراعاة النظير للنظير) .

فذكر حاسة من حواس الإدراك تجذب انتباه السامع إلى السؤال أو التفكير فى أقرب حاسة أخرى من حواس الإدراك ، فكيلا يتشتت الذهن أو تتوزع النفس كان من بلاغة قول الخبير بالنفوس أن يوصد الباب بذكره النظيره ، وهذا باب ممتع من أبواب البلاغة .

آثار الرياح فى الزراعة :

والقرآن يتحدث عن أثر الرياح فى سوق السحب والأمطار وارتباط ذلك بخصب الأرض ، كما أن الرياح تحمل اللقاح لنباتات وأشجار أخرى[٢] ، ﴿ **وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ** ﴾ الحجر : ٢٢ .

(١) القرآن محاولة لفهم عصرى للقرآن ص ٢٠٦ : ٢٠٧ .
(٢) نفس المرجع ص ٢١٠ .

● بيت العنكبوت :

وقال تعالى : ﴿ **كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا** ﴾ العنكبوت : ٤١ . فأنث الفعل ليدل على أن التى تصنع بيت العنكبوت أنثى ، وليس الذكر ... واختار التشبيه ببيت العنكبوت ، لأنه أسوأ البيوت ، فالأنثى تقتل الذكر عقب تلقيحه لها إذا تمكنت منه ، ولذا فإنه يبادر بالهروب ... والبيض حين يفقس يأكل الصغار بعضها بعضاً ، كما يفترس العنكبوت كل حشرة تقع فى شباك نسيجه .. وعبر الله عن الوهن ـ وهو الضعف ـ فنسبه إلى البيت لا إلى الخيط ، لأن خيط العنكبوت أقوى من مثيله فى السُّمك لو صنعنا مثيله من الصلب ، فهو فى متانة ثلاثة خيوط صلب ، وهو كذلك أكثر متانة ومرونة من خيط الحرير ، والعرب ، بل كل العالم لم يكشفوا هذا إلا بعد نزول القرآن بمئات السنين[١] .

● تعقيب :

وقد أخذ على هذا التأويل أنه يمسخ الصورة الأدبية ، ويفقدها الأثر النفسى المراد فى بيان فساد ألوهية الأوثان ، كما أن اللغة تشرك فى التسمية بلفظ النمل والنحل والعنكبوت بين الذكر والأنثى ، مما يبطل خيال الكاتب ، فلفظ العنكبوت يطلق على الذكر والأنثى .

الفرق بين السنين القمرية والشمسية :

قال الكاتب :

وفى الحساب الفلكى ، قال تعالى ﴿ **وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ** ﴾ أى شمسية ﴿ **وَازْدَادُوا تِسْعًا** ﴾ الكهف : ٢٥ ، إذا حسب الزمن بالسنين القمرية[٢] .

تعقيب :

أقول : ولا شك أن هذه إشارة مستنبطة لم يقصد القرآن إليها قصداً . فالقصة وقعت ، وكان الزمن من قبل نزول الآيات تسعاً وثلاثمائة سنة كما قال المفسرون . وقال آخرون : بل المراد حكاية الخلاف بين أهل الكتاب فى مدة نوم أصحاب

(١) المرجع السابق ص ٢١١ : ٢١٢ .
(٢) المرجع السابق ص ٢١٣ .

الكهف . قال بعضهم ثلاثمائة سنة ، وزاد بعضهم فقال : تسع وثلاثمائة سنة ـ تماماً ، كما اختلفوا فى عدد أهل الكهف . ولذا قال تعالى معقباً على هذا الخلاف : ﴿ قُلِ اللهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا ﴾ . الكهف : ٢٦ .

ولأن تحقيق الفرق الزمنى البسيط تاريخياً فى هذه القضية لا ينبنى عليه كبير فائدة ترك الله ذكره ، ليعلمنا كيف يجب أن يترك بحثُ مالا جدوى منه .

● **البصمات**

قال تعالى : ﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن لَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ ؟ بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ ﴾ القيامة : ٣ : ٤ . فأشار إلى أن البنان غير متساوية ، وهذا هو الأصل فى الانتفاع بالبصمات عند إثبات الشخصية ..

فمع العلم بالغيب من الكشوف العلمية ... نرى أن كل لفظة لها بلاغتها المعجزة فى اختيار المكان المناسب وانتقاء اللفظة دون غيرها للتعبير عما يراد منها ...

وكل هذا كلام سبق الكاتب به .. ونحن لا نناقش رأياً أفاض فيه الكتاب من قبلنا . فهنالك كتاب خاص للباقلانى فى إعجاز القرآن ، وآخر لمصطفى صادق الرافعى ، كلاهما يسمى إعجاز القرآن .

وقد ذكر هذه الآراء وغيرها .. وفى مقدمة تفسير القرطبى ذكرت وجوه عشرة للإعجاز ... ولكن الذى يعنينى فوق ما نبهت إليه ـ هو ما دعا إليه الكاتب من خرافة الكشف الصوفى .

● **الكشف الصوفى :**

قال الكاتب : القرآن يدلنا على .. غيب محجب مطلسم لم يكشف إلا لفئة من المخصوصين من أهل التصوف .

● **التعقيب :**

وتصور الكاتب أن المتصوفة يكشف لهم عن غيب .. تصور خاطىء يضاد صريح قول الله : يُعلِّم نبيه ويعلمنا : ﴿ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ [٦] إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ الأعراف : ١٨٨ . وقول الله :

(٦) فى المجلة (قل لو كنت) وهو خطأ .

﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ﴾ الأنعام : ٥٩ . والجُمل التى فيها نفى بعده لفظ الاستثناء « إلاَّ » مثل قوله ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ ﴾ .. يفيد القصر ، فالمعنى أن الغيب خاص علمه بالله وحده ، لا يعلمه نبى مرسل ولا ملك مقرب . فضلاً عن متصوف يلهث وراء مقام النبوة ، ومحال أن يصل إليه .

ألا ترى كيف أثبت الله أن علم الملائكة محدود بما يعلمهم إياه ربنا .. ﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ﴾ البقرة : ٣٢ .

ثم ألا ترى كيف جمع الله مختلف مجالات الغيب وجعلها من مميزات علمه عن غيره فقال : ﴿ إِنَّ اللهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ، وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ ، وَيَعْلَمُ مَا فِى الْأَرْحَامِ ، وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ، وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ آخر سورة لقمان .

فأخبار الآخرة من أول مدخلها وهو قيام الساعة ، وأخبار الجو والخصب والرخاء ممثلا فى الغيث ، وأخبار تكوُّن الشخصية والحمل والإخصاب ، ومطامع الأزواج فى الأولاد ممثلا فى علم مافى الأرحام ، وأخبار النشاط الاقتصادى بأنواعه ، وكل أنواع الكسب المادى والعلمى والاجتماعى ممثلا فيما تكسبه النفس فى مستقبلها ، على وجه التحديد والجزم ، وأخبار الموت والآجال ، كلها من الغيبيَّات التى هى لله وحده . فماذا يريد أن يقول القائل بعد ذلك ، أو يستطيع أن يدعى أنه مما يكشفه الصوفى ولا يدخل فى هذه المجالات ؟ اللهم إنه لا شىء .

***

الفصل الثالث

التـــوحيـــد

● **لا إله إلا الله**

تظرية الفيض أو العلَّة

أسماء الله الحسنى

تحريف معانى الأسماء الحسنى

● **أسماء الله**

الحى القيوم وخطأ الدكتور فى تفسيرهما

الهجرة وخطأ الدكتور

الشعور بالعمل الصالح

خطأ الموازنة بين المتصوف وبين اليوجى والراهب

بشرية الأنبياء

الإدراك الصوفى

الدعاء والصوفية

ذمُّ الصوفية لعلم الفقهاء .

● **رب واحد ودين واحد .**

● **لا كهنوت**

متى تسقط التوبة الحدَّ ؟

هل الرقيق مظهر للبطالة ؟

تشويه التاريخ الإسلامى .

لا إله إلا الله *

نظرية الفيض أو العلة :

إن لكل علم منطقاً خاصاً ومصطلحات دقيقة .. لا يسمح الإنسان الذى يحترم نفسه لنفسه ، أن يتجاوزها .. والكاتب شرح قولنا « لا إله إلا الله » بقول الصوفية المعروف « لا موجود بحق إلا الله » . أما غير الله فجرد صور تبرق وتختفي ، ثم قال (ص ١٨٥) ومن ثم « لا إله إلا الله » منه ينبع الكل . وإليه يعود الكل .

فقوله « منه ينبع الكل » .. تشعرنا بقول الفلاسفة الوثنيين بأن الله يُفيض ، أو تنبثق منه الموجودات كانبثاق النور من المصباح الكهربى عند وجود التيار ، وكوجود الإحراق من النار عند مماسّتها .

وهى فلسفة تعنى نشأة الوجود عن الله بطريقة وجود المعلومات عند وجود العلة ، ووجود المسببات عند وجود السبب .. ومعنى هذا أن الله فاقد الإرادة . ولذا قال علماء التوحيد :

ومن يقل بالطبع أو بالعلّة فذاك كفر عند أهل الملة

فالخلق لا ينبع ولا يفيض من الله كما تنبع المياه من الآبار والينابيع تلقائيا ؛ وإنما كما قال سبحانه : ﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ﴾ الأعراف : ٥٤ - ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ القمر : ٤٩ - ولم يقل : ينبع منا ، أما كيفية الخلق فموضوع آخر .

وخير لنا أن نسلم بأننا لا نعلم كيف كان الخلق ، والحدس فى هذا المجال ضرب من التيه والضلالة ﴿ مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ ﴾ الكهف : ٥١ - فقط نُتابع ونتأمل ونلاحظ خلق الله ، لنستفيد فى حياتنا الطبية والزراعية والصناعية من هذه التأملات كما أمرنا الله ﴿ قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ يونس : ١٠١ .. ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ، ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ ﴾ العنكبوت : ٢٠

---

* القرآن محاولة لفهم عصرى للقرآن ص ١٨٣ - ١٩٧ .

يعنى التّعرف على الإعجاز فى كيفية بدء الخلق . وعلى أن الخلق حقيقة ملموسة ، ولكنها مجهولة السر.. وكذلك يكون البعث مجهول الكيفية . ولكن حقيقته من الإمكان ، بمثابة بدء الخلق المعلوم الموجود ، المجهولة كيفية نشأته .

والدليل الفلسفى على استحالة أن يكون الخلق نبعاً من الله أو فيضاً عنه ، أو أن وجود الله سبب » أو علّة « : أن الله » سبحانه « وجوده أزلىٌّ كما هو أبدىٌّ لا ينتهى .

ولو كان وجود العالم بطريقة السببية ، أو النبع أو الفيض لاكتسب الخلود ، لخلود السبب وأبدية وجوده ، أعنى بالسبب الخالد ــ الله سبحانه .

وأنا متأكد أن الكاتب لم يقصد منزع الفلاسفة ، لأنه قال بعد ذلك : » هو الحى الباقى يعطى الحياة للكل ، ولا يستمد حياته من أحد « .

ثم انتكس الكاتب فقال : » منه المبتدأ « ثم استقام فقال : » وإليه المآب والمنتهى « . مما يدل على أنه يريد المعنى المجازى ، لا الحقيقى للكلمة ، وهذا مالا ينبغى أن يقال فى مجال العقائد وفى البحث العلمى .. لأن الأسلوب العلمى يوجب اختيار الألفاظ الدقيقة فى دلالتها .

● أسماء الله الحسنى :

جاء فى الصحيحين : » إن لله تسعة وتسعين اسماً مائة إلا واحداً من أحصاها دخل الجنة « . وقال الله تعالى : ﴿ قُلِ ادْعُوا اللهَ ، أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيًّا ما تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴾ الإسراء : ١١٠ ــ وقال سبحانه : ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا . وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ، سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ الأعراف : ١٨٠ .

ومن ثم وجب علينا إذا ذكرنا الله أن نذكره باسم سمّى به نفسه فى كتابه ، أو على لسان نبيه ، أما أن تسميه سبحانه ــ » المهندس أو الأسطى « أو » المعلم « أو » السائق « فخروج عن الأدب مع الله .

وهكذا قل فى كل الصفات .

وقد تحدث الكاتب عن أثر الإيمان بوحدانية الله كلاماً طيباً ، وأنها تبعث فى المرء الثقة بالله فيطمئن المتوكل ــ لا المتواكل ــ فى حياته ، وفيما قاله : » ونحن فى الدنيا مثل هذا المسافر ، نحاول فى همّة ونشاط أن نحجز لأنفسنا أحسن الأمكنة فى هذه المركبة التى اسمها الدنيا ، وفى نفس الوقت نسلم الأمر فى ثقة وتوكُّل تام ، إلى السائق الذى

يقود هذه الدنيا ، ونثق فى قوانينه .. وهو الله ، القادر الذى تفوق قدرته ومهارته جميع السائقين .

ثم قال بعد ذلك : والله هو » المعلم الأول « .. ولفظ المعلم يطلق على أرسطو ، والمعلم الثانى يطلق على أبى نصر الفارابى (٨٧٠ ــ ٩٥٠) هـ .

ثم عاد فقال قول الجبرية : » فالله هو المعلم ، وما الجامعات والمدارس إلا أسباب ووسائل « .

وفى الكلمات المشتركة بين كل اللغات كالأم والأب دليل على أن الحروف توقيفية بإلهام الله وحده ﴿ خَلَقَ الإنسانَ عَلَّمه البيانَ ﴾ .

أيرضى الطبيبُ أن ننادیه بالأسطى الماهر ، أو (المعلم) باللغة المصرية الدارجة ، أم يعدُّ هذا انتهاكاً لكرامته مهما كانت النيّة من القائل مخلصة ؟

أو يرتضى السيد الكاتب أن نمتدحه بقول الأعرابى الأول :

أنت كالكلب فى حفاظك للودّ • وكالتيس فى قراع الخطوب

ولله المثل الأعلى ــ أستغفر الله لى ولأخى ولأمثاله من الناشئين فى الكتابة عن الأديان .

● تحريف معانى الأسماء الحسنى :

ثم مضى الكاتب قائلاً : (إن كلمة لا إله إلا الله بالنسبة للمؤمن ليست حروفا ، ولكن منهج حياة وشريعة قلب) ــ » ويقول الله عنها فى حديث قدسى .. لا إله إلا الله حصنى ، فمن قالها دخل حصنى .. ومن دخل حصنى أمن عذابى « ، وهو النور ، به نرى الأشياء[1] .

وهو قول طيب ، ولكن سقط الكاتب فى شرحه اسم الله .. » النور « بأنه هو الذى نرى به الأشياء ، وهى كلمة تسقط من الصوفية الساقطين فى فلسفة » الحلول « . فالنور شىء مادىٌّ . والله ليس مادة .. وحتى لو قلنا » النور عَرَضٌ « .. فالله ليس بعَرَضٍ .

فلو قال : وهو النور ، بعونه وفضله سبحانه نرى الأشياء ، أو قال : » هو واهب النور للعين والعقل والقلب « . لكان الكلام واضحاً ..

---

(١) المرجع السابق ــ ص ١١٩ .

وما أظن الكاتب يعنى نظرة الإلحاد التى تجعل الله نوراً مادياً .. وقصارى أمره أنه يردد معانى ذكرها الغزالى فى مشكاة الأنوار .

وسر الخطأ – كما بينت – عدم الارتباط بقواعد اللغة فى فهم القرآن ، وعدم تعرف وجوه القراءات الأخرى . فالله قال فى كتابه : ﴿ **اللهُ نُورُ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ** ﴾ النور : ٣٥ . وكلمة النور هنا مشبَّهٌ به ، والله هو المشبَّه ، وأبسط دارسى البلاغة يعرفون ذلك ..

ويمكن أن يقال : إن لفظ « نور » بمعنى المنور للسموات والأرض ومن فيهما ، ينير الأبصار والبصائر ، وقد قرىء فى إحدى القراءات ﴿ **والله مُنَوِّرُ السماوات والأرض** ﴾ .

فهذه القراءة تفسر المراد وتُنجينا من الخلط الذى يقع فيه الملاحدة وخصوم الإسلام الذين يضللون المسلمين ويضللونهم بانغماسهم فيهم وظهورهم بمظهر المتطرف فى الدين ، ويتخدع بفكرهم المخلصون أصحاب الطرق الصوفية .

والدليل على أن كلمة « نور » لا تعنى أن اللفظ على الحقيقة قوله فى صفة النور ﴿ **مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ** ﴾ النور : ٣٥ فأضاف النور إلى ضمير نفسه فقال ﴿ **نورِهِ** ﴾ ، وإضافة ﴿ **نور** ﴾ إلى ضميره سبحانه وتعالى دليل على أن إطلاقه عليه لم يكن على ظاهره .

***

أسماء الله

الحى القيوم *

تحت عنوان أسماء الله : تحدث عن الحى القيوم فقال : ﴿ **وَلِلهِ يَسْجُدُ مَنْ فِى السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً** ﴾ الرعد : ١٥ .. لأن الكل يجرى على سنن الله الطبيعية التى أقامها ، ويخضع لقوانينه التى رسمها ، وما أكثر هذه القوانين : مثل قانون الضغط الأزموزى ، وقانون التوتر السطحى ، وقانون تماسك العمود المائى ، وكذا التوازن الكهربى والأيونى فى المحاليل ، وقانون التفاضل الكيمائى بين هورمون وهورمون ، فيكون الواحد منهما حاكماً على الآخر ، وقانون الفعل ورد الفعل ، وقانون رفض الفراغ .. هكذا يبدأ الكاتب مقدمته ثم قال : « الله وقوانينه قائم على كل شىء من الذرة إلى الفلك ، به وبقوانينه تقوم الحياة فهو قيوم ، هو الحى الذى به الحياة[1] .

موطن الخطأ :

ما قاله الكاتب حسن : فقعلا بقوانين الله تقوم الحياة ... وخضوعها لأمر الله هو سجودها ، وهى لا تملك التمرد على القانون الذى أجراها الله فيه أجزاء وجملة .. وهذا يؤكده قوله سبحانه ﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ** ﴾ .. الروم : ٢٥ – فانتظام الحياة فى أمر الله تبعاً لما خلقه من قوانين وذلك الانتظام هو مظهر قيام الله على الوجود .

(أ) وقول الكاتب (به .. وبقوانينه) : يشعرنا أنه يقصد أن الحياة كما يقول الفلاسفة ، ليس فقط قائمة بأمره الممثلة صورته التنفيذية فى القوانين الطبيعية وغيرها ، ولكن لها اتصال بذاته .. اتصال العلة بالمعلول .. والضوء بالشمس ، أو أنه يقصد

---

* القرآن محاولة لفهم عصرى للقرآن : ص ٩٧ : ١٠٠ .

(١) المرجع السابق ص : ٩٨ .

« النظرة الزمنية لله » التي تقول : إن الحياة وليدة الكون كذلك . والله هو ذلك التركيب في صلب الكون الذي سمح بالحياة وبالرقي فيها ، أو نظرية (الله – المادة – الزمن) الرياضية التي تنتهي إلى ما انتهت إليه النظرية الطبيعية السالفة[1] .. أو أن الكاتب يعني نظرية الفيض الفلسفية ، وذلك لأن العطف يقتضي المغايرة .

فإن أراد بلفظ « به » قوانينه سبحانه ، فنحن معه ، وإلا فقد تاه في ضلال الفلسفة – وما أظنه يعني هذا ، ولكنني أريد التنبيه للسذج ، ولمن يأتون من بعدنا فيظنون أننا – إذ نكون تراثاً لنا قداستنا التي تعصمنا من أن ننطق بكلمة دون أن نعني لها مدلولها الخاص .. فلغة العلم تأبى الإطناب بغير الألفاظ المحددة المبينة للمراد بدقة .

(ب) وتفسيره (الحي) بمعنى الذي به الحياة ، يتضمن دعوى الفلسفة الإشراقية .

وإن أراد بجملته أن الحياة لا تكون إلا بأمره وقوانينه .. فقد سبق أن قلنا : هذا تفسير اسمه « القيوم » أو « القيّام » كما في قراءة أخرى فما معنى « الحي » .. إذن ؟

قال ابن كثير في تفسير آية الكرسي : (الحي) في نفسه ، الذي لا يموت أبداً ، والقيّم لغيره ، وكان عمر يقرأ القيّام .. فجميع الموجودات مفتقرة إليه .. وهو غني عنها ، ولا قوام لها بدون أمره .. وفرق كبير بين أن تقوم به ، وبين أن تقوم بقوانينه وبأمره ..

● **الهجرة :**

قال الكاتب عن الصوفية « ويقولون : إنهم في هجرة دائماً إلى الله من الأكوان إلى المكوّن .. وهي غير الهجرة المعروفة على الأرض من مكان لآخر .. وهذه عندهم أشبه بدوران حمار الرحى : يبرح المكان ليعود إليه .

أما الهجرة الحقيقية فهي الانتقال من وطن المُلْك إلى وطن الملكوت ، ومن وطن الحسّ إلى وطن المعنى[2] .

(١) نقد مستقبل الثقافة في مصر لسيد قطب ص ٢١ – ٢٤ وهو ما أشار إليه الكاتب في كتابه (الله والإنسان) ص ١٠٠ ، ١١١ .

(٢) القرآن : محاولة لفهم عصري للقرآن ص ١٠٠ – ١٠١ .

● **موطن الخطأ :**

لقد اندس في طريق الصوفية – كما اندس بين الشيعة – من أعداء الإسلام من وصلوا إلى مكانة رفيعة تؤهلهم للتوجيه الشيعي أو الصوفي .. فنفثوا سمومهم في أكمام من الزهر أو كئوس من العسل .. وهذا الذي رواه الكاتب يعطينا صورة من صور التحقير لتعاليم الإسلام ، والسخرية المغلّفة من آيات القرآن ...

إن الهجرة إلى « المكوِّن » كما تكون بالتجرد إليه سبحانه من شواغل الحياة ومطالب النفس : تكون بالانتقال من وطن إلى وطن ، ومن مصر إلى مصر ، لا طلباً للدنيا ، ولكن رغبةً في نشر دين الله ، أو حماية المرء دينه وحفظه في نفسه إذا خشي الفتنة في وطنه الذي يهاجر منه .

وهذه الهجرة المكانية تتناول الهجرة إلى المكوِّن وإلى الكون معاً ، والأولى هي ما يراد بقوله تعالى : ﴿ **فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ، وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ ..** ﴾ (الذاريات ٢٠ ، ٢١) وهي هجرة على سبيل المجاز اللغوي .

والهجرة المكانية هي الهجرة الحقيقية ، خلافاً لما قاله الصوفية ، لأنها هجرتان : هجرة إلى الله وهجرة إلى مكان معاً ، لأن الهجرة إلى المكان إذا لم يصحبها هجرة إلى الله الذي سماه الصوفية (المكوِّن) لا تسمى في عرف الشرع هجرة ، كما في الحديث الأول من صحيح البخاري .. « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء ما نوى .. فمن كانت هجرتُه إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبُها ، أو امرأة ينكحها ، فهجرته إلى ما هاجر إليه » .

وبينما يعظم الله شأن الهجرة المكانية ، وينص على أن الهجرة التي يعرفها الشرع تلتصق أساساً بالمكان رغبةً فيما عند الله فيقول : ﴿ **وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً** ﴾

فينص على أن الهجرة التي هي موضع التمجيد إنما هي : (في الأرض) ، ثم يؤكد هذا مرة أخرى فيحدد المنطلق وهو البيت لا النفس فيقول جل شأنه : ﴿ **وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا** ﴾ . (النساء : ١٠٠) .

وكما حدد الله المنطلق : أكد أن الهجرة بدنيّة ومكانية ، وأنها إلى مجتمع البشر ف

أرض البشر ، والمُلْكِ ، لا الملكوت الأعلى ، فقال ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ ﴾ الحشر : ٩ ـ فالهجرة فى الآية كما ترى ـ هى إلى الناس من الناس . وليست هجرة فكر وخيال إلى عالم المثال أو ما وراءه . وبينما تؤكد الآيات الهجرة بأنها فى عالم الحس والأوطان والأمكنة ، وتعظيم ذلك .. نجد الصوفية يسخرون من ذلك ويصفون المهاجر ـ الذى أثنى الله على من كرّمه من الأنصار ـ بأنه كحمار الرحى .

بهذه البذاءة يوصف المهاجرون فى سبيل الله بدينهم ولدينهم ، توهينا من شأنها ، والله يعلم إنَّ شأنها العظيم .. لأن هذه الهجرات هى التى تبنى شخصية المهاجر ، وتنشر مبادىء الإسلام فى كل مَهْجر .. وتذيعه نقيًّا فى الخافقين .

فأراد خصوم الإسلام أن يجردوا الإسم من أهم عوامل الذيوع والانتشار وليقوقعوه فى الصوامع ، ويشلوه عن الحركة ، ويسجنوه فى هياكل بشرية .

إن الحقد على الإسلام وأسلوبه فى الدعوة ليبدو جليا فى هذه العبارة البذيئة .. وصدق الله العظيم : ﴿ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ الْقَوْلِ ﴾ ـ محمد : ٣٠ ـ ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾ ـ الكهف : ٥ ـ ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ ، وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ ـ الأنفال ٣٠ ـ وصلى الله على نبينا محمد ﷺ ، إذ أعطانا الموازين التى نعرف بها من نسمع إليهم ، ومَنْ نصمُّ الآذان عنهم ونتجنب مجالسهم ، فقال : « ليس المؤمن بطعّانٍ ولا لعّانٍ ولا فاحشٍ ولا بذىء » . فما قالوه غير (إسلام) على الأقل ، وهو نوع من الكفر عند الظاهرية ومن يجرى على أصولهم الفقهية .

ولعل ما وقع من الكاتب هو الخطأ النافع الذى أتاح لى وله وللقراء التعرف على نمط من أنماط الكيد للإسلام ، وأفاد طلاب الحقيقة ممن لم يتمرسوا بمواجهة أساليب الهدم للإسلام التى يسلكها أعداؤه من الباطنية ، واليهودية المنبثة فى صفوف الصوفية ، والشيوعية ، والأندية الأدبية والمنتديات العلمية .

الشعور بالعمل الصالح :

نقل عن الصوفية قولهم : ـ[1] إن الحسنات ترفع إلى الله فور حدوثها ، والكلمة الطيبة تصعد إلى الله فلا يراها صاحبها .. فالصالح الحقيقى لا يشعر بأفعاله الصالحة .. وإنما هو فى رهبة من الله على الدوام .. وهذا تفسيرهم للآية القرآنية : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ ، وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ (فاطر : ١٠) .

خطأ الدعوى :

كلنا نعلم ما رواه البخارى ومسلم فى صحيحيهما عن النفر الثلاثة الذين انطبقت عليهم الصخرة فقالوا بعضهم لبعض : انظروا أعمالاً عملتموها صالحة لله ، فادعوا الله تعالى بها لعل الله يفرجها عنكم . ليدع كلٌّ منا ربه ، وليسأله بأرجى عمل عمله تقرباً إلى الله ، فدعا كل منهم مستشفعاً بأرجى أعماله الصالحة فاستجاب الله دعاءهم وخرجوا يمشون[2] .

وهذا يدلنا على أنهم كانوا يعرفون صالح أعمالهم وأرجاها عند ربهم .. وكانت استجابة الله دليلا على تمام وعيهم لأعمالهم : الصالح والأصلح منها .

وتقبل الله منهم برهان على أن شعور الإنسان بأفعاله الصالحة ليس دليلا ، على عدم قبولها ، ولا منقصا درجة التقى ـ كما زعم الصوفية .. وكيف والنبى قد صرح بأنه « من سرّته حسنته ، وساءته معصيته ، فهو المؤمن حقاً » أنكذِّب النبى ﷺ ونصدق الصوفى ؟ وهل الذى لا يشعر بأفعاله الصالحة إلا أبله معتوه ؟ وكما لا يشعر بأفعاله الحسنة فإنه لا يشعر بأفعاله القبيحة ... إذ الإحساس هو الإحساس ، مهما اختلف نوع العمل .. ولعلك تسأل حينئذ ؟ فما تفسير الآية ؟ .

قال البيضاوى فى تفسير الآية ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ (فاطر : ١٠) .

العزة هى الشرف والمنعة ، فلله العزة جميعا ، فليطلبها طالبها من عنده ـ سبحانه ـ فإن له كل العزة ، فاستغنى القرآن بالدليل عن المدلول ، يعنى الدليل على أن طلب

---

(١) نفس المرجع ص ١٠١ .

(٢) صحيح مسلم جـ ١٧ ص ٥٥ ـ ٥٨ باب قصة أصحاب الغار والتوسل بصالح الأعمال .

العزة يكون بطاعة الله واتباع تعاليمه ، بالمدلول ــ وهو أن الله الذى نطيعه هو مالك الإعزاز والإذلال ، ﴿ يُعِزُّ مَنْ يَشَاءُ وَيُذِلُّ مَنْ يَشَاءُ ﴾ . ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ ، وهذا بيان لما يطلب به العزة .. وهو التوحيد والعمل الصالح ..

وصعودهما إليه مَجازٌ عن قبوله إياهما ، أى يدل عن التعبير بجملة (يقبلها) .

ويجوز أن يكون المراد بالصعود صعود الملائكة الكاتبين (رقيب وعتيد) بالصحيفة التى كتبت فيها أعمالنا اليومية .. وما الذى يرفع العمل الصالح ؟ إنه الكلم الطيب الدال على التوحيد .

فالمعنى : العمل الصالح يرفع إلى الله بكلمة التوحيد .. وخاصة إذا فسرنا الآية على القراءة التى تَنْصِب لفظ « العمل الصالح » .

ويقال : عَمِلَ العبدُ والفاعل هو الله .

أو المعنى أن الكلمة الطيبة وهى كلمات التوحيد ، يرفعها العمل الصالح ، فإن العمل الصالح يحقق الإيمان ويقويه ، فإذا لم يكن عمل صالح لم يقبل التوحيد .

وقرىء « إليه يُصْعَدُ الكَلِمُ الطَّيِّبُ » وَيَصَّعَّدُ ، والمصعِّد هو الله ، أو المَلَكُ المتكلِّم به .

● بين المتصوف واليوجى والراهب :

قال مصطفى محمود[1] : (المتصوف واليوجى والراهب كلهم على درب واحد ، وأصحاب منطق واحد فى الحياة .. هو الزهد ، كما يطلبون القرب والوصل بالتسابيح ، فاليوجا يقولون آلاف المرات ــ رهام ــ رهيم أى الرحمن الرحيم .. فى اللغة السنسكريتية) .

ملاحظاتنا :

أما الراهب واليوجى وجمهرة من الصوفية فيتخذون الزهد والتسبيح والتقشف سبيلهم إلى الله ... ولكن صوفيا كالشاذلى كان صاحب خيل وزرع وثراء ، ذا ملبس ومطعم جيدين .. عاب عليه أحد تلامذته ثيابه الجيدة فقال : لبستها ليطمع فى فضلى

(1) نفس المرجع ص ١٠١ ــ ١٠٢ .

المحتاجون فأعطيهم .. وأما أنت فلبِسْتَ الخرق ، فصرفت ذوى الحاجات عنك ، ووضعت نفسك موضع مَنْ يدُه السفلى .

وقال : (ض) من يشرب الماء البارد .. واللقمة الطيبة كان أعمق إحساساً بفضل الله ، فكان أكثر شكراً وأخلص قلباً حين يثنى على الله .

وما ذهب إليه الشاذلى هو الحق .. وما عداه الإسلام دين الفطرة .. فليس الزهد ألا يكون لديك مال لعجزك .. وإنما الزهد ألا تستعبدك الدنيا ، فأنت غير عاجز .. تمنح العطاء وتقيم شعائر الزكاة والصدقات والبر بأنواعه ، لأنك تجد أسباب ذلك عندك ، بينما منحرف الصوفية يحطم هذه الشعائر باسم الدِّين ، والدين منه براء ، فأىُّ الفريقين خير .. الجائع عجزاً وتواكلاً .. أم الكسوب المتصدق .. لقد عرف الصحابة قيمة الكسب والإنفاق فى الإسلام ، فكان من لا يجد فائض مال يقوم بالحِمَالة (يعمل شيالاً) ليجد ما يتصدَّق . كما أن الانصراف إلى التسبيح آلاف المرات ــ بأسلوب اليوجا ــ ليس من الإسلام ، مهما صلحت النية ، فلن يصحَّ ذلك النمط . وإنما الأدعية المأثورة جمل قصار تقال فى المناسبات ، سواء كانت هذه المناسبات اجتماعية أو ظواهر كونية ، تعبيراً عن الارتباط القلبى بين العابد والمعبود .

إن هذا النمط من التسبيح على « الألفية » وسيلة أخرى لصرف المسلمين عن التدبر فيما يصلح أحوال مجتمعاتهم ، وإبعاد لهم عن القاعدة الإسلامية الكريمة « من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم » ، وإبعاد لهم عن مجال الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، إذ أنهم فى خلواتهم عن ضجيج الحياة مُعْرِضون .

إنه تجد لتعاليم النبى التى نعلم منها كيف أنه رأى رجلا انصرف إلى العبادة ، فلما سأل أصحابه : من يقوم على خدمته وطعامه ؟ فقالوا : كلنا . قال رسول الله ﷺ « كلكم أعبد منه » . ونعلم أنه نهى عن صيام الدهر كله فقال : « لا صام من صام الأبد » رواه البخارى ومسلم وأحمد[1] . وعن العزوبة .. فقال : « شراركم عزّابكم[2] » وأقر الصحابى القائل : وإن لبدنك عليك حقا ، فأعط كل ذى حق حقه .

(1) البخارى ٥٧ ــ ٥٩ ، ومسلم ١٨٦ ــ ١٨٧ وأحمد جـ ٣ ص ١٩٤ ، ١٨١٥ .

(2) عن حديث النبى لعكاف بن وداعة الهلال ــ رواه أبو يعلى فى مسنده من طريق « بقية » من تكملة فى الإبداع ص ٣٨٤ ط ٧ ورواه أحمد جـ ٥ : ١٦٣ عن أبى ذر فى قصة عكاف بن بشر التميمى .

لقد عرف الاستعمار الصليبي واليهودي مطيَّة التصوف ووجدوها ذلولاً تسرع بهم إلى شل الإسلام وتجميد دمه فى عروق المسلم ... وخلايا المجتمع ، فحرصوا على تعضيد التوسع فى الطرق الصوفية ، وبذروا الخلافات بين طرقها ، وقربوا إليهم كهنتها وسدنتها .. فأمسينا لا نرى فيهم ـ إلا نادرا ـ رجلاً رشيدا ، ورحم الله صوفيا عاليا نقيا عرَّف التصوف فقال :

ليس التصوف لبس الصوف ترقعه ... ولا بكاؤك إذ غنَّى المغنُّونا
ولا صياح ولا رقص ولا طرب ... ولا تخبطُ كأنْ قد صرت مجنونا
إن التصوف أن تصفو بلا كدر ... وتتبع الحق والقرآن والدينا

***

● بشرية الأنبياء :

قال الكاتب على لسان الصوفية[١] ، ولهذا يفسرون كلام القرآن عن النبي ﴿ مَا لِهَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ ﴾ (الفرقان : ٧) بأنه السر الإلهي ، ستر به النبوة فى ثوب بشرى عادى لرجل يأكل الطعام ويمشي فى الأسواق .. حتى لا يبتذل السرُّ بالإظهار والاشتهار .

● التعقيب :

وفيما قالوا يتضح أنهم يصورون النبوة أمرا غير بشرى فى ذاتٍ حقيقتها ليست بشرية ، وقد سُترت بأفعال البشر ، حتى لا يبتذل السر بالإظهار والاشتهار .

وتجريد النبي من بشريته له مغزى خبيث ، إذ أنه لما كان النبي فى حقيقته وجوهره ـ على زعمهم ـ ليس بشرا ، والأسوة به والتزامُ ما التزمه مما لا يمكن لغير النبي ، وبهذا ينكر عمليا إمكان تطبيق قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ (الأحزاب : ٢١) ، وهو المنزلق إلى الوثنية ، فما عُبِدَ عيسى إلا بعد استشعار أتباعه أنه فوق البشر ، وإن لم يكن هو الله ، فقالوا : إنه ابن الله . وقد سد النبي هذا الباب فقال : « لا تسيدونى فى الصلاة » وقال : « لا تطرونى[٢] كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم ، فإنما أنا عبدٌ ، فقولوا « عبده ورسوله » أخرجه أحمد عن ابن عباس عن عمر كما أخرجه الشيخان[٣] .

وأكد القرآن صراحة بشرية النبي فقال : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ ﴾ ـ آخر الكهف ﴿ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ . الشعراء : ١١٥ .

● الإدراك الصوفى :

ذكر الإمام الغزالى فى كتابه « مشكلة الأنوار » أسباب الحجب عن الله فى الفصل الثالث والأخير من الكتاب ... وخلاصته هى ما قاله الكاتب من أن حُجُب النفس والعقل والعرف هى كجلد الإنسان الخارجي وليست حقيقته . ولا بد من تجاوز هذه

---

(١) المرجع السابق ص ١٠٢ .
(٢) الإطراء المدح .
(٣) المسند لأحمد : ١٦٤ ـ وكتاب التوحيد والقول السديد ص ٦٠ .

الأسوار حتى يستشرف المتصوف على روحه فى بكارتها ، ويضع قدمه على عتبتها ليرى مالا عين رأت ، ويسمع مالا أذن سمعت .. والتصوف إدراك عن طريق المدارك العالية ... والمتصوف عارف ـ ولكن هدف معرفته هو الله فى كماله ، وليس طلب المعارف الجزئية كالطبيعة والكيمياء والجغرافيا والتاريخ .

ويسعى الصوفى إلى معرفة كلية بحاسة مختلفة عن وسيلة المنطق وأدوات العلم الوصفى المألوفة ، وأول العقبات هى النفس والمألوف ... كما فى بعض الأخبار .. قال داود : يارب أين أجدك ؟

فقال له .. اترك نفسك وتعال ... غب عنها تجدنى[1] .

توجيه :

حقاً فى بعض أحيانى أجد شعوراً بالغيب أتوقعه قبل أن يحدث .. أراه فى حلم مناما .. أو أستشعره يقظة فى صورة باهتة كثيرا أو قليلا .. وهذا يؤكد لى أن للنفس استشراقات لو وجدت صفوا زائداً لقرأت فى علم الله المكنون أشياء كثيرة ، وربما هى التى يسميها المتصوفة بالكشف ... ولكنى وأنا خبير بنفسى.. لست ممن قيل فيهم : « أنضاء عبادة وأطلاح سهر ، ومسبحى الألفية[2] ، تركتها من آن بعيد .. ولى من شواغل الزوجة والأولاد والعمل والمجتمع الذى أحبه حباً جماً ، ومن إيمانى بالعقل فى الحدود التى رسمها الله له .. ما يجعلنى فى نظر المتصوفة محجوباً .

وليس هنالك يقين بأن هذا الإشراق هو معرفة ، وإدراك ، بوسائل عليا .. فقد يكون هذا نتيجة تفاعلات نفسية فى بؤرة اللاشعور .. وهى مخبآت التجارب والأحاسيس والأخيلة والتصورات ، تلاحمت فكونت الفكرة التى استشفها .. فهى عملية نفسية يصنعها الله الرحمن الرحيم المدبر لشئون خلقه كيفما شاء ومتى شاء لمن شاء ، صوفيا أو راهبا .. أو ماديا محجوباً . إن الله أمرنا بالصدق .. ومن الصدق ألا نصدر الأحكام ونقرر النظريات فجة قبل أن تنضج وتنصهر ، وننفى عنها كل الاحتمالات الأخرى ، فنخطىء كما أخطأ الصوفية هنا .

(١) المرجع السابق ص ١٠٢ ـ ١٠٣ .

(٢) فيها ألف حبة .

وأما أن غاية التصوف هى معرفة الله فى كماله .. فمحض التأمل فى خلق الله مع القدرات المتاحة للإنسان من وسائل شخصية ذاتية ، ومن وسائل علمية تفتح الآفاق على كشف جوانب كمال الله ... وكمالات الله لا تنتهى ، والرغبة فى إدراك الكمال اللانهائى من بشر ـ إدراكه محدود مهما كان فى تساميه ـ ضرب من المحال .. وخيال عابث .

إن تفسير (التجرد) بالطريقة الصوفية التى تعنى ترك العمل للدنيا وممارسة النشاط الإنسانى فيها باسم الله ، وكما أمر ، لن يوصلنا إلى الله ، وإن زين الشيطان لبعضنا ذلك فدلى حبله إلينا بغرور ، وإنما السبيل هو التزام ما جاء به الرسول ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ آل عمران : ٣١ .

وغفران الذنب يقتضى إحراق الحجب ، ومقتضى الحب أن يعلمنا من لدنه علما .. بالقدر الذى ينفعنا .. لا بالموسوعات التى تضلنا حين تملأنا بالغرور .

ومن سنة الرسول ما قاله عن نفسه « إنى لأتقاكم لله ، وإنى لأصوم وأفطر ، وأقوم الليل وأنام وأتزوج النساء ، من رغب عن سنتى فليس منى »[1] . وقطع رسول الله الطريق على وسوسة الشيطان للمؤمنين الصادقين ، وسد باب الرهبنة (إنى لم أومر بالرهبانية)[2] ـ وفى رواية (إن الرهبانية لم تكتب علينا)[3] وعرفنا البديل لها . فعن أبى سعيد الخدرى عن رسول الله ﷺ قال : « جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : أوصنى . قال : عليك بتقوى الله فإنها جماع كل خير ، وعليك بالجهاد فإنه رهبانية المسلمين ، وعليك بذكر الله وتلاوة القرآن فإنه نور لك فى الأرض وذكر فى السماء ، واخزن لسانك إلا بخير ، فإنك بذلك تغلب الشيطان »[4] وثمة أحاديث كثيرة تشهد لهذين الحديثين الشريفين .

وأوصد عليه السلام الباب فى وجه كل « خلوتى » منطو يزعم أنه فى انطوائه قائم بالجهاد الأكبر ، جهاد النفس ، فحدد عليه السلام أفضل الجهاد حين سأله صحابى

(١) رواه فى باب النكاح كل من البخارى ومسلم حـ ٥ والنسائى حـ ٤ والدارمى حـ ٣ وأحمد حـ ٢ ص ١٥٨ ، ٣ / ٢٤١ و ٢٥٩ .

(٢) روى فى الكتب الستة كما أخرجه الدارمى فى النكاح : ٣ .

(٣) رواه أحمد فى مسنده : حـ ٣ : ٨٢ .

(٤) رواه أحمد فى مسنده : حـ ٣ : ٨٢ .

جليل : « فما أفضل الجهاد ؟ . فقال عليه الصلاة والسلام (أن يُعقر[1] جوادك ويهراق[2] دمك) رواه أبو داود الطيالسي وأحمد والدارمي وعبد بن حميد ، وابن حبان ، وأبو يعلى ، والطبراني في الأوسط والضياء المقدسي في المختارة عن جابر.

جهاد النفس ركيزة كبرى – ولا ريب – للمجاهد في جهاده .. ولكن ثمراته العلمية ، بل وظلها الوارف ، إنما هي في الميدان .. وفي التلاحم .. وصدق رسول الله . وأمّا من خالفه .. فهداه الله .

● **الدعاء والصوفية :**

امتدح الكاتب الصوفية حين قال عنهم[3] : « والمتصوف لا يسأل .. وهو يمرض .. فلا يسأل الله الشفاء .. ويقول في أدب : كيف أجعل لنفسي إرادة إلى جانب إرادة الله .. فأسأله مالم يفعل .. وأنا الذي لا أعلم ما ينفعني مما يضرني ؟ كيف يعترض الذي لا يعلم على الذي يعلم ، إنه لا يطلب من الله إلا ما يطلبه الله منه ، فيقول كما قال النبي إبراهيم : ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ﴾ .

التوجيه :

هذا الذي نقله عن الصوفية صورة تناقض مبادىء الإسلام .. مهما قيل في تبريرها من أنها مواقف خاصة . نعم إنها خاصة ولكنها شاذة .. وما الشذوذ إلا انحراف عن دين الفطرة . إن الله قالها كلمة مطلقة عامة .. ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ غافر : ٦٠ . ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ البقرة : ١٨٦ . فانظر كيف قرن الدعاء بالاستجابة .. وقرن القرب والإجابة بالدعاء والداعي ليحفزنا إلى الدعاء . ولم يستثن من هذا العموم إلا ما أخبرنا النبي أنه مستثنى حين علمنا الدعوة المطلوبة شرعا والمستجابة فقال كما في صحيح مسلم عن أبي هريرة عن رسول الله قال : لا يزال يستجاب للعبد مالم يدع بإثم أو قطيعة رحم » وفي رواية : « مالم يستعجل » قيل يارسول الله ما الاستعجال ؟ قال : يقول : قد دعوت وقد دعوت فلم

---

(١) يعقر : يصاب بسيوف العدو أو رماحه أو نباله .

(٢) يهراق : ويراق بمعنى واحد .

(٣) القرآن : محاولة لفهم عصري للقرآن ص ١٠٧ .

أر يستجيب لي ، فيستحسر عن ذلك ويدع الدعاء[1] .. فكان الصحابي المقرب يدعو الله في سجوده بكل شيء ، حتى إنه يطلب العلف لدابته ، فضلا عن أن يدعو الله أن يزيل عنه العلة تصيبه .

وقد كان النبي يدعو ويعلم أصحابه الدعاء فيقول كل منهم : « اللهم إني أسألك العفو والعافية في الدين والبدن[2] » . وفي صحيح مسلم (حـ ١٧ ص ٢٠) عن أبي مالك الأشجعي عن أبيه قال : كان الرجل إذا أسلم علمه النبي ﷺ ، الصلاة ، ثم أمره أن يدعو بهؤلاء الكلمات : اللهم اغفر لي وارحمني واهدي وعافني وارزقني » فيطلب إلى جانب المغفرة العافية والرزق أي صلاح البدن والحال الاقتصادي .

وقد كان يرقي ﷺ المرضى ويدعو بالشفاء لنفسه ولغيره فيقول الدعاء المأثور « اللهم أذهب البأس ، رب الناس اشفِ وأنت الشافي ، لا شفاء إلا شفاؤك ، شفاء لا يغادر سقماً[3] » ويمسح بيده على المريض ويطيب خاطره .

وروى مسلم في صحيحه عن أبي عبد الله عثمان بن أبي العاص أنه شكا إلى رسول الله ﷺ وجعاً يجده في جسده ، فقال له رسول الله ﷺ ضع يدك على الذي يألم من جسدك وقل : « بسم الله » ثلاثا .. وقل سبع مرات « أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر » وروى مسلم عن أبي سعيد الخدري أن جبريل أتى النبي ﷺ فقال : يامحمد اشتكيت ؟ قال : نعم قال : « بسم الله أرقيك من كل شر يؤذيك ، ومن شر كل نفس أو عين حاسد ، الله يشفيك . باسم الله أرقيك » .

بل إن المعوذتين سورتان ليستا إلا دعاء لدفع الأذى عن البدن وعن الدين – ونبي الله نوح التمس دفع الهلاك عن ولده حين قال : ﴿رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي ، وَإِنَّ

---

(١) صحيح مسلم حـ ١٧ ص ٥٢ في الأدعية – والترمذي في الدعوات : ١١٥ وأحمد حـ ٣ /١٨ ، ٣٦٠ ، ٤ /١٥٤ ، حـ ٥ /٣٤٩ .

(٢) وفي صحيح مسلم : اللهم عافني في جسدي ، وفي بدني ، وفي بصري – في سنن أبي داود عن عبد الرحمن بن أبي بكرة أنه سمع الرسول ﷺ يدعو ويقول : « اللهم عافني في بدني – اللهم عافني في سمعي – اللهم عافني في بصري ، اللهم إني أعوذ بك من الكفر والفقر ، اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر لا إله إلا أنت » وهكذا أخرجه الترمذي دعوات ٦٦ وابن ماجة دعاء ٤ وأحمد ٥ /٤٢ وابن ماجه دعاء : ٥ .

(٣) رواه البخاري، ومسلم عن عائشة .

وَعْدَكَ الْحَقُّ ﴾ هود : ٤٥ ، ونبي الله زكريا يسأل الله العافية فى شيخوخته ، وان يرزقه الولد ، قال : ﴿ ربِّ إنِّى وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّى واشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً وَلَمْ أَكُنْ بِدُعائِكَ رَبِّ شَقِياً * وَإِنِّى خِفْتُ الْمَوالِىَ مِنْ وَرائى ، وَكَانَتْ امْرأتى عاقِراً ، فهب لى مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً * يَرِثُنى وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ، واجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا * ﴾ (مريم : ٣ : ٥) .

ومن أمثلة البلاء فى البدن والمال والولد مع الصبر والدعاء أيوب عليه السلام ، وفيه قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّى مَسَّنِىَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍ ، وَآتَيْناهُ أَهْلَهُ ، وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ ، رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنا ، وَذِكْرَى لِلْعَابِدِين * ﴾ الأنبياء : ٨٤ .

وكلمة « فاستجبنا » دليل على سبق الدعاء من نبى الله أيوب . ﴿ أولئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ ، وَمِمَّنْ حملْنا مَعَ نُوحٍ ، وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إبْراهِيمَ وَإسْرائِيلَ ، وَمِمَّنْ هَدَيْنا وَاجْتَبَيْنا ﴾ . مريم : ٥٨ .

أفينبغى لأحد أن يكون أفضل من النبيين ؟

ومن الدعاء المأثور عن النبى عليه الصلاة والسلام « اللهم عافنى فى بدنى ، اللهم عافنى فى سمعى ، اللهم عافنى فى بصرى ، لا إله إلا أنت » .. تلك قالة الصوفية .... وهذا هو هَدْى الله ورسوله ، فأى الفريقين أهدى سبيلا ؟

إنَّ هواجس الجوع والعجز ، وشطحات الجهل ورد الفعل للإنهيار الخلقى والفساد الاجتماعى والانحلال فى صفوف الأمة الإسلامية .. نتج عنه الظلام والشذوذ الفكرى الذى يروى عن الصوفية ، والصادقون منهم براء منه ـ وأما ما رويناه فنور الكتاب والنبوة .. ﴿ وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُوراً فَما لَهُ مِنْ نورٍ ﴾ النور : ٤٠

وإن سبيل الهدى ـ ليس فى غير الكتاب والسنة .. ﴿ قَدْ جاءَكُمْ مِنَ اللهِ نورٌ وَكِتابٌ مُبِينٌ * يَهْدِى بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوانَهُ سُبُلَ السَّلامِ ، وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إلى النُّورِ بإذنه ويهديهم إلى صراطٍ مستقيم ﴾ المائدة : ١٥ ـ ١٦ .

(الظلمات هى الحجب بأنواعها الصارفة عن الله) . وقد قال النبى ﷺ ـ هذا صراحة فى حديثه عن القرآن « ومن التمس الهدى فى غيره أضله الله » ويروى أن قائل ذلك علىٌّ كرم الله وجهه .

إن الدعاء فى حد ذاته ـ عبادة ، مالم يكن بإثم أو قطيعة .. وإن الله يحب أن يسمع من عبده تضرُّعَهُ إليه .. فكيف لا ندعو ، وكيف نزعم أن الصمت خير من مناجاة الله ودعائه بما يُحب أن يسمعه ، روى الترمذى عن أنس قال : قال النبى ﷺ : « الدعاء مخ العبادة »[1] .. وعن أنس رضى الله قال : قال رسول الله ﷺ : « أَلِظُّوا بياذا الجلال والإكرام » ومعنى أَلِظُّوا : أكثروا الدعاء ، رواه الترمذى ورواه النسائى أيضاً من رواية (ربيعة بن عامر الصحابى) ، وقال الحاكم : حديث صحيح الإسناد .

وعن أبى الفضل العباس بن عبد المطلب رضى الله عنه قال : قلت يارسول الله علمنى شيئاً أسأله الله تعالى . قال : « سلوا الله العافية » فمكثت أياماً ، ثم جئت فقلت : يارسول الله علمنى شيئاً أسأله الله تعالى ، قال لى : يا عباس عم رسول الله « سلوا الله العافية فى الدنيا والآخرة » . رواه الترمذى وقال حديث حسن صحيح .

وعن أنس أن النبى ﷺ كان يقول : « اللهم إنى أعوذ بك من البرص ، والجنون والجذام وسيء الأسقام » رواه ابو داوود بإسناد صحيح .

وعن أبى هريرة : كان رسول الله ﷺ يقول : « اللهم إنى أعوذ بك من الجوع ، فإنه بئس الضجيع ، وأعوذ بك من الخيانة فإنها بئست البطانة » رواه أبو داود بإسناد صحيح .

وقد تضمن الدعاء طلب دفع ما يؤذى البدن وهو الجوع ، كما طلب دفع ما يثلم الدين وهو الخيانة .. ولا يقولن أحد إنه أفضل من النبى ، أو يعرف من وسائل القربى إلى الله مالا يعرف الرسول ، ولا يزعم زاعم أن ذلك أمركان قد نسخ بالأمر الذى عليه الصوفية فإن آخر ماكان عليه النبى فى حياته هو دعاء الله أن يكشف عنه الضر ويخفف عنه الألم .

روى الترمذى عن عائشة رضى الله عنها قالت : رأيت رسول الله ﷺ وهو بالموت ـ وعنده قدح فيه ماء وهو يدخل يده فى القدح ثم يمسح وجهه بالماء ثم يقول : « اللهم أعنى على غمرات الموت وسكرات الموت » . بل كان يتألم . قالت عائشة : وارأساه فقال النبى : بل أنا وارأساه . رواه البخارى .

(١) الترمذى فى « الدعوات : ٤٠ » وقال الترمذى : حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه .

هذا هو الطريق إلى الله .. ﴿ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (يوجا أو رهبانية) ﴿ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ . النساء : ١١٥ .

● **ذم الصوفية لعلم الفقهاء :**

ردد الكاتب موقف الصوفية من الفقهاء فقال : ويقول المتصوف للفقهاء أخذتم علمكم ميتا من ميت ، وأخذنا علمنا عن الحي الذي لا يموت ، تقولون حدثنا فلان عن فلان ، وكلهم موتى والواهب الحق علام الغيوب أقرب إليكم من حبل الوريد وهو معكم أينما كنتم .

علم الفقهاء نقلي من الكتب[١] ، وعلم الصوفية لدني ، فهم أهل الحضرة الإلهية ، يخفي الواحد منهم كراماته كما يخفي عورته ، لأنها السر الذي بينه وبين ربه ، وعلامة المحبة والخصوصية ، والقرب ومابين المحب والمحبوب لا يصح إفشاؤه وابتذاله[٢] .

التوجيه :

هذا الذي نسب إلى الصوفية من المندسين في صفوفهم مغالطة مكشوفة . فالفقيه لا يأخذ عن الموتى وإنما يروى الحديث عن إنسان ثقة سمعه منه بنفسه .. وهذا الثقة المروى عنه يخبر عن ثقة آخر قد مات .. وقبل موته أخبره بأن ثقة آخر أخبره بالحديث عن فلان ، وفلان الأخير كان ثقة عند الراوى عنه . ويظل النقل بالتوثيق حتى تكون نهاية السلسلة رسول الله عن جبريل عن الله عز وجل . فالرواية للحديث ليست عن الموتى .. وإنما هي عن الله . والإسناد (عن فلان عن فلان) هو وثيقة الإثبات الصادق اليقيني لنسبة الحديث إلى النبي فيما نقله عن الله سبحانه . أما الصوفى الذي يزعم أن علمه لدنى تلقته روحه الصافية عن الله مباشرة فإن دعواه أن ما تلقاه إنما هو عن الله لا دليل عليها .. إذ لا معجزة تثبت ذلك له فتصديقه واتباعه دون تصديق واتباع النبي المؤيد بالمعجزات هو الضلال المبين لكل من له مسحة من عقل ، ولعل ما يظنه علماً لدنيا هو

(١) القرآن : محاولة لفهم عصرى للقرآن ص ١٠٩ .
(٢) نفس المرجع ص ١٦٠ .

هاتف شيطانى ، وقد كان بعض الصالحين يهتف به الشيطان في صورة ملك فيقول له : اغرب عنى يا شيطان فلا وحى بعد سيد الخلق .. ولا معرفة إلا من كتاب الله وسنة نبيه[١] .

لقد أمر النبي بتبليغ ما سمعناه منه فقال : « ألا فليبلغ الشاهد منكم الغائب .. فرب مبلَّغ أوعى من سامع » وقال : « نضَّر الله امرأً سمع مقالتي فوعاها فأداها كما سمعها » ومعنى هذا أن النبي أمر بتبليغ حديثه ، ولا سبيل إلى هذا إلى الرواية المنقولة عنه إلى من بعده جيلا بعد جيل . فالطعن في الحديث المسند بالرواية طعن في أمر النبي برواية ماسمع منه .

ومن الكذب أن يقول الإنسان : سمعت رسول الله ﷺ يقول ، وهو لم يسمعه منه مباشرة كما أن الورع يقتضى أن يذكر الراوى مَنْ سمع منه ، ليكون ذلك المسموع منه هو المتحمل لمسئولية الرواية التي رواها ... فقد يوثقه الراوى لجهالته بأخلاق تجعل حديثه غير مقبول .. وقد يكون راوى الحديث سمعه من النبي في حال ، وهنالك رواية أخرى لغيره في حال أخرى . فإذا عُرف الرواة اهتُدى إلى تاريخها ، وأمكن معرفة أى الحديثين أسبق ، ليضبط تاريخ التشريع على الأقل .. إلى جانب مميزات أخرى لذكر سند الرواية .

ثم إذا كان الصوفى يخفي كرامته فإننا لا نستطيع أن نصدقه فيما يزعم أنه علمٌ لدنٌى ، لأن الكرامة ـ كالمعجزة ـ أمارة على تصديق الله له . فإذا خفيت لم يكن لنا دليل على صدقه .

وبمنطق الصوفية يقول : إنه إذا أظهر الكرامة عرفنا أنه غير جدير بالولاية فكذبناه ، لأن الصوفية يزعمون أن الولى الحقيقي يخفي كراماته كما يخفي عورته .

وفي كل حال يكون علم الصوفى غير صالح للاهتداء به . ولا دليل على ثبوت نسبته لله .. فهو علم مهجور .

ثم ما أقبح التصوير والتعليل لإخفاء الكرامة بقوله : « ما بين المحب والمحبوب لا يصح إفشاؤه » لماذا ؟ إننا في غرامياتنا لا نفشى من أسرار الحب موضوعات خاصة هي

(١) اقرأ كتاب تلبيس إبليس لابن القيم الجوزى .

التى تتعلق بالجنس والغزل .. أما الحكمة والفضائل فنذكرها .. لقد قال الله ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ آخر سورة الضحى ـ فرضع قاعدة الحياة الإسلامية وهى إظهار فضل الله وكراماته ... وليس الإخفاء لها ، فأى رجل خالف أمر الله الذى نزل به الذكر الحكيم فهو منحرفٌ ... وإن دعا إلى المخالفة فهو مبتدع . وفى حديث أبى نجيح العرباض بن سارية عن رسول الله ﷺ أنه قال : (إياكم ومحدثات الأمور ، كل بدعة ضلالة)[1] .

﴿ ذَٰلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنزَلَهُ إِلَيْكُمْ ﴾ الطلاق : ٥ ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴾ سورة طه : ١٢٤ .

● **ما قيل فى عدد أسماء الله الحسنى : ـ**

﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴾ طه : ٨ . نقل الفخر الرازى ـ وهو نقل لا نعرف له إسنادا صحيحا ـ فقال : إن لله أربعة آلاف اسم : ألف لا يعلمها إلا الله وحده ، وألف منها لا يعلمها إلا الله والملائكة ، وألف منها لا يعلمها إلا الله والملائكة والأنبياء ، وألف منها يعلمها المؤمنون . فثلاثمائة منها فى التوراة وثلاثمائة منها فى الإنجيل وثلاثمائة فى الزبور ، ومائة فى القرآن ، تسع وتسعون منها ظاهرة وواحد منها مكتوم فمن أحصاها دخل الجنة .

ولهذا يجب التوقف عند ما ورد فى القرآن والسنة من صفات الله سبحانه وتعالى وبعض هذه الصفات يأتى دالاً على الثناء فى كلمة مفردة مثل الفتاح العليم .

وبعضها تكون دلالته بالإضافة مثل ﴿ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا ﴾ الأنعام : ٩٦ .

ومنها ما ثناؤه بنفسه لكنه يزدادُ دلالة على المدح بالإضافة : مثل ﴿ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ الأنعام : ١٠١ . ومنها ما يحسن قرانه بصفة أخرى إذا كان كل من الصفتين يدل على ناحية من الكمال ، وتثير السؤال عن مقابلها ، مثل (الأول) يستحب أن يقال ﴿ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ ﴾ الحديد : ٣ . وهكذا الظاهر والباطن ، والمبدىء والمعيد .

---

(١) أخرجه أبو داود سنة ٥ والترمذى وقال : حديث حسن صحيح ورواه ابن ماجة ـ مقدمة ٦ ، ٧ ـ ومسلم فى الجمعة ٤٣ والدارمى : مقدمة ١٦ ، ٢٣ وأحمد حـ ٣ : ٣١ ، حـ ٤ : ١٢٦ ـ ١٢٧ ، وجملة « وكل ضلالة فى النار » تفرد بها النسائى وسندها صحيح كما فى صحيح الجامع الصغير وزيادة الفتح الكبير .

● **مزية الذكر بالأسماء الحسنى : ـ**

إنها تضفى على الذاكر الشعور بالعزة والثقة حين يعرف أنه منتسب إلى الله القهّار الرحيم ، وتعينه على التحقق والاتصاف بما توحى به هذه الصفات من أخلاق الكمال ـ كالبر والمرحمة ، والعطف والعدل ، والإتقان للعمل ، وما إلى ذلك .

وهذا هو المراد بإحصائها ، أما الذين يحفظونها أو يكتبونها إنما يحاولون التعرف على باب الله . والوصول إلى مدارج السالكين ، ولمّا يعرفوا أو يصلوا .

● **الذكر والصلاة :**

قال الكاتب[1] : إن الله أمر بالصلاة ثم قال : ﴿ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ العنكبوت : ٤٥ .

« مجرد أن تتذكّر أن هناك قوة إلهية ، وأن يُشخّص هذا المعنى فى ذاكرتك وفى أفعالك على الدوام .. ينجيك ويحقق لك شرط المؤمن ، ويكون أفضل من صلاة المصلى الذى ليس فى قلبه ذكر » .

وجه المغالطة :

إن الذى يتذكر القوة الإلهية فى ذاكرته وأفعاله على الدوام ، لا يمكن إلا أن يكون مصلّياً ومنتهياً عن كل تقصير ، كما فى الحديث الصحيح : « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشرب وهو مؤمن » .

فلا وجه للمفاضلة بين شيئين أحدهما غير موجود ، وهو الذاكر الذى لا يصلى ، وبديهى أن الذكر ليس مجرد مقالة اللسان ، ولا تأرجح الأبدان .

---

(١) نفس المرجع ص : ٧٦

رب واحد ودين واحد *

حسن ما قاله أن الله واحد ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ ،وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ محمد : ١٩ – وفى الإنجيل : « لا تدعوا لكم ابا على الارض ، لان اباكم واحد ، وهو الذى فى السماوات » . « اذهب يا شيطان ، إنه مكتوب : للرب إليه نسجد ، وإياه وحده تعبد » وفى التوراة : « باطل الأباطيل : الكل باطل ، وقبض الريح » كأنها تعنى قول لبيد :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل

أما قوله : ويقرر القرآن أن جميع أهل الكتاب من يهود ونصارى ومسلمين على هدى ، وأنه حتى الذين عبدوا الشمس على أنها رمز وآية من آيات الله وهم الصابئون أمثال إخناتون .. هم أيضا على هدى ولهم أجر ومغفرة » ، ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ، وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ ، وَالصَّابِئِينَ ، مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (البقرة : ٦٢)[١] فهو خطأ مردود ، وفهم يكفر قائله إذا أصر عليه ، لأنه فهم يغفل كلمة هامة جعلها الله شرطا للأجر والجنة ، وهى الإيمان بمحمد عند بعثته أو بعدها . قال تعالى : ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ﴾ أى من اليهود والنصارى والصابئة ﴿وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ الآية .

أما من لم يؤمن ، أو آمن ولكنه لم يعمل بمقتضى إيمانه كبعض الدارسين للإسلام من النصارى والمستشرقين وهواة البحث العلمى لمجرد البحث ، لا رغبة فى الانتفاع بنتائج البحث فعذاب الله فى انتظارهم .

ولو أدرك الكاتب القصد من أسلوب الشرط ﴿مَنْ آمَنَ﴾ لما قال بعد ذلك : « الآية تنسحب على من كانوا قبل مبعث النبى ، وإن كانوا ناجين فى نفس الوقت ،

---

* مصطفى محمود : القرآن . محاولة لتفسير عصرى – ص ١١١ : ١٢٣ .

(٢) نفس المرجع : ص ١١٢ .

فهذا موضوع آخر ، وقد قال سبحانه وتعالى قوله الحاسمة فى الموضوع : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ، وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ ، وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا . أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ . النساء : ١٥٠ .

أمّا ما زعمه من تطور النفس البشرية تطوراً اقتضى تعدد إرسال الأنبياء برسالات تتناسب مع كل طور ، فهو قول مشهور .. ويحتاج بحثه أو نقضه مجالا أوسع .

أما قوله : « والصوفية فى ارتضائهم تباين مشارب أصحابهم بين تارك للشهوات ، وعازف عن الزواج على قدم عيسى ، وآخذ بالحقّ والعدل والقوة على قدم موسى ، فإنهم يسيرون على أساس أن الأديان يصح لكل امرىء أن يأخذ منها ما يستطيعه وما يتفق مع مزاجه وطبعه » فقول باطل أيضا ، لأنه لا دليل على صحة ما وصلنا من هذه الأديان .

بل إن القرآن ذكر لنا أنها محرفة وموضع الشك . وما كان موضع ريبة فى نسبته إلى الله لا يصلح أن يكون مرجعا للاستهداء به إلى الله ، بل إن النبى نهى عن الأخذ من الكتب السابقة ، وحين رأى صحيفة من التوراة فى يد عمر نهاه عن أخذ الدين من غير القرآن ، ونزلت آية صارمة تؤكد للمسلمين إقرار الله لنهى نبيه عن ذلك ، قال تعالى ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ . (العنكبوت : ٥٤) .

وأقوال الصوفية ليست حجة على المسلمين . وكما قال الإمام مالك فى درسه بمسجد المدينة « كل إنسان يؤخذ من قوله ويُترك ، إلا قول صاحب هذا القبر محمد ﷺ » .

وأما قول الكاتب : (إن انقطاع الوحى إنما هو لتكامل نضج الروح وبلوغها أوج النضج عند البعثة المحمدية ، بحيث لم تعد فى حاجة إلى نبى بعد محمد ، ولا رسالة بعد الإسلام .. وأن كل من ادعى النبوة بعده ثبت بطلان دعواه ، لأنها لا تعتمد على معجزة تؤكد صدقه من أمثال (البهاء ميرزا حسين على) ، فهو قول جيد وجدّ مقبول .

لا كهنوت *

براهين الكاتب :

أقام الكاتب براهين هذه الحقيقة على عدة أصول .

أولها :

أن الله ألغى الوساطات بينه وبين خلقه ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ، أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ البقرة : ١٨٦ .

وقد شرع العبادة ميسّرة لكل امرىء فقال سبحانه : ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾ [1] وقال الرسول : « جُعِلتْ لي الأرض مسجداً وتُربتُها طهوراً » . وقال سبحانه : ﴿ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا ﴾ [2] ، فلا حاجة إلى وسيط بين الناس وبين الله ، ولا فوارق بين البشر أمام الله ، فالمساواة والعدل تامان . ففي الحديث القدسي : « الجنة لمن أطاعني ولو كان عبدا حبشيا ، والنار لمن عصاني ولو كان شريفاً قرشياً » [3] .

وثانيها :

الدين إيمان وأخلاق ، وهي مسائل تنبع من ذات المؤمن ، ولا ارتباط لها بالكاهن ، والماديُّ من الإنجليز قد يكون له خلق نتيجة للذكاء الاجتماعي ، كالتاجر الماهر : يعرف أن الصدق وحسن المعاملة سبيل لتكاثر عملائه ، ثم كثرة ربحه ، فيجعل حسن المعاملة والصدق كوسائل للإعلام عن تجارته ، أما المتدين فيرحم ويحسن المعاملة حتى لمن أساء إليه ﴿ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴾ . الإنسان : ٩ .

* المرجع السابق ١٧١ – ١٨٢

(١) قال الكاتب (أينما تولوا) والصواب ما ذكرناه عن سورة البقرة : ١١٥ .

(٢) الذي في مقال الكاتب (فإن لم تجدوا) والصواب ما ذكرناه عن سورة المائدة : ٦ والنساء : ٤٣

(٣) القرآن محاولة لفهم عصرى ص ١٧١ – ١٧٢ .

ثالثها :

إن رحمة الله في النظام الذى وضعه شملت كل شيء ، فالسارق تقطع يده ، غير أن من يسرق ويقول – صادقاً – تُبتُ ولن أسرق بعد الآن ، فإنه يعطى لولى الأمر مجالا لرفع الحد عنه ﴿ فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ . إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ [1] ﴾ المائدة : ٣٩ .

وأما الرق : فكانت رحمة الإسلام أن يتم تسريحهم بالتدرج الذى شرعه الإسلام ، فلو حرّمه الله مرة واحدة لكان في هذا خروج آلاف المتسولين إلى الطريق بلا مصدر رزق ، وبلا صناعة أو زراعة تستوعبهم ، وهى كارثة وليست حلاً .. فأوصى الإسلام بالعتق ، وكانت وصية القرآن تسريح الأسرى أو طلب الفدية فيهم . ﴿ فإما منّاً بعد وإما فداء ﴾ محمد : ٤ – بلا استرقاق .

أما الموجودون من الأرقاء فيتم تصفيتهم بالتدريج : إذا جعل القرآن فك (الرقبة) كفارة للذنوب صغيرها وكبيرها » [2])

وإذا كان ماحدث في أيام الدولة الأموية هو العكس فليس الذنب ذنب القرآن ، وإنما ذنب النظام الذى تفسخ ، وقصور الخلفاء التى تحولت إلى مسارح للمتع الحسية على الطريقة الفارسية » [3] .

رابعها :

إعلان الأخوة بين جميع الطبقات فلا امتياز لأحد حتى تكون له الوساطة عند الله ، ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ، وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ﴾ النساء : ١ . ﴿ وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾ آل عمران : ٦٤ وهذه الأصول حقيقة لا ريب فيها ، وإنما السقطات وقعت في الفروع التى ذكرها الأصل الثالث وليس في الأصل نفسه « وفيما يلى » .

خامسها

قال الكاتب : ان امرأة نوح وامرأة لوط وقعت منها الخيانة الزوجية [4] وهى

(١) المرجع السابق ص ١٨٠ – ١٨١ .

(٢) القرآن في محاولة لفهم عصرى للقرآن ص ١٧٤ ط أولى .

(٣) القرآن : محاولة لفهم عصرى للقرآن ص ١٧٢ .

(٤) نفس المرجع ص ١٨٧ .

سقطات طبيعية بالنسبة لمن لم يتمرس بأصول الفقه ومكامنه ويتقصَّ التاريخ ، ويقيم أبحاثه فيه على أصول علمية . وإنما يتلقى معلوماته من أى كتاب دون أستاذ أو دون منهج علمى على الأقل ، من هؤلاء الباحثين غير المختصين .

فمثلهم فى بحوث الدين ، سواء علوم القرآن أو التاريخ الإسلامى أو ما بينها ، كمثل من رأى الأطباء معهم المشرط والمخدر ، فأراد أن يقوم بإجراء عملية جراحية بسيطة فمزق عَصَبا من أعصاب العين أو الأذن . ونسى أنه ما كُلُّ من رأى عملية قام بها طبيب وأمكنه العثور على المشرط والمخدر يُسمى طبيبا ، كما فى المثل الشعبى « فما كل من لبس العمامة يزينها ، ولا كل من ركب الفرس خيالاً » .

***

بيان سقطات الكاتب

١ ـ متى تُسْقِطُ التوبةُ الحدَّ ؟

استشهاد الكاتب بالآية ﴿ فَمَنْ تَابَ ﴾ على أن توبة السارق أمام الحاكم تسقط عنه الحد : قول لم يقل به العلماء ولا تؤيده السنة . فقد قال الفقهاء : إذا رفع أمر المحدود إلى الحاكم وثبتت التهمة لم يجز أن يعفو الإمام فيسقط الحد ، كما حدث حينما سرقت فاطمة المخزومية ورفع أمرها للنبى فأمر بقطع يدها . ودفع المسلمون إلى النبى ﷺ أسامة بن زيد ليشفع فى أمرها ، فغضب النبى وقال : « أتشفع فى حدٍّ من حدود الله يا أسامة ؟ والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها » أما قبل أن يرفع إليه الأمر فالتوبة تسقط العقوبة كما تسقط الذنب ـ إن قبلها الله ـ بشرط ردِّ المسروق إلى صاحبه .. فخيار الحاكم إنما يكون فى الأمر الذى لم يرفع إليه أو يفصل فيه ، أما بعد ذلك فلا .

فالآية نص فى عفو الله عن عقاب الآخرة للتائب ، أما القطع فلا يسقط بها عند الأكثرين ، لأن فيه حق المسروق منه ، كما قال البيضاوى فى تفسير الآية .

٢ ـ هل الرقيق مظهر للبطالة ؟

وأما ما زعمه فى حكمة استبقاء الرق من تسريح آلاف لا حرفة لهم يرتزقون منها[١] . فهو كلام عاطفى . فالرقيق كانوا هم أصحاب الحرف الصناعية ، منهم الحائك والنجار والنساج والقين (الحداد) والزارع وغيرهم .. وإنما لهذا حِكَمٌ ذكرتها وذكرها غيرى فى غير هذا المقام ، وإن اتفقنا فى أن الرق ضرورة اجتماعية لا معدى عنها فى الإطار الذى وضعه الله ودوَّنه الفقهاء .

٣ ـ تشويه التاريخ الإسلامى :

وأما تجريح حكم بنى أمية واتهامهم بأنهم جعلوا قصور الخلفاء مسارح للمتع

---

(١) القرآن محاولة لفهم عصرى للقرآن : ص ١٧٥ .

الحسية ، على الطريقة الفارسية » فترداد لأقوال خصومهم من الشيعة وبخاصة الغلاة منهم . وهكذا الخوارج والزيدية . وترداد لأقوال خصومهم من الصليبيين الذين روجوا كتب الطعن في بني أمية ، ثأراً لأنفسهم من الخلفاء الأمويين الذين جعلوا من أوروبا منارات للمعارف الإسلامية . فقد غزوا جنوب وغرب أوروبا ، وجعلوا من البحر الأبيض بحيرة إسلامية آمنة ، على شطآنها إفريقية الإسلامية وجنوب أوروبا الإسلامي .
والروايات المنقولة عن بني أمية مصدرها (الأخباريون) أي المؤرخون الذين لا يتحرّون صدق الراوي وإمكان حدوث الرواية وشواهد إثباتها .. ولا يبحثون في سند الرواية وعما إذا كان كل الرواة في السند ثقات ؟ بل ولا يتأملون الواقع لتاريخ الحضارة الإسلامية . فإن المدينة الفارسية لم تغز العرب والمسلمين إلا في العصر العباسي بعد انقراض الحكم الأموي .

كما هي ترداد لقول خصومهم من زنادقة الفرس الذين طالما جرحهم اعتزاز بني أمية بعروبتهم الصريحة وعروبة النبي ﷺ . واعتمادهم على غير الثقات وعلى من لم تكن له سابقة خير وفضيلة من دول العجم الذين لم يعرف بعدُ صدقُ إسلامهم .
وقد كان لأبناء العجم من فارس والترك من أساليب الإعلام والتمرس بذلك ، ما مكن لهذه الشائعات أن تروج ضدَّ أناس كرام ماتوا . ولم يبق لهم من يدافع عنهم .
وفي هذا التشويه لتاريخ المسلمين فائدة عند خصوم الإسلام ، هي تشكيك المسلمين في كفاءة النظام الإسلامي وعجزه عن صيانة نفسه من « التفسخ في قصور الحكام » .

ويا ليت ينبعث في الشرق من يتبوأ مكان واحد من بني أمية كمعاوية أو عبد الملك ابن مروان ، أو عمر بن عبد العزيز ، أو سليمان بن عبد الملك ... على ما رجموا به من أكاذيب .

ومن معاول الهدم التي يسلطها خصوم الإسلام على بنائه تشويه تاريخ المسلمين .. حقاً إنهم بشر لهمْ محاسنهم وفضائل أعمالهم وأمجادهم .. وعليهم كذلك وزر أخطاء وقعوا فيها بمقتضى بشريتهم التي كثيرا ما تضعف أمام بريق المال وبهرج الحياة . وإغراء الشهوات .. ﴿ وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا ﴾ النساء : ٢٨ – (كل ابن آدم خطاء .. وخير الخطائين التوابون) . أخرجه أحمد وابن ماجه والدارمي والحاكم وصححه وإن

قال الذهبي فيه لين ، وأخرجه الترمذي[1] ، وهي شنشنة أعرفها من أخزم[2] .. كما يقول المثل .. فآدم من قبل مع سمو منزلته ، ورفيع درجته – قال الله عنه : ﴿ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴾ .. ثم قال عقب ذلك .. ﴿ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴾ طه : ١٢١ ، ١٢٢ .
ثم وضح العبرة في تاريخه . والغاية التي ينبغي أن نتجه إليها فقال ﴿ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ * وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ * ﴾ طه : ١٢٣ ، ١٢٣ .

المحاسن تذكر أولاً ، لتكون نماذج يحتذي الناس إليها ، ويبذل في إبرازها طاقات كبرى .. والأخطاء لا تذكر إلا بالقدر الذي يكشف مداخل الشيطان ، ويتيح لنا القدرة على كشف نتائج هذه الخطايا ... أما تمزيق المجد الإسلامي . وتلطيخ الحضارة الإنسانية عامة والإسلامية خاصة – بشر ما كان في ظلها من سيئات تضيع في خضم الحسنات و ﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴾ هود : ١١٤ – فجريمة كبرى يقترفها الكتّاب في حق الإنسانية أولا .. وحق الإسلام ثانيا .. وإن عكست الترتيب لم تُجاف الصواب .

٤ – نقد بنت الشاطىء :

عابت الدكتورة بنت الشاطىء الكاتب في عباراته فقالت : جعل (الكاتب) تشريع المن والفداء وصية : وهو في الآية أمر صريح . وذكر فكُ «الرقبة» معرفة بأل . وليس في القرآن كله إلا « رقبة » والتنكير فيها يفيد العموم .
وتورط فأفتى بأن (القرآن جعل فك الرقبة كفارة للذنوب صغيرها وكبيرها » . هكذا على الإطلاق . وذلك مالم يقله القرآن ، ولا قال به أي مسلم يعلم أن الكبائر لا يكفر عنها فك رقبة ، والذي في كتابَيْ الإسلام كفارة لعدد من الذنوب منصوص

(١) وقد ورد في تحفة الأحوذي بتحقيق عبد الرحمن محمد عثمان حـ ٧ ص ٢٠٢ ط الفجالة الجديدة وفي الترمذي (قيام . وقال حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث علي بن مسعدة عن قتادة) والقرآن يؤكد المعنى .
(٢) شنشنة : غريزة وطريقة . أخزم : أبو عشيره .

عليها : الحنث فى اليمين . (المائدة : ٨٩) ـ القتل الخطأ (النساء : ٩٢) ـ الظهار (المجادلة : ٣)[1] .

تعقيب :

وفيما قالته بنت الشاطىء بعض الحق : فذكر لفظ رقبة منكراً يفيد التعميم . أى رقبة مؤمنة أو غير مؤمنة . وبهذا قال بعض الفقهاء فى كفارة الظهار واليمين .

وقيل التنكير محمول على المعهود ، والمطلق محمول على المقيد وهو « رقبة مؤمنة » كما هو الشرط فى كفارة القتل . وفى قول الكاتب : « وصية » ، ودعوى بنت الشاطىء « الوجوب » مقال يحتاج التحديد .

فالوجوب هو فى المسائل الثلاث عند المقدرة ، والوصية للوجوب فى المسائل الثلاث . وفى النذر . وهى للندب كفارة للصغائر والكبائر ، وتطوعا ، فقد كانت آية البلد على (فكُّ رقبة) قبل نزول الكفارات ، بل نزلت فى مكة قبل نزول آيات الأحكام والحدود والعبادات . وقد بين النبى أن من يعتق عبداً يعتق منه بكل عضو عتق من العبد ، عضو منه من النار .

وأما العبد المكاتب : ففى قبول طلبه المكاتبة قولان : ذهب عمر بن الخطاب إلى الوجوب جريا وراء ظاهر لفظ الأمر (فكاتبوهم) .

وقيل الأمر محمول على الندب لأنه مشروط بأن يعلم السيد فى العبد خيراً . وهذا مرجعه إلى دعوى السيد وحده . كما أنه متفق على أن للسيد أن يرفض بيعه بأغلى الأثمان . فرفض المكاتبة ـ وهو بيع بالأقساط ـ يكون جائزا من باب الأولى ـ وهذا هو رأى الجمهور .

وقياس الجمهور باطل ، لأن أساسه كمال ملكية المال عند حائزه ـ بينما المال فى الشرع له وظيفة يؤديها ، وهو فى أصله ملك لله ، والعباد مستخلفون ووكلاء لله فى المال ﴿ وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه ﴾ . الحديد : ٧ . وقد أمر الله وكلاءه بقبول المكاتبة ، فلا تجوز المخالفة .

ولا يجوز صرف الأمر من الوجوب إلى الندب إلا بقرينة دالة على الصرف .

(١) القرآن والتفسير العصرى ص ١٤٤ ـ ١٤٥

٥ ـ الخيانة الزوجية :

واتهام الكاتب لامرأتى رسولين كريمين نوح ولوط بالخيانة الزوجية[1] أمر لا يليق ، إذ لا يقبل أن يقذف به بيت الإنسان العادى فما بالنا بالمرسلين .

وقد ذكر المفسرون أن خيانتهما كانت مجرد التآمر مع الأعداء وإخطارهم بالاجتماعات التى لم يرد الرسولان عليهما السلام إذاعتها وإفشاء سرها .

وقال البيضاوى : المراد بالخيانة النفاق .

* * *

(١) التيارات العصرية فى فهم القرآن ص ٤١ .

الفصل الرابع

الإنسان مخير أم مسير؟

- هل نهينا عن البحث فى القدر؟
- مذاهب الحتمية ـ مذهب فرويد ـ مذهب الماديين.
- حل المشكلة.
- منطقة العجز.
- بين علم الله وعمل العبد.
- نقد الكاتب من الناحيتين الشكلية والموضوعية.
- دائرة القلب ـ ما يؤخذ على الكاتب.
- لماذا لا تكون النية مقدرة من الله.
- ماذا نختاره.
- حرية الاعتقاد.

هل الإنسان مخير أم مسير *

هل نهينا عن البحث عن القدر ؟

ذكر الكاتب أن النبي نهى عن الخوض في هذا البحث فقال : (إذا جاء ذكر القدر فأمسكوا) ، لأنه ﷺ علم أن المعضلة من المعضلات الفلسفية العالية التي لا يتيسر الرد عليها بعلوم عصره . وأن الجدل سوف ينزلق بهم إلى متاهة يضيعون فيها .. ولذا فضل الإيمان بالقلب على الثرثرة العقلية العقيمة ..

« وهي وصية لا تنسحب تماماً على عصرنا الذي دخلت فيه الفلسفة الجامعات ، وأصبحت درسا ميسراً يتلقاه ابن العشرين كل يوم .. وبذلك أصبح السؤال مطروحا بشدة ... وفي حاجة إلى جواب » [1] .

تعقيب :

إن زيادة كلمة (جاء) في الحديث لا تجوز فكلمة (إذا جاء ذكر القدر فأمسكوا) بزيادة (جاء) لم ترد في كتاب وإنما المروى (إذا ذكر أصحابي فأمسكوا ، إذا ذكرت النجوم فأمسكوا وإذا ذكر القدر فأمسكوا) ولم يبلغ درجة الحديث الصحيح [2] ، فهو ضعيف يروى مع الحسن لوجود طرق أخرى ضعيفة يساند بعضها بعضا .

وقد وهم السيد الطبيب في دعواه النهي عن الخوض في الموضوع فحمّل الإسلام مالا يجوز أن نحمله له ، فالحديث أنكره المحققون من أهل العلم ... ولهذا تناول علماء المسلمين هذا الموضوع بالبحث والدراسة منذ فجر الإسلام وإلى الآن ، وما بعد الآن .

---

* القرآن محاولة لفهم عصري للقرآن ص ٢٦ ـ ٤٠ .

(١) المرجع السابق ص ٢٢ .

(٢) الحديث رواه الطبراني في الكبير وأبو نعيم في الحلية وابن حصري في أماليه عن ابن مسعود وحسّنه ، كما أخرجه الطبراني في الكبير أيضا عن ثوبان ، وأخرجه ابن عدي في الكامل عن عمر كما قال السيوطي في جمع الجوامع المعروف بالجامع الكبير ط رقم ٨٩٩ ـ ١٨١٠ . وقد جاء في الهامش ص ٥٥٠ ذكر الحديث في الجامع الصغير برقم ٦١٥ ورمز له بالحسن . فقال الهيثمي . في إسناده مزيد بن ربيعة ، وهو ضعيف وقال ابن رجب : روى من وجوه في أسانيدها كلها مقال ، وتحسين ابن حصري له في أماليه لعله اعتضد .

ومن اعتبر الحديث صحيحا قال : ليس المنع من الخوض فى القدر من ناحية أفعال العباد فقط ، وكونه مخيّرا أو مجبراً ، وإنما للمنهى عنه وهو القدر دائرة واسعة جداً ، حيث يؤدى الخوض فيه إلى محاولة استكناه أسرار التكوين والخلق للملكوت ، وتوزيع صفاته وتعلقات قدرته جل جلاله فى هذا التدبير المحيِّر .. ذلك لأنهم يقيسون قدرة الخالق وفعله بقدراتنا ، فيتصورون تدبيره وعلمه بموهبة ، فيضلون ، وذلك لأن عظمة الخلق مردها إلى عظمة الخالق ، وإليها ترجع ، فما لهم إلى ذلك سبيل ﴿ ما أشهدتُهم خلقَ السمٰوات والأرض ولا خلقَ أنفسِهم ﴾ الكهف : ٥١ .. هذا القدرُ بدائرته الواسعة هو المنهى عنه .

وقد ذكر الكاتب فى كتابه (لغز الموت)(١) فى هذا الموضوع نفسه أن الأديان حثت على البعد عن الخوض فى القدر ، « لأن الجواب لا يمكن أن يأتى إلا مكاشفةً وإلهاماً عن طريق القلب ، وليس العقل ، ولأن المعوَّل فيه على إيمان المؤمن ، لا فلسفة الفيلسوف ، لأن العقل فيه لا يجدى ، والفلسفة لا تنجده »(٢) .

وما قاله الكاتب عن القلب والإلهام ، ترداد لمذهب الإشراقيين من الفلاسفة ، وقد اتفق على أن مصدر الشريعة لا يصح أن يكون هذا الإلهام الصوفى . وإنما مصدرها الوحى والنصوصُ ، فانشراح الصدر لأمر من الأمور وإشراق النفس بفكرة من الفكر ، لا يعنى الوصول إلى الحقيقة ، فقد يكون هذا من تزيين الشيطان وتلبيس إبليس .

« مذاهب الحتمية »

١ ـ مذهب فرويد :

كان فرويد يرى أن سلوك الإنسان خاضع لغرائزه ، فتحت سطوة الجنس مثلا ـ يجمع النقود للمهر ، ويتحلى ، ويرتدى أحسن الثياب ليجتذب قلب المرأة أو لتجتذب المرأة قلب الرجل ، وهكذا .. ولكنه عدلَ عن رأيه ثم قال : بل إن الغرائز تخضع لإرادة المرء بوسيلة من ثلاث « التسامى ـ أو الكبت أو الإطلاق » .

(١) لغز الموت : ص ٨٥ : ٨٦ .
(٢) لغز الموت ص ٨٥ : ٨٦ .

ومن ثمّ فدعوى أن الإنسان مجبر على سلوك تحت ضغط الغرائز دعوى لم يعد يقررها بعد أن كانت مذهباً له .

٢ ـ مذهب الماديين :

يرى الاجتماعيون الذين يتجهون إلى تفسير الأحداث تفسيرا مادياً إلى القول بأن المرء يحكمه النظام الجماعى الذى يحيا فيه ، فإن ابن الطبقات الثرية له سلوك يتخصه من طبقته ، وهكذا . فالمرء مجبر على سلوك ما يمتصه من طبقته وبيئته الاجتماعية .

ورد الكاتب عليهم بأن « تولستوى » كان من النبلاء الإقطاعيين بحكم الوراثة ، ومع ذلك لم يتصرف تصرف الإقطاعيين . بل كان طليعة الفقراء والفلاحين ، فحطم الحتمية التى أسسها علم النفس الطبقى ، وبالمثل « باكونين » و « كروبتكين » طليعة الفوضوية . فقد كانا من كبار الأعيان ، وماركس ذاته كان من أبناء الطبقة البرجوازية .

أقول :

وبالإضافة إلى ما قاله الكاتب ، رأينا الفيلسوف البريطانى برتراند راسل (١٨٧٢ ـ ١٩٧٠) ، وهو من أعلى لطبقات البريطانية ، يرث مليون جنيه فيدعها ويقيم بها مؤسسات علمية واجتماعية حتى لا يبقى له منزل يسكنه إلا بإيجار ، كما تنازل عن لقبه ، وأخذ يدعو إلى حياة يسودها السلام ، ويعمل مع الدعاة إلى الارتقاء بالطبقات والمجتمعات والشعوب المتخلفة .

وفى صدر الإسلام رأينا صوراً كثيرة من هذا النوع . فعثمان بن عفان ومصعب بن عمير يتخليان عن حياة ناعمة فى ثراء عظيم ، ليعيشا بالإسلام وللإسلام جنبا إلى جنب مع من كانوا من العبيد والصعاليك .

وكثير من المهاجرين تركوا أموالهم ، وهجروا أوطانهم ، وسلكوا سبيل الإيمان دون أن تحكمهم تقاليد الجاهلية الموروثة بقيودها أو تطبع نفوسهم بطابعها .

وفى عصرنا الحديث نجد فارضاً وزوجه عائشة ، وهما أمريكيان قد أسلما فخلعا عن أنفسهما مسوح المجتمع الأمريكى ، وتخلصا من نمط الحياة الأمريكية ، رغم دخلهما المالى الكبير الذى يحصلان عليه من التمثيل والخيالة .

وقد حضرا ليعيشا فى القاهرة بالزى الإسلامى ، فعائشة متحجبة وزوجها ملتح ،

وبيتها بل وكل معيشتها تسودها البساطة المطلقة .. وغيرهما كثير ممن اسلموا من أبناء وبنات أوربا وأمريكا ، مما يدل على أن السلوك لا يجبر المرء على حياته الطبقية ، ولا بيئته الاجتماعية إذا آمن بغير ما تكون عليه البيئة إيمانا حيًّا جازما كما ينفي الحتمية الطبقية ما نشاهده من إهمال الفلاحين تنقية دودة القطن فى المزارع التعاونية ، وإهمال العامل صيانة الحافلات « الأوتوبيسات » فى القطاع العام .. رغم أنه من طبقة عمالية ، فكان يجب أن تحمله بيئته على الاندماج النفسى فى عمله ، ولا تسمح له بأدنى تفريط .

والكاتب بما نقلناه عنه إنما يهدم مذهبه الشخصى الذى جاء فى كتابه (الله والإنسان) حيث قال هناك : ـ الإنسان ابن بيئته وابن عصره . وابن مجتمعه بعد أن قال : « الإنسان عندى مجبر على ما يفعل ، لا يترك له التاريخ مهربا ، ولا مجال اختيار »(١) .

● **حل المشكلة :**

عرض الكاتب لأفعال العباد وهل هي فعل الله أم فعلهم فقال : « للإنسان إرادته الحرة فى نفسه الداخلية التى تقيدها حاجات الجسد من الطعام والشراب والكسوة ، تحملنا على العمل لتحصيلها .. وحماية الأدوات الموصلة إليها ..

وغيرنا من الناس أدوات نستعين بها على تحقيق مطالبنا وكذلك بما صنعوه من آلات ومواصلات وغيرها . فهو مقيد كذلك باحترام حريات الناس وتنظم الحياة المادية وآلاتها . كما أنه مقيد ، وكل مافى الحياة من ناس وآلات مقيدون بحركة الطبيعة من السموات والأرضين وما فيها فمصادمتها مدمرة ، ولهذا نحن مضطرون أن ندير حريتنا فى حدودها ، فلا يصح مغالبة نواميس الكون ، ولكن يجب مصالحتها والانتفاع بها على ماهى عليه من قوانين(٢) .. ومعرفة هذه القوانين أمر ممكن .. والتحرك دون مخالفتها أمر واجب مريح .. والقوانين الأخلاقية ضوابط اجتماعية كإشارات المرور ! تنظم المجتمع ، ولا تنفى حرية السائرين والركاب .

والذى يكبح جماح نفسه عن المحرمات هو الحرُّ الذى سيطر على نفسه ، فلم يُستعبَد

---

(١) الله والإنسان ص : ١١٨ .
(٢) حسن البنا : رسالة المؤتمر الخامس .

لها . وكل اختيار ورغبة ضد القانون .. ليس اختيارا ، وإنما إهدار للاختيار كالسبَّاح الذى يسبح فى اتجاه يضاد مسيرة التيار .

والخلاصة : أن فى داخل المرء نفساً لها إرادة وعليه ألا يواجه بها قوانين المجتمع والطبيعة ، وإنما يكيف نفسه معها . فإذا مشى مع هذه القوانين ، وهى دين الله ، كان مثابا بنيته واتجاهه القلبي وإصراره حتى ولو حالت الظروف دون تحقيق النية .. وإن خالفها عوقب بنيته .. فالله ترك لنا أن نختار الهدى أو الضلالة . وحسب الاختيار يكون الجزاء .. وأما تحقيق ما نختاره فيمشى فى إطار إرادة الله « ما شاء الله كان ومالم يشأ لم يكن » . وقد جرى الكاتب فى هذا مجرى أهل السنة وهو ما أستريح إليه ، وأضيف إليه بعض الأدلة الحسية التى تكشف لنا نطاق الحرية وإطار العجز والإرادة الشخصية فأقول :

● **الدليل المادى على الجبر والاختيار**

كل منا يشعر أنه يدبِّر الأمر ويأخذ لتحقيقه كل الأسباب ثم لا يتحقق له ما يريد ، حتى الملوك والجبارون يعجزون عن أن يدفعوا عن أنفسهم المرض أو الموت ، أو الضرر ، وأحيانا ينهزمون مع توافر الأسباب المادية للنصر ، بل كثيرا ما يعملون عملاً يبتغون به شيئاً فتأتى النتيجة عكسية كما فى المثل العربى .. « تأتى الرياح بما لا تشتهى السفن » ، أو كما قال أعرابى حين سأله سائل : بم عرفت ربك ؟ قال : عرفته بنقض العزائم .

فدليل المشاهدة الحسية أنه لا يوجد فى العالم من يستطيع أن يدعى أنه يتحكم فى الأحداث التى تقع فى نفسه أو فى بيته أو فى الدولة التى يحكمها أو فى العالم الذى يعيش فيه .

كما أنه مامن قوة فى العالم تستطيع أن تدخل قلب إنسان لتجبره على أن يعتقد أو يؤمن بما لا يريد ، قد يتظاهر بالحب أو التقدير لشىء أو أحد ، ولكن لا يستطيع أحد أن يدخل فى قلبه الحب أو التقدير الصادق .

بل كثيرا ما يريد الإنسان شيئا فيخطىء الطريق .. فهذا أبو لهب كان حريصا على تكذيب رسول الله .. وتنزل الآيات تنبىء بأنه من أهل النار وسيموت كافرا **﴿ سيصلى نارا ذات لهب .. ﴾** ومع هذا عجز أبو لهب عن أن يظهر فى صورة مؤمن ولو نفاقاً ، ليكون دليلا بكذب محمداً فيما يرويه عن الله من أنباء .. إنه عجز حتى عن

التفكير فى استخدام هذا السلاح .. لتبقى هذه معجزة تؤكد صدق القرآن والرسول ، ولتبقى كذلك دليلا على عجز البشر عن تحقيق ما يطلبه فى كثير من الأحيان ، وهكذا قل فى الآية الكريمة **﴿ سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها ﴾** ولم يكونوا قالوا ذلك . فيما يرى أحد علمائنا المعاصرين — ومع هذا التحدى بأنهم (سيقولون) .. فإن الله صرفهم عن أن يجعلوا القرآن فى موقف الكذاب فيسكتون ولا يقولون ما قال القرآن إنهم سيقولونه ... وذلك لتتحقق المعجزة الدالة على صدق رسوله ، وأن الناس الذين هم فى موقف التحدى عاجزون ، بل مجبرون على أن يقفوا مكتوفين عن التحدى بشىء فى ميسورهم .

***

مشكلة الحرية والكفاف

وقد تعرض الكاتب للموضوع الذى نعالجه مرة أخرى فى كتابه (لغز الموت) تحت نفس العنوان : (الإنسان مسير أم مخير؟) وكان فيما قال رداً على سائل يتبرم بعيشته التى تقهره على سلوك لا يرتضيه ما نصه :

(الحرية عملية مرتبطة باحتكاك الإنسان ببيئته وبظروفه ، فإذا لم توجد العوائق أو الصراع لم تظهر الحرية ، ولم يكن لها معنى أو وجود ، فوجود قيود الحاجة والفقر والقانون والأديان والتقاليد أمر حتمى ، كما نمارس ظاهرة الحرية وجودها من خلال كل تلك القيود ، ولهذا فمن العبث اعتبار الإنسان مسيرا بسبب هذه الضغوط) .

تعقيب :

وهذا حسن ولكنه عقَّب على هذا بقوله :

« ولا يحق للقارىء أن يصرخ لأنه لا يملك إلا الكفاف قائلا : لقد فقدت حريتى ، أين حريتى ؟ بل لقد وجدت حريتك مادمت قد وجدت الكفاف ، فما يزيد على الكفاف ليس حرية بل عبودية » .

وما قاله الكاتب يعجب الصوفية ، ولكنه أيضا يعجب الحكومات الاستبدادية جمعاء ، مهما كان لون الحكم : شيوعياً أو رأسمالياً ... إذ أنه ينهى عن الصراخ فى وجه الحكم بُغية رفع المستوى المعيشى ، فالرأسمالى المستبدُّ ينشد من يزهِّد الناس فى الدنيا ليسلم له قِطافها وحده ، وتنتفخ خزائنه على حساب الكادحين الضامرين الساكتين الهامدين ، وقد وسمهم خصومهم الشيوعيون بأنهم مُخَدَّرون . وقد سموا الدين بأنه أفيون الشعوب ، لأن بعض دعاة الأديان كانوا يدعون إلى الزهد بهذه الصورة ، ويحرمون على المرء أن ينتفض صائحًا بحقه فى الحياة الكريمة ، أو فى المساواة ، أو التقارب بين الطبقات .

وهكذا الشيوعيون يحبون أن يسكت الشعب الذى يحكمونه عن مطالبة الحكومة بأكثر مما هو فيه من أحوال المعيشة ، وذلك ليصفو الجو لهؤلاء القادة المتربعين على

دُست الحكم ، الجالسين على القمة تجرى تحت أقدامهم حركة الحياة والناس .. فى صمت .

وهكذا رأينا الاستعمار الغربى يدس بين المسلمين باسم التصوف كثيرا من الموسومين بكلمة (مستشرق) فيتظاهرون بأنهم قمة فى الزهد ، وينشرون هذه الوصايا الخبيثة التى ظاهرها الحق وباطنها الباطل ، وقد يدخل بعضهم فى الإسلام صادقا ، ولكنه يظل متأثرا بنشأته الدينية الصليبية الأولى التى تقول :

« لا يدخل فى ملكوت الله غنى » وتقول : « أعط ما لقيصر لقيصر » فتشجعه دولته الاستعمارية على الانبعاث بدينه الجديد مبشرا بمسيحية مغلّفة باسم « صوفية إسلامية » .. وهو لا يدرى أنه يخدم الفساد الذى أراد الهروب منه ، بل وهذا سر تشجيع الاستعمار والحكومات الموالية له أولئك الصوفية بمختلف طرقهم ، وهذه الجمعيات الدينية التى تسلك المسلك الصوفى الداعى إلى نبذ الحياة .. والفرار إلى « الدير النصرانى » ، أو « الخلوة الصوفية » .

ولا يقال : إنه ورد عن النبى عليه الصلاة والسلام أنه فضّل العيش الكفاف ، وما قاله الكاتب ليس جديداً . وإنما الذى ورد فيما يرويه أبو هريرة عن رسول الله ﷺ (اللهم اجعل رزق آل محمد قوتا(١)) يعنى كافيا قوتهم فلا يجوعون .

قال تعالى : ﴿ وبارك فيها وقدر فيها أقواتها ﴾ فصلت : ١٠ ـ أى أرزاقها الكافية تماماً وليست القليلة لأن الله ذكر ذلك فى مقام الامتنان على عباده ، والله يمن بالخير وافرا لا بالقليل الشحيح من العطاء .. جل جلاله .. وبخاصة وأنه يعطف ذكر الأقوات على الفعل (بارك) والبركة لغة النماء والزيادة .

ثم لأنه فرق بين الكفاف والجفاف : الكفاف أن يجد المرء حاجياته التى يطلبها فلا تُدمّر ـ بِذُلِّ الحاجة ـ شخصيتهُ نفسياً ولا بدنياً .

والجفاف هو العيشة النكد ، عيشة الفقر المدقع ، عيشة الخبز والملح ، دون غيرهما ، مما لا ييسر للمرء أن يلتقط أنفاسه بين آونة وأخرى ، فيجد لقمة شهية تدفعه لشكر المنعم ، وتيسر له أن يقدّم القِرَى لضيف عزيز أو سائل محتاج .. الفقر الذى

(١) متفق عليه .

استعاذ منه الرسول ﷺ وعلم أصحابه أن يستعيذوا منه فيقولوا ثلاثاً فى الصباح وفى المساء : « اللهم إنى أعوذ بك من الكفر والفقر . اللهم إنى أعوذ بك من عذاب القبر . لا إله إلا أنت » رواه أبو داود وغيره عن عبد الرحمن بن أبى بكرة عن أبيه قال : إنى سمعت رسول الله ﷺ يدعو بهن . فأنا أحب أن استن بسنته .

إنه بمقدار ما يكون للمسلم من ثراء وأسباب للنعمة تكون قدْرته على الإسهام فى وجوه البر والنفع الخاص والعام . الخاص به وبعشيرته الأقربين . والعام الذى يتسع لمن وراء هذه الدوائر من عالم البشر والطير والحيوان . وفى الحديث الشريف « نِعْمَ المال الصالح للرجل الصالح(١) » وعن أبى سعيد الخدرى عن رسول الله ﷺ : « وإن هذا المال خضرٌ حلوٌ . ونعم صاحبُ المسلم هو . لمن أعطى منه المسكين واليتيم وابن السبيل »(٢) .

والإسلام الذى من تعاليمه المحفوظة فى كتابه الكريم ﴿ **هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا** ﴾ هود ـ ٦١ . يدعو إلى بذل أقصى الجهد فى عمارة الحياة ، وليس لهذا من معنى أو نتيجة إلا التخلص من الفقر المدقع وحياة الجفاف التى يلهث فيها الفقير « كالسائل الذى أجابه الكاتب » .

إن كل ما يطلبه الإسلام .. إزاء المال ـ ألا يكون المسلم عبداً له ، وأن يسير فى تحصيله وفى إنفاقه وفق القوانين التى أنزلها الله بشأن المال .

أما الحديث المشهور (اللهم أحيني مسكيناً ، وأمتنى مسكيناً ، واحشرنى فى زمرة المساكين) . فقد نبه إلى عدم صحته الإمام ابن حجر فى الجزء الأول من شرحه للبخارى . بينما رواه الترمذى فى الزهد عن أنس وحسنه أيضا ولم يجعله فى درجة الصحيح وأخرجه ابن ماجة فى الزهد والحاكم وصححه من حديث أبى سعيد ، وعقب الإمام الغزالى على استعاذة النبى من الفقر مع ما روى عنه ﷺ من قوله « اللهم أحيني مسكيناً » فقال :

(١) رواه أحمد وأبو يعلى والطبرانى من حديث عمرو بن العاص بسند جيد كما قال العراقى .

(٢) صحيح مسلم جـ ٧ ص ١٤٢ ـ وفى رواية أخرى : إن هذا المال خضرة حلوة فمن أخذه بحقه ووضعه فى حقه فنعم المعونة هو . المطبعة المصرية ومكتبتها بالقاهرة .

« لا خلاف أن فقر المضطر هو الذى استعاذ منه ، بينما الفقر الذى هو الاعتراف بالمسكنة والذلة والافتقار إلى الله تعالى هو الذى سأله فى دعائه ﷺ وعلى آله وعلى كل عبد مصطفى من أهل الأرض والسماء » . ويعنى الغزالى بذلك أن المراد من المسكنة هو التخلق بالتواضع ، والتضرع لله ، والشعور بالحاجة إليه ، فهذه صفات المساكين .

● **الجبر فى الاختيار :**

وبعد نهاية الشوط لجأ الكاتب إلى الإمام الغزالى فى القضاء والقدر ، وهو أن المرء مجبر فى الاختيار فقال :

والإنسان حر . وهذا صحيح ولكن حريته مخلوقة ، أى مقدورة عليه ، وهذا أشبه بأن نقول إنه محكوم عليه بالحرية ، ومضطر للاختيار ، وهذا يضعه فى منزلة بين منزلتين ، فهو ليس حراً حرية الله المطلقة ، وهو ليس مقهوراً مسيراً مجبوراً جبر المادة العمياء .

وحينما نقول : إن النار تأكل الحطب فهذه علاقة جبرية حتمية لا يمكن أن تكون معها مسئولية ، والإنسان ليس مسيراً بهذه الدرجة فهو مخير بما يعلم مسير بما لا يعلم .

« أما كيف يخلق الله واحداً ليظلم كما يخلق آخر ليعدل ، فتفسيره أن إرادة الله مطلقة ، فهو يريد المحبوب كما يريد المكروه ، ولكن قضت عدالته بعد ذلك أن يختار من يُحبُّ لما يحب ، وأن يختار من يكره لما يكره فاختار الشرير للظلم ، والخيِّر للعدل ، ولو أنه اختار الشرير ليعدل والخير يظلم لانقلب الميزان . وهذا مستحيل فى حقه فهو الكامل فى عدالته .

● **منطقة العجز :**

حسب نية العبد ييسر الله له ما نوى من خير أو شر ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى ، وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ، فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى . ﴾[١] الليل ٥ : ١١ .

وما قاله الكاتب حق ولكن الآية ليست شاهداً له ، فالتيسير لليسرى أو للعسرى جعله الله ثمرة ما فى القلب من تقى وتصديق بالآخرة أو كفر بها ، وثمرة ما فى السلوك

(١) القرآن : محاولة لفهم عصرى للقرآن ص ٢٩ .

العملى من عطاء أو بُخل . أى أن الاعتياد على الشر والتدريب عليه سبيل إلى بناء الشرِّيرين ، إذا اصطحب ذلك التدريب فكرة وفلسفة مستقرة كوّن دافعاً كامناً وراء السلوك . واستشهد الكاتب لقوله بالآيات : ﴿ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً ﴾ الفتح : ١٨ ، ﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ ﴾ الأنفال : ٢٣ ، ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ الصف : ٥ .

ولا شاهد له بذلك . فأهل الحديبية كانت لهم النية الصادقة ، رافقها العمل ، وهو البيعة على التضحية بأنفسهم فى سبيل الله ، والكفار كانوا يقاومون دعوة الإسلام باللسان والسّنان[١] تليةً للشر الكامن فى الجنان[٢] .

وقوله ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ برهان على أن فساد القلوب نتيجة لفساد الأعمال وليس مجرد العكس الذى يقوله الكاتب .

وكما تكون الحياة فى العمل الفاسد باعثاً على تبريره ، ثم اعتقاده ، يكون الاعتقاد سبباً فى الاتجاه إلى العمل الفاسد كما فى الآية الكريمة ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضاً ﴾ البقرة : ١٠ .

ويرى الغزالى أن المرء مقود بسلسلة الأسباب إلى الجنة أو النار ، والأسباب ناشئة بإرادة الله وخلقه ، واختيار المرء وإرادته قائمة فى إطار المشيئة والاختيار الإلهى ، فهو فى اختياره الشخصى مجبر على ما يختاره .

● **بين علم الله وعمل العبد :**

جاء فى القرآن الكريم ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ (السجدة : ١٣) . وقال سبحانه : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ (الأنبياء : ١٠١) وقال ﴿ فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة ، إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ﴾ (الأعراف : ٣٠) وقال : ﴿ وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً ﴾ (الإسراء : ١٦) . وقال ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ

(١) السّنان : الرمح .
(٢) الجنان : القلب .

فى أُمَمٍ قد خلتْ مِنْ قبلِهِمْ من الجنِّ والإنسِ إنهم كانوا خاسرين ﴾ (الأحقاف : ١٨) .

النقـــد

● **من الناحية الشكلية :**

ذكر الكاتب هذه الآيات شاهدا على سبْق علم الله بأحوال الناس وسلوكهم قائلا : إنها هى التى يبنى عليها جزاؤهم الأخروى . فكتب الآيات كالآتى :

﴿ حَقَّ عليه القول ﴾ - ﴿ ومن سبقت لهم منا الحسنى ﴾ - ﴿ وحَقَّ القَوْلُ مِنِّى لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ بالجِنَّةِ والنَّاسِ أجْمَعِينَ ﴾ - ووضعت بين أقواس وأبرزت الحروف بالخط الأسود المميز لها عن كلام الكاتب .

وشتان بين قول الله : ﴿ لأملأن جهنم من الجِنَّةِ والنَّاسِ ﴾ وقول الكاتب لأملأن جهنم بالجنة والناس ، فتعبير الكاتب بأنها تملأ بكل الجنة والناس ، بينما الآية توضح - بلا لبس - أنها تملأ ببعض الجنة والناس ، فلفظ (من) للتبعيض ، فله دلالته الخاصة .

وهكذا قال فى الفرق بين الآيات الصحيحة الدالة على الجمع بلفظ الإسم الموصول (الَّذِينَ) وبين ضمير المفرد فى كلمة الكاتب (حَقَّ عليه) . فضلا عن الفارق البلاغى بين اختيار الله لفظ (الَّذِينَ سَبَقَتْ) - دون اسم الموصول (مَنْ) الذى فى عبارة الكاتب .. فهذه الأخطاء مظهر للاستهانة بمراجعة النصوص القرآنية ، وهى عيب فى كتابنا المحدثين يؤدى - دون سوء نية - فيما أظن إلى ما تريده إسرائيل من تحريف لبعض كلمات القرآن تحت ستار « الخطأ المطبعى » فالنتيجة واحدة وإن اختلفت المقاصد والنيات واختلف العمد والخطأ[1] .

● **الناحية الموضوعية :**

أما من الناحية الموضوعية فقد قال الكاتب : إن علم الله بسلوك العبد ومستقبله قبل الحكم على مصيره لا غضاضة فيه ، ولا يستلزم إكراه العبد على فعل ما علم أنه

(١) وقد صحح الكاتب الآيات المذكورة عند جمع مقالاته فى كتاب . وأبقينا نصيحتنا لتحذيره وأمثاله من شر هذه السقطات .

سيعمله ، كالرجل منا : يستطيع أن يحكم على ابنه بأنه يكون ذا مستقبل عظيم ، أو سيكون فاشلا ، وذلك من ملاحظة سلوكه وعاداته ومواهبه ، فيحسن إلى الأول ويهمل الآخر . ولله المثل الأعلى : فعلم الله ليس استنباطاً ولكنه علم من صنع الحياة ورسم كل دقيقة وعظيمة فيها قبل خلقها .

● **تعقيب :**

وكان على الكاتب أن يبين الفارق بين كنه علم الله بالمستقبل وعلم البشر بذلك ، حيث يغيب هذا الفارق عن إدراك قراء المجلة التى تنشر مقالاته .. فعلم الله انكشاف للموجودات على ماهى عليه ، وهو علم قديم لا يحتاج الحواس .. وعلم العبد حادث وطريقة الحواس .. والاستنباط مما يُتخيَّلُ أو يُحسُّ ..

● **دائرة القلب :**

ذكر الكاتب أنها مجال المحاسبة والمؤاخذة[1] ، واستشهد بقول الله : ﴿ وَلَيْسَ[2] عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾ (الأحزاب : ٥) ، ثم قال ما نصه : « إن ما يدور فى القلب هو موضوع المحاسبة بالدرجة الأولى ، وليس ما يجرى على مسرح الفعل » . ﴿ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴾ (الطارق : ٩) ، إن السريرة هى محل الابتلاء ومحل المحاسبة ، والسريرة هى السر المتجاوز للظروف والمجتمع والبيئة والتربية .. فهى المبادرة المطلقة والابتداء المطلق الذى أعتقه الله من كل القيود . إنها روحك ذاتها ، وهى الكاشفة عن حقيقتك بمثل ما تكشف بصمة إصبعك عن فرديتك . وروحك فيها من حرية الله لأنها نفحة منه . ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ[3] ﴾ ، ولأن فيك من روح الله ومن حريته فأنت محاسب على هذه الحرية .. وهذا منتهى العطاء الإلهى ، ومنتهى العدل أيضا .

ويقتضى هذه الحرية جعل الله من ضمير الإنسان ونيته وسريرته منطقة محرمة ، وقدس أقداس ، لا يدخلها قهر أو جبر .. وقطع على نفسه عهداً بأن تكون هذه المنطقة

(١) القرآن : محاولة لفهم عصرى للقرآن ص ٣١ - ٣٢ .
(٢) فى المجلة (ليس) بدون واو ، وهذا خطأ .
(٣) القرآن : محاولة لفهم عصرى ص ٧٢ .

حراما لا يدخلها جنده «فالمبادرة بالنية حرة تماماً». وقانون الخلق الأول أن تكون الروح محرابا وقدس أقداس لا يدخلها قهر، ولا يكرهها الله على شيء. لا هو ولا جنده ولا أنبياؤه ولا أولياؤه».

وفي هذا السر الأعظم يقول حديث نبوي شريف عن أبي بكر «لا يفضلكم أبو بكر بصلاة ولا بصيام ولكن بسر وقر في قلبه[1]». ويقول الله عز وجل في قرآنه ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ﴾ (البقرة: ١٠٩) فعبارة ﴿مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ﴾ تنفي التدخل الإلهي. ويقول الله تعالى مخاطباً الشيطان: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ (الحجر: ٤٢).

فالشيطان لا يستطيع أن يدخل قلبك إلا إذا فتحت له الباب اختياراً، وكنت من الغاوين، ولكنه لا يستطيع أن يقتحم عليك قلبك جبراً وقسراً.[2]

ما يؤخذ على الكاتب:

١ – قوله «الحساب على ما في القلب بالدرجة الأولى»: قول يمكن أن يؤكده بالحديث «إنما الأعمالُ بالنيّات». ولكن قوله «وليس ما يجري على مسرح الفعل» على الإطلاق، كلام غير دقيق، وإنما يقبل منه أن يقول «وليس كل ما يجري على مسرح الفعل»، فبعض هذا الذي يجري على مسرح الأحداث يكون خطأ لم يقصد إليه الفاعل كمن رمى عصفورا فأصاب إنسانا فقتله..

وحتى هذا فيه لون من المؤاخذة لما يصاحبه من عدم استكمال الانتباه والحرص على الناس ﴿وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِناً خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ، وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا﴾ (النساء: ٩٢) وكمن ينظر إلى امرأة أجنبية فيرى ما يحرم منها دون قصد فالعمل المرفوض كأعمال المرائين أو الكفار الذين يقصدون بأعمالهم الطيبة رضاء البشر، أو الجاه، أو حسن السمعة، لا رضاء الله، فيحبط الرياء أو الكفر أعمالهم، لفساد نياتهم.. وقد تكون النية طيبة والعمل مرفوضا.. كالعبادات التي لا تقوم على حبٍّ

(١) نفس المرجع ص ٣٤.
(٢) القرآن: محاولة لفهم عصري: ص ٣٤.

ما شرع الله لنا.. وإنما فيها ابتداع.. كما في الحديث: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رَدٌّ» أي باطل – أما أن يُترك الأمر على علاته فخطأ جسيم في التعبير.

٢ – التعبير بكلمة (قُدْس أقداس) تقليد للنصارى في مصطلحاتهم وقد نُهينا عن التشبه باليهود أو النصارى، ثم جعل الروح هي (قدس الأقداس) أو منطقة الضمير النيات، قول شديد الضعف وهو اتجاه لم يتفق عليه الفلاسفة.. هل النفس هي الروح؟.. وهل القلب غيرهما أم هل كلٌّ من القلب والنفس والروح شيء واحد؟. أقوال.

٣ – وقد استشهد للدلالة على مكان النية بالحديث المروى عن أبي بكر، وفات الكاتب أن المراد بكلمة «السر» فيه ليس كما يعني، فقول النبي ﷺ «لا يفضلكم أبو بكر بصلاة ولا بصيام ولكن بسرٍّ وُقر في قلبه» معناه بإخلاص استقر في قلبه.
وهذا التفسير «نظيري» الحديث الذي رواه الحسن عن الحسن بن علي رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ فيما يرويه عن جبريل عن الله عز وجل وقد سأله عن الإخلاص ما هو فقال سبحانه وتعالى في حديثه القدسي «الإخلاصُ سرٌّ من أسراري استودعْتُه قلبَ مَنْ أحببْتُه من عبادي». ويبقى أن نضيف شيئا إلى ما قاله.

● **لماذا كانت النية مناط الجزاء؟**

إن النية محلها القلب، والقلب بعيد عن تأثير القوى الخارجية ونفاقها، فهو موضع الإصرار والعمد الذي به تكون المؤاخذة – فهو كما قيل: لا يمثل العدل المطلق مثل ارتباط الحساب بالنية، ولهذا قيل: إنما الأعمال بالنيات.

ويراد بالنية صدق التوجه إلى الله بالعمل وإخلاصه له سبحانه.. وإذا حدث هذا كان العمل بالغا أقصى الجهد البشري من الكمال، لأنه يقصد به استرضاء الله، كما أنه بالنية يعتصم المرء من الكفر والشيطان إذ أنه سرعان ما يفيء إلى الله إذا خرج من تحت قهر الباطل وتأثير الشيطان.

إن اعتياد ربط الأعمال بالنيات يعني رجعة المرء إلى ربه عند كل نية، يذكره فيتباعد عن الغرور، وعن النجس من الشهوات والسيئات، وعن التقصير في العمل

(١) يقال: إنه ضعيف.

الذى يعمله .. فهذا الاعتياد لربط الأعمال بالنيات أجراس تدق « حيَّ على خير العمل » .. أحذر الهاوية التى يحرك الشيطان إليها .

● **لماذا لا تكون النية مقدرة من الله ؟**

عرض الكاتب هذا السؤال وأجاب عنه بما ذكرناه قبل هذا السؤال مباشرة ، ويقول الله ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى ﴾ (محمد : ١٧) وقوله : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ (الأعراف : ١٤٦) ، فبسبب اهتداء القلب أو تمرده كانت الهداية أو الإغواء[1] .

التعقيب :

والظاهر أن الإجابة غير وافية .. إذْ الآيتان تظهران لنا أن الاهتداء ، وهو سلوك عملٌ مستقيم ، والتكبر فى الأرض بغير الحق ، وهو بطر النعمة ، وهو كذلك سلوك غير سوى ، كلاهما يُسْلمان إلى نتائجها ، فسلوك المهتدى يؤدى إلى ازدياد الهدى ، وسلوك المستكبر نتيجته الانصراف عن الهدى .

ولكن يفهم من كلام الكاتب أن النية عمل قلبى ، والله قد ذكر أنه ترك للقلب كامل حريته ، ومن ثم كانت مؤاخذته العبد ، ولكن يشكل على الكاتب قول الله ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ (الأنفال : ٢٤) .

وقد أجاب عن هذا بقوله « معنى هذا أن الله يَدَعُ القلب حرًّا ، فتكون لكل إنسان سريرة هو حرٌّ فيها ، ولكنه يقيم سلطانه بين المرء وقلبه ، فهو يحول بين المراء وقلبه بالتمكين والإحباط لطفا ورحمة ليقى أحباءه السيئات .. وليقدم التيسيرات لكل حسب ضميره ونيته ومبادراته : إمَّا لليسرى وإما للعسرى .

وقول الكاتب متناقض ، إذ أن قوله : « معنى هذا أن الله يدع القلب حراً » ، يناقض قوله : « فهو يحول بين المرء وقلبه » :

(أ) بالتمكين .

(ب) والإحباط ـ ليقدم التيسيرات لكل حسب ضميره : إما لليسرى وإما للعسرى .

والقول الأخير مقبول إذا قصد ماجرى عليه السيوطى فى تفسيره ، فأراد بالتمكين

(١) نفس المرجع ص ٣٣ .

والإحباط الحيلولة بين المرء وتحقيق ما يقصده وينويه ، وهو ظاهر العبارة .. فما قاله حقيقة تؤكدها نصوص أخرى ، ولكنها ليست مما تحتمله ألفاظ الآية المذكورة . فالاستشهاد بها تفسير للآية بغير معناها .. وبغير ما تحتمله .. وتَقَوُّلٌ على الله بما لم يُرِده من الآية .

قال القرطبى فى تفسيره ما نصه : « فبان بهذا النص أنه تعالى خالق لجميع اكتساب العباد ، خيرها وشرها ، وهذا معنى قوله عليه السلام : (لا ومقلِّب القلوب) وكان فعل الله تعالى ذلك عدلاً فيمن أضله وخذله ، إذْ لم يمنعهم حقاً وَجب عليه فتزول صفة العدل ، وإنما منعهم ما كان له أن يتفضل به عليهم ، لا ما وجب لهم .

وهكذا قال السدى : فالقلب بيد الله متى شاء حال بين العبد وبينه بمرض أو آفة كيلا يعقل .

وقال مجاهد : المعنى يحول بين المرء وقلبه حتى لا يدرى ما يصنع ، وفى التنزيل ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ ﴾ (ق : ٣٧) ، (أى عقل) ثم ذكر الرأى الذى جرى عليه الكاتب بصيغة التمريض فقال :

وقيل يحول بينه وبينه بالموت فلا يمكنه استدراك ما فات والآية أولها : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ .. وهو الجهاد .. ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ ﴾ الأنفال : ٢٤) . وقد روى أن المسلمين يوم بدر خافوا كثرة العدو فأعلمهم الله أنه يحول بين المرء وقلبه : بأن يبدلهم بعد الخوف أمنا ، ويبدل عدوهم من الأمن خوفا ، مما يدل على أن موضوع الحيلولة فى دائرة الفكر وداخل القلب ـ داخل الإنسان وليس خارجه ـ وقيل : المعنى يقلِّب الأمور من حال إلى حال ، وهذا جامع .

واختيار الطبرى : أن يكون ذلك إخبارا من الله عز وجل بأنه أملك لقلوب العباد منهم ، وأنه يحول بينهم وبينها إذا شاء حتى لا يدرك الإنسان شيئا إلا بمشيئة الله[1] .

ماذا نختاره ؟

إن ما اختاره الطبرى من تفسير الآية لا ينافى القول بأن للعبد إرادة وكسباً ، وأن الله

(١) تفسير القرطبى ص : ٢٨٢٦ ط : الشعب .

إذا شاء إحباط إرادة العبد أحبطها ثم جزاه على نيته إن خيراً فخير وإن شراً فشر ، وهذا يتمشى مع عموم قوله تعالى : ﴿ والله مِنْ وَرَائِهِمْ مُحيط ﴾ (البروج : ٢٠) لولا أن لفظ أحاط الذى اشتق منه الوصف « محيط » غالبا يأتى فى الإهلاك كقوله تعالى : ﴿ أحاطَتْ بِهِمْ خطيئاتُهم ﴾ بينما الفعل الثلاثى « حاطَ » فى غير الشر ، فالعبد يتحرك تحت سمع الله وبصره وفى فلك مشيئته التى يمكن أن يقال إنها : « كالطولِ المرخى وثنياه فى اليد[1] » .

ومثل هذا ما ذكره القرآن الكريم فى المنافقين ﴿ وَلَوْ أَرَادُوا الخُرُوجَ لأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ الله انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ ، وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ القَاعِدِينَ « لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَا زَادُوكُمْ إلاَّ خَبَالاً وَلأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَالله عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ (التوبة : ٤٦ ــ ٤٧) .

إنهم لم يخرجوا واعتزموا التقاعد ، وشاء الله هذا لأن فى قعودهم صالحُ المسلمين ، وفى عكس هذا المثال ما جاء فى المؤمنين ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ آخر العنكبوت . ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ الله رَمَى ﴾ (الأنفال : ١٧) .. إذْ أرادوا الجهاد ورموا فيه بسهم فهداهم ووفقهم إذ علم فى هذا مصلحة المسلمين ، وكل من الطائفتين مجزيٌّ بنيته وعمله ، ولم يستطع واحد أن يفعل غير ما شاء الله ، كما قال الله سبحانه وتعالى ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ الله ﴾ (الإنسان : ٣٠) ، أى ما تريدون إنفاذ شىء ويمكنكم أن تحققوا مشيئتكم إلا إذا كان الله قد شاء أن يتحقق .

فليس مدلول فعلَى المشيئة واحداً ، ولكنه من باب المشاكلة .. فيشاء الله بمعنى « يريد » . و « تشاءون » بمعنى تحققون ما تبغون ، وتنفذون ما تحبون ، وهذه المشاكلة فنٌّ بلاغى مثاله كما فى كتب البلاغة .

قالوا اقترح شيئا نُجد لك طبخه قلت اطبخوا لى جُبة وقميصا

فمعنى اطبخوا لى : خيطوا لى ، ولكنه استعار كلمة (اطبخوا) ليشاكل معها لفظ « طَبْخَه » مع الفارق البيِّن بين روعة المشاكل فى الآية وبين القلق والاضطراب فى البيت .

---

(١) الطول : بكسر الطاء هو الحبل يربط به قدم الماشية ويثبت طرفه الآخر فى وتد أو فى يد الراعى ، بحيث يسمح للماشية أن تتحرك للمرعى فى دائرة محددة بطول الحبل .

حرية الاعتقاد :

ومن بديع ما قاله الكاتب فى حرية الاعتقاد قوله : إن إبليس اختار لنفسه الكبرياء فاختاره الله ليصنع السيئات التى تبعده من رحمته وفاقا لمعصيته وقوله فى قوله سبحانه : ﴿ إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴾ (الشعراء : ٤) . فهو لم يشأ أن يقهرنا على إيمان ، لنظل أحرارا فى اختيار عقيدتنا ﴿ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ ، وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ (الكهف : ٢٩) .

وقد ذكر الله العلاقة بين إرادة العبد وسلوكه وبين إرادة الله ورحمته أو عذابه فقال : ﴿ إِنَّ الله لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ (الرعد : ١١) .

***

الفصل الخامس

لغـــز آدم وحــــواء

- نظرية دارون ــ كيف يتم التكيف مع البيئة ؟
- القرآن ونشأة العالم : أيفرق بين كلام الله والقرآن ؟
- فى الآيات الكونية : فى السماء ــ فى الأرض .
- نظرية التطور وأطوار آدم .
- كروية الأرض والتعقيب .
- آدم بين المثال والواقع ــ الأكل من الشجرة أهو رمزى ؟
- جنة آدم المعنوية .
- تفسير الهبوط من الجنة ــ الرجوع إلى الحق .
- السماوات السبع .
- حقيقة الوحى .
- ما الفرق بين الكاتب والباطنية ؟
- الختان وخطيئة آدم .

أهي قصة الخلق ام لغز آدم وحواء؟ *

● نظرية دارون :

رحل دارون على الباخرة « بيجل » ليجمع عينات من البر والبحر فى أنحاء شتى من العالم ، وعقارنتها ببعضها وجد أن جميع الأنواع تربط بينها روابط متشابهة ، فالجهاز العصبي الذى يتكون من مخ وحبل شوكى وأعصاب حس فى الإنسان هو الموجود فى كل الحيوانات والطيور والحشرات ، وهكذا الجهاز العضلى بعضلاته وعظامه ، والجهاز التناسلى بالخصية والمبيض وقنواتها والرحم فى كل حيوان ، وفقرات الرقبة السبع فى الإنسان كغيره من الحيوان ، حتى الزرافة مع طول عنقها ، ولكن تشكل هذه الأجهزة والأعضاء مع المنطقة التى تعيش فيها تشكيلات تحميها فى البر أو البحر ، فى المناطق الباردة أو الاستوائية .

ولاحظ أن الجنين يمر فى الرحم بمراحل ثلاث :

(أ) يكون أولا على هيئة سمكة ذات خياشيم .

(ب) ثم ينمو له ذيل يضمر بعد ذلك هو ما نسميه « عجب الذنب » .

(جـ) ثم يتغطى الجسم بالشعر الذى يأخذ فى الانحسار عن جسم الجنين شيئا فشيئا فلا يبقى منه إلا ما يغطى الرأس .

● كيف يتم التكيف مع البيئة :

قال دارون : يترقى الإنسان أو الحيوان بحوافز ذاتية تنبع من داخله وصراع يكون معه البقاء للأصلح .

وقد انتقد الكاتب « دارون » فى فكرة الحافز الذاتى الداخلى ـ أو التطور الطبيعى ـ دون يد تشكل التطوير من الخارج قائلا : إذا كان الحافز من الداخل طمعا فى

---

* القرآن : محاولة لفهم عصرى للقرآن ص ٤١ ـ ٤٦ بعنوان قصة الخلق .

التوصل إلى الأقوى على الحياة . فلماذا يخرج من عائلة الحمار شيء كالحصان مع أن الحمار أكثر جلداً واحتمالاً؟ وبأى حوافز يتطور من عائلة الوعل شيء كالغزال وهو أرهف وأضعف وأقل جلدا من الوعل . وبالمثل الفراش الملون الرقيق أبطأ وأضعف قدرة من الزنبور الطنان الغليظ الشكل ... فنشوء هذه الأنواع لا يمكن أن يفسره قانون بقاء الأصلح ، وإنما قانون آخر هو بقاء الأجمل .. وأجمل فى عين من ؟ .

قال الماديون : أجمل فى عين الأنثى حين تختار الذكر ، وبالنسبة للأنثى فمقياس الجمال عين الذكر . وأجاب الدكتور بأنه لماذا يختار الذكر الأنثى الأجمل ؟

إن القضية مازالت تطرح نفسها ، إن الجناح المنقوش ليس أصلح للطيران من الجناح السادة ، لا توجد مصلحة مادية هنا . وإنما هنا قيمة جمالية تفرض نفسها على جميع الحوافز .. هنا (خلْقُ بديع السموات والأرض) الذى يجمِّل مخلوقاته ، تلمس آثاره فى ورق الشجر وألوان الزهر وأجنحة الفراش وريش الطواويس ..

كما نقف مذهولين أمام بعض الأشجار الصحراوية ، إذ نجد أن الطبيعة خصتها ببذور مجنحة لتطير حلقة تقطعُ أميال الصحارى الجُردُ لتجد فرصتها القليلة فى الماء ، ونتأمل بيض البعوض فنكتشف أنه يملك أكياساً هوائية للطفو ليعوم فى الماء ولا يغرق .

كل هذا لا يفسره إلا (عقل كلى يفكر ويهندس مخلوقاته) ، فلا أشجار الصحارى تعقل لتزود بذورها بأجنحة ، ولا البعوض يعرف قوانين أرشميدس فى الطفو ليزود بيضه بوسيلة للعوم(1) .

تعقيب :

والإجابة لاشك جيدة لولا فساد العبارة فى جنب الله ، فإن تعبيره لفظ (عقل) ووصف الله بأنه (الفنّان) وأنه (يفكر ويهندس) وغير ذلك من الصفات التى هى للبشر ، من شأنه أن يُرسب فى أذهان القراء والبسطاء صورة مجسمة لله ، أو على الأقل يضع أمام العوام تصورات لله يشركه فيها البشر ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً . وقد حرم الله استعمال هذا الأسلوب فقال ﴿ **ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون فى أسمائه ، سيجزون ما كانوا يعملون(2)** ﴾ .

(1) القرآن محاولة لفهم عصرى للقرآن ص ٤٢ – ٤٧ .
(2) الاعراف ١٨٠ .

وهذه الأسماء الحسنى معروفة ورد النص بها فى القرآن والسنة ، وفى الحديث (إن لله تسعة وتسعين اسما من أحصاها دخل الجنة) . رواه البخارى ومسلم – حـ ١٧ / ٥ – وأحمد وابن حبان . وقد حكى الإمام الأفغانى فى « خاطرات المخزومى » عن دارون أنه قال : إننى أرى أن الأحياء التى عاشت على هذه الأرض جميعها من صورة واحدة أولية ، نفخ الخالق فيها نسمة الحياة .

وفى كتاب « الدين والعلم »(2) نقل عن أحد العلماء الأمريكان فى كتاب ألفه باسم « سر التطور البشرى » لإثبات نظرية التطور ، ومع هذا فقد جاء فيه : « حين يقرر المرء أن تطور الإنسان من غير استمداد من قوة معنوية ، وتقدمه فى الطريق المرسوم للرقى من الحيوانية إلى الانسانية ، شيء مستحيل ، فمثل هذه الاستحالة كما يستحيل أن يقال أنه فى مطبعة ما ، قد جمع كتاب عن تمثيليات شكسبير بالقاء صناديق حروف الطبع على الأرض فإذا بها تتكون منها كلمات وسطور وصفحات التمثيلية .. اتفاقا ومصادفة من غير أن يكون وراءها قوة أحدثت ذلك الترتيب .

وليس من شك فى أن التطور أوجد الإنسان لا من المصادفات البحتة بل هو تطور كانت فيه من أوله إلى آخره يد الله القادر المتعال .

وقد نشرت الأهرام فى ١٩٧٢/١١/٨ تحت عنوان « كشفٌ عمره (٢٠٥ مليون سنة) يهز نظرية دارون عن التطور » ما نصه : تم اكتشاف بقايا عظام جمجمة إنسان مع عظام بشرية . وهذا يدل على أن المخلوق الإنسانى المنتصب ذا الساقين لم يتطور عن المخلوق البدائى الذى يشبه القرد .

وفى الأخبار (مارس ١٩٧٣) نقل عن مجلة الايكونومست البريطانية فى ١٠ مارس ١٩٧٣ : إن المجلس التعليمى فى ولاية كاليفورنيا قرر أن تشير جميع الكتب المدرسية الخاصة بالعلوم إلى أن نظرية الارتقاء الداروينية نظرية افتراضية وليست حقيقة علمية . وأن ما قيل عن اصول الحياة لا يعدو على أحسن تقدير أن يكون مجرد افتراض ذكى .

ثم قالت المجلة : وهذا انتصار للعلماء الذين قاوموا النظرية سنة ٦٣ .

(2) عزت باشا : الدين والعلم ص ٢٠٨ .

القرآن ونشأة العالم

● تعرض الكاتب لعدة نقاط : موجزها تأكيده أن فى القرآن مالا يفهم ، وأنه يشير إلى النظريات العلمية السائدة فى تفسير الآيات الكونية كالمادة الأولى للكون ، وتفسير ظاهرة الليل والنهار ، ونظرية دورة الشمس والقمر ، والحركة الداخلية للجماد كالجبال ، وأن آدم هو طور لخلائق قبله ، وأن شجرة الخطيئة التى أكلها آدم هى الجنس ، وأنه يقر تفسير الملاحدة لظاهرة الوحي .. وسنتناول فيما يلي هذه السقطات .

١ ـ أيفرق بين كلام الله والقرآن ؟

قال الكاتب : « القرآن حينما نزل يشير إلى مسألة علمية لا يعرضها كما يعرضها إنشتين بالمعادلات ، وإنما يقدمها بالإشارة والرمز والمجاز والاستعارة واللمحة الخاطفة والعبارة التى تومض فى العقل كبرق خاطف ، إنه يلقي بكلمة قد يفوت فهمها وتفسيرها على معاصريها ، ولكنه يعلم أن التاريخ والمستقبل سوف يشرح هذه الكلمة ويثبتها تفصيلا . ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ (فصلت : ٥٣) ، والله يقول عن كلامه ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ﴾ (آل عمران : ٧) . ويقول عن القرآن ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ (القيامة : ١٩) . أى أنه سوف يشرحه ويبينه فى مستقبل الأعصر والدهور »[1] .

---

(١) نفس المرجع ص ٤٨ ـ ٤٩ .

« نقد الكاتب »

(أ) هل فى القرآن مالا يفهم ؟

فدعوى الكاتب أن القرآن يأتي بكلمة (قد يفوت فهمها وتفسيرها على معاصريها) : قول غير سليم ، وكيف هذا والله يقول فى وضوح : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ (القمر : ١٧) ويقول آمرا أن نتدبر القرآن وموبخا من لم يتدبره ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ (القتال : ٢٤) والله لا يكلفنا المستحيل حتى يأمرنا بفهم مالا يمكن فهمه ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ (البقرة : آخر آية) . ﴿ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ ﴾ (المائدة : ٦) . ﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ (آخر الحج) .

والقرآن كما قال الرسول : « مأدبة الله فاقبلوا مأدبته ما استطعتم » رواه الحاكم عن ابن مسعود ، وليس إتيانها بمجرد التلاوة وإنما المراد ما ينجم عنها من فهم وسلوك .. ومحال أن تدعى إلى مالا فائدة منه .. ولهذا كان القرآن جميعه واضحا سهل المنال من طالبيه . وقد جاء بلسان عربي مبين ، وعلى نهج يفهم منه الجميع ما يفيدهم .

وقد تفهم آية فى عصر فهما مفيدا ، ثم يأتي فى عصر آخر من يفهمها فهما نافعا كذلك ، واللفظ يوحي بما ينفع الناس فى كل زمان ومكان . وكلُّ إنسان على حق فيما فهمه ، لأن اللفظ مادام يحمل المعنى ويمشى فى إطار الشريعة المشرقة فإن المعنى المستنبط منه يكون سليما وصحيحا مادامت القرائن تدل عليه . وهذه ميزة للقرآن الكريم عما عداه .. أن تتفجر الحكمة منه دائما .. مهما تنوعت عقليات الحكماء من رواده .

(ب) لقد أوهمت عبارة الكاتب أن ثمة فارقاً بين القرآن وبين كلام الله ، فكلام الله لا يعلم تأويله ، والقرآن تكفل الله ببيانه فقال :

والله يقول عن كلامه ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ﴾ (آل عمران : ٧) ويقول عن القرآن ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ (القيامة : ١٩) .

فإن كان كذلك فقد أخطأ ؛ لأن قوله .. ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللهُ ﴾ جاءت فى سياق الحديث عن القرآن الكريم ؛ وهى الآية السابعة من سورة آل عمران ، ونصها : ﴿ هُوَ الذى أنزل عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ ، وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ، فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ، وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللهُ ﴾ ، فالذى لا يعلم تأويله إلا الله هو المتشابه من القرآن ، وقد بين الله ما علينا نحوه فقال : ﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ : آمَنَّا بِهِ ، كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا ، وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُوا الأَلْبَابِ ﴾ (آل عمران : ٧) .

٢ ـ فى الآيات الكونية :

فى السماء :

(أ) قال الكاتب[١] : فى البدء كان شىء كالدخان جاء منه الكون بنجومه وشموسه . وذلك قوله تعالى ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ ﴾ (فصلت : ١١) . يشير الكاتب إلى نظرية السديم التى تذهب إلى أن السماوات والأرض كانتا شيئا واحدا ، وقد أثبت العلم بطلانها ؛ فلكلٍّ خلقه المستقل .

(ب) وفى تفسير ظاهرة الليل والنهار قال الله تعالى : ﴿ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ ﴾ (الزمر : ٥) وهى تشير إلى أن الأرض والنهار كنصفى الكرة يترلق الواحد على الآخر بفعل دوران هذه الكرة المستمر[٢] .

(حـ) وفى هيئة القمر[٣] قال تعالى : ﴿ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴾ يس : والعرجون هو فرع النخل القديم اليابس لا خضرة فيه ولا ماء ، ولا حياة ، وهو تشبيه حرفى للقمر الذى لا خضرة فيه ولا ماء ولا حياة .. وذكر القرآن دورة الشمس والقمر فى فلكيهما فقال ﴿ لاَ الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ ، وَلاَ اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ، وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ (يس : ٤٠) .

---

(١) نفس المرجع ص ٤٩ .
(٢) المرجع السابق ص ٥٠ .
(٣) المرجع السابق ص ٥٠ .

مسارات الكواكب :

ذكرها القرآن الكريم فقال : ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴾ (الذاريات : ٧) والحبك هى المسارات[١] .

فى الأرض :

(أ) الحركة الداخلية للجماد :

قال تعالى : ﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ﴾ (النمل : ٨٨) وتشبيه الجبل بسحابة هو تشبيه يقترح على الذهن تكويناً ذرياً فضفاضا مخلخلاً ، وهو ما عليه الجبل بالفعل ، فما الأشكال الجامدة إلا وهم ، وكل شىء يتألف من ذرات[٢] .

(ب) المياه الجوفية :

قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ ﴾ - وهو بذلك يشرح دورة المياه الجوفية من السماء إلى سطح الأرض إلى جوفها ، إلى خزانات جوفية ثم إلى نافورات وينابيع تعود إلى سطح الأرض من جديد[٣] .

(حـ) خلق الإنسان والدواب :

قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾ (الأنبياء : ٣٠) وقال : ﴿ وَاللهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ ﴾ (النور : ٤٥) وقال ﴿ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ﴾ ؟ (الكهف : ٣٧) ثم قال : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ : إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴾ (الحجر : ٢٨) فالآيات تبين أن الله خلق الحياة من ماء وتراب ، وخلق الإنسان من صلصال من حمأ مسنون ، وهو الطين المنتن المختمر المختلط بالتراب ، وهو ما اكتشفه العلم بعد ألف وأربعمائة سنة[٤] .

---

(١) المرجع السابق ص ٥٠ .
(٢) نفس المرجع والصفحة .
(٣) المرجع السابق ص ٥١ .
(٤) نفس المرجع ص ٥١ ـ ٥٢ .

● **نظرية التطور وأطوار آدم :**

قال الكاتب : وكان خلق آدم فى أطوار ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً﴾ (نوح : ١٤) .

ومعنى هذا أنه كانت هناك قبل آدم صور وصنوف من الخلائق جاء هو ذروة لها ..

واستدل على هذه الأطوار بالآية التى ذكرها بقوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ ﴾ فكلمة (ثُمَّ) للترتيب الزمنى .. والزمن بالمعنى الإلهى زمن طويل جداً .. ﴿ وإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴾ .. وفى مكان آخر قال : ﴿ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ (المعارج : ٤) .

(هـ) كروية الأرض :

واستشف الكاتب من قوله تعالى : ﴿ أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ ﴾ (يونس : ٢٤) الاستدلال على كروية الأرض فقال : لا تفسير للآية إلا أن تكون الأرض كروية دوارة نصفها ليل ونصفها نهار ، فإذا جاءت الساعة يكونون فى ليل والنصف الآخر فى نهار[1] .

● **تعقيب**

وهذا غير ما فهمته مدرسة النبوة ، وقد جرى لسان العرب على القول . آتيك ليلاً أو نهاراً ، فلا يفهم منه إلا التوقيت الزمنى الذى لا يتعلق بكروية الأرض الدوارة[2] واستنباط كروية الأرض تفسير ضيع الهدف من الآية ويذهب بالغاية منها وهو التجهيل بوقت الساعة . ليستغرق الحذر منها كل وقت الحياة من ليل أو نهار ، وما ذكره الكاتب عن الأرض والسماء لا تسلمه له . بل إنه مما يعاب على الكاتب شدة تهافته على أحدث المعارف ومحاولته إلصاقها بالقرآن .

وخطأ هذا المسلك يبدو على سبيل المثال فيما قرره من أن القمر خراب يابس ، لا خضرة فيه ولا ماء ولا حياة ، كفرع النخل القديم اليابس ، بينما أذاع علماء السوفيت — عقب مانشره الكاتب من تفسيره بشهرين — أن الصور التى التقطتها مركبة الفضاء السوفيتية « لونا » عن القمر تريهم معالم عمران وآثار حياة فوقه .

(١) القرآن : محاولة لفهم عصرى للقرآن ص ١٤٦ .
(٢) القرآن والتفسير لعصرى لبنت الشاطىء : ص ٩٢ ط أولى .

أما دعواه أن آدم طور لخلائق جاء فى أعلى ذروة لها ، واستشهاده بما ذكره من آيات فباطل :

أولاً : لأن قوله تعالى : ﴿ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً ﴾ إنما هو فى خطاب الناس جميعا ، والتعبير ضمير الجمع فى « خَلَقَكُمْ » يدل على أن موضوعه ليس هو « آدم » ولكن هو « بنو آدم » وهذه الأطوار شرحها القرآن وشرحتها السنة .

ففى القرآن ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً ، فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً . فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً . ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ ، فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ (المؤمنون : ١٢ — ١٤) ، فهى أطوار الخلقة كما قال السيوطى فى تفسيره كما هى أطوار الضعف والقوة والشيخوخة فى الآية الأخرى ﴿ اللهُ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ، ثُم جعل مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَشَيْبَةً .. يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ، وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴾ (الروم : ٥٤) ، وكل هذه أطوار فى خلق الإنسان .

وقد جمعت بين النوعين من الأطوار تلك الآية الكريمة : ﴿ هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ، ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ، ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخاً . وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ ، وَلِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُسَمًّى ، وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (غافر : ٦٧) ، وطور التراب هنا يشير إلى المصدر الأول للغذاء الذى تتكون منه الخلايا كما يخلق الله منه النطفة والدم .

ومن الأطوار التى خصها القرآن بالذكر أطوار المرء فى الرحم ، قال الله سبحانه : ﴿ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ ، فِى ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ﴾ ، فهذا — كما هو تعبير الكاتب نفسه — يكشف لنا الخلق داخل الرحم ، فيصفه بأنه يتم على أطوار . ﴿ خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ ﴾ وأنه يجرى داخل ظلمات ثلاث ، هى ظلمة البطن وظلمة الرحم وظلمة الغلاف « الأمنيوس » ، كل غرفة منها داخل الأخرى ، والجنين فى قلبها ، وهى حقائق تشريحية لم يكن يعلمها أحد[1] وقد أكدها العلم الحديث .

● **تعقيبات :**

وقد وهم الكاتب فى دعواه جهل العرب بأطوار الجنين جهلاً مطلقاً ، فقد تناول

(١) المرجع السابق ص ٥٣ .

وأنه يحكمها ولا تتحكم فى أفعاله ، ذلك اليقين والتصور الذى ينشأ من قوله ﴿ **إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون** ﴾ ، وفى تعبيره عن خلق السماوات فى يومين ، وخلق الأرض فى يومين ، وخلق جميع الأكوان الأرضية موزعة من أرجائها تحت الثرى فى يومين ، ما يدل على سرعة الإنجاز للأمر العظيم الذى يأخذ دهورا بمجرد تصميمه فنيا فضلا عن إخراجه إلى حيِّز التنفيذ ـ بيان للقدرة .

بينما يبرز هذه الصورة الإيمانية لقهر الله وقدرته أن نجعلها محدودة ومقيدة بالسنة الكونية والتكوينات الجيولوجية التى لا تحدث فى لحظة (بين الكاف والنون) كما قال المؤمنون ، بل تحدث طبقا للمتغيرات الطبيعية للأشياء التى تتحول إلى أطوار متعددة طورا بعد طور فى مرحلة زمنية بعد الطبيعية .

إن ظاهر النص القرآنى يؤدى دوراً تربوياً فى بناء عقيدة المسلم فى قدرة الله وإن التأملات العلمية فى خلق السماوات والأرض وسنن الله الكونية فيها تؤدى دوراً تربوياً آخر فى بناء عقيدة المسلم فى حكمة الله وإبداع تدبيره سبحانه .

ومن هنا كان من الخطأ تربوياً ـ كما أنه من الخطأ عقائدياً كما أنه من الخطأ تفسيراً مذهب بوكاى ومصطفى محمود وأمثالهم . فتفسير الكاتب للأطوار بالأزمان الجيولوجية لا دليل عليه ، فإن اليوم الذى وصفه الله بأنه كخمسين ألف سنة ، إنما هو يوم القيامة .. يوم العذاب ، كما هو السياق للآيات : ﴿ **سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ . مِنَ اللهِ ذِي الْمَعَارِجِ . تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلاً . إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً وَنَرَاهُ قَرِيباً .. يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ ، وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً ..** ﴾ .

فكلمة (إنهم يرونه) أى اليوم الذى (مقداره خمسون ألف سنة) وهو من أيام العذاب .. ومن أيام الآخرة ، سواء كان الطول على الحقيقة ، أو الطول كناية عن شدة العذاب الذى لا مخلص منه .

والتسليم بظاهر المعنى والبعد عن المجاز : هو مذهب السلف وجماهير المسلمين ، وإنه لم يمنع من حمله على المعنى المجازى مانع .. فإنه هو اليوم الذى ذكر الله أنه ألف سنة فى قوله سبحانه : ﴿ **يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ، ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ** ﴾ (السجدة : ٥) . يعنى أن لله التدبير لكل ما فى الحياة

فإذا أنهاها كان الحساب فى يوم عصيب يطول على العصاة فهو كألف سنة مما تعدون .

أرسطو وحكماء العرب فى الجاهلية ذلك ، ونقل ابن سيده فى المخصص عن العرب أنفسهم اسما خاصاً لكل حال من أحوال الجنين ، وكل مرحلة ووضع ، فالقرآن يخاطبهم بما يفهمونه .

وتفسير الكاتب للأطوار بالأزمان الجيولوجية إنما يتابع فيه المستشرقين وعلماء الغرب عموماً ـ وممن قالوا بتفسير الأيام بمعنى المرحلة الجيولوجية المستشرق الفرنسى بوكاى فى كتاب تناول فيه نظريات العلوم والفلك عند آخر نقطة وصل إليها العلم .. وردُّها إلى القرآن باعتباره مفتاحاً لكل هذه المكتشفات العلمية .

والواقع أن تفسير مصطفى محمود لأطوار جيولوجية الإنسان يناقض القرآن كما بيناه ، أما تفسير بوكاى فيقول : خلق الله الأرض فى مرحلتين جيولوجيتين .. والسماء كذلك ، واعتبر الإنسان فى طور رابع من مراحل ستة لخلق السماوات والأرض وما فيها من حيوان ونبات وغازات ومعادن فهو استلهام للآيات ٩ ـ ١٢ من سورة فصلت التى قدرت خلق السماوات فى يومين ـ وخلق الأرض والسماوات وما فى الأرض فى ستة أيام ـ ثم خلق الأرض وأقواتها فى أربعة أيام ـ وإذا ضم من الأربعة يومان لخلق الأرض بقى يومان لخلق أقوات الأرض ومن عليها .. وهو قوله سبحانه ﴿ **قل إنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أنداداً ذلك ربُّ العالمين .. وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدَّر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين ، ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين . فقضاهن سبع سماوات فى يومين .. وأوحى فى كل سماء أمرها ، وزينّا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم** ﴾ .

واكتفى بوكاى بقوله : ظهر الإنسان فى المرحلة الرابعة .. ولم يقل بأنه متطور عن سابق .. ولكن السؤال الذى نعرضه إذا كان الله قد قال : ﴿ **إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون** ﴾ كما أنه سبحانه فى حياته قبل الزمان والأيام .. سواء الأيام الشمسية أو القمرية أو الأزمنة الضوئية الجيولوجية وهذا يقتضى أنه منفرد فى وجوده وحياته وأيامه بما ليس كمثله شىء .. وكل هذه الأزمنة هى للأكوان وليس الله كمثلها ولهذا أفليس المعقول والمقبول أن يترك تفسير الأيام لصاحب هذه الأيام علام الغيوب .. وننتفع نحن بهذه الدراسات العلمية للتكوينات الجيولوجية .. بدلاً من أن تربط تصورات المؤمنين والباحثين عن الإيمان بتصور يشجب اليقين بقهر الله للسنن الكونية

وقال بعض أدعياء العلم : إن كلمة ﴿ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴾ إشارة إلى أن الألف سنة هي سنين ضوئية تحدد المسافة بين الأرض وأقصى نقطة في عالم السماوات . وغاب عن القائل أن الله ليس في جهة . ولا يشغل حيزا حتى نجعل عروج الأعمال إليه على الحقيقة . وعروج ماتم في الحياة من تدبيرها و عَرْضه على الله . . . وتدبير الله يتناول ما خلقه وما يسر الناس لعمله من خير أو شر . . وكل من التفسيرين مقبول . . . ولكل مسلم أن يختار ما تطمئن إليه نفسه . . دون أن يقع في التجسيم ـ أي نسبة الله إلى جهة ، ووصفه بشغل حيِّز من الفراغ أو الانحياز في جهة .

وقد وقع في سحر نظرية التطور كثيرون قالوا ما قاله الكاتب في تفسير خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ، بل هي نظرية أفاض فيها أفلاطون ، وذكرها العرب في صور شتى فتفسير القرآن بها ليس عصريا ، وإنما هو يوناني وثني ، ويحسم النزاع في بطلان أن آدم كان طورا خلفياً لأحد المخلوقات كالقرد أو غيره وله سبحانه : ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ * ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ ، وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ * ﴾ (السجدة : ٧ ـ ٩) .

فهو يقرر أنه خلق قبل آدم خلقاً أحسنه ثم بعد ذلك خلق آدم من طين ، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ، ثم بعد خلق آدم من الطين نفخ فيه الروح ، وجعل له السمع والبصر ، هذا فضلاً عن أن نظرية التطور رفضها جمهرة كبيرة من أهل العلم فقالوا : إن كل نوع له استقلال في أصل خلقته واعترف داروين نفسه بأنه لم يستطع أن يعرف سر الحياة ، وأنه كلما تعمق في بحوثه هذه أدرك أن أصل الحياة هو الله تبارك وتعالى[1] .

ونظرية التطور تفترض الارتقاء إلى الأقوى والأصلح . وآخرون قالوا : إلى الأجمل ، والشيء لا يسمى حسنا إلا إذا تضمن العلاج والجمال المغنيين عن التطور .

ولهذا فإن أي دعوى للتطور من أجل التحسُّن باطلة بعد أن قال الله عما خلقه قبل آدم ﴿ أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ، وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ﴾ وهذا الطين لاشك أنه ليس أحد المخلوقات النامية . . ثم إن الله ذكر نفخ الروح بما يدل على أنها بعد خلق

(١) الإمام حسن البنا في محاضراته بدروس الثلاثاء ١٢/١٢ سنة ١٧٦٠ هـ . ١٩٤٠/١٢/٣٠م .

الإنسان ،حيث إنه بلفظ « ثُمَّ » الدال على الترتيب الزمني ، ومعنى هذا أن المخلوقات التي سبقته ـ وهي ذات أرواح كالقردة ـ لا يمكن أن يكون المتطور منها والمتشعب عنها هو الإنسان الذي كان من طين ، وبلا روح .

● آدم بين المثال والواقع :

قال الكاتب ما نصه : إن الآية ـ ١١ من سورة الأعراف ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ ، فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴾ . تحدد أن خلق الإنسان تم على مراحل زمنية ، ثم خلص إلى أن آدم جاء عبر مراحل من التخليق والتصوير والتسوية استغرقت ملايين السنين ، بزمانا وأياما بزمن الله الأبدى[1] .

ثم قال في قوله تعالى ﴿ الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾ (أي إنه هدى سيرة التطور حتى بلغت ذروتها في آدم « ص ٥٣ ») .

ثم علل انبثاق آدم من الماء والطين على مراحل تطورية في الأرض بأنه كان رِدَّةً وانتكاساً وعقاباً لخطيئة آدم الذي خلقه في البدء ـ في أحسن تقويم ـ وخلق له من نفسه زوجة ، وأسكنه كوكب الجنة . ثم وقع تحت إغراء إبليس فأكل من الشجرة ، وكان العقاب هو الطرد والإهباط إلى الأرض والنزول إلى التيه المادي ـ طين المستنقعات ـ هذه المرة إلى جرثومة في طين الأرض إلى نقطة بدء أولى من الصفر .

فآدم الذي هبط إلى الأرض ـ كما يصرح الكاتب ـ ليس إلا جرثومة من طين الأرض انبثقت في تدرج ـ عبر خمسة آلاف مليون سنة ـ كما تقول علوم البيولوجية ، وعبر مراحل وأطوار بدأت بالخلية الأولى « الأميبا » صُعداً إلى الإسفنج والرخويات والقشريات في رحلة قاسية ، وعبر صراعات دامية مع بيئات متعددة تكافح فيها الحياة ، وآتاب الله آدم على توبته بأن هداه في رحلته الدامية وأخذ بيده خارجا به من رحم الأرض ومن طين المستنقعات حتى وقف منتصبا على قدميه ، محاكيا آدم الأول ، آدم الصورة والمثال الذي خلقه في الملكوت ، ولكنه في هذه المرة آدم جديد ، « ص ٥٧ ، ٥٩ من الكتاب .

(١) القرآن : محاولة لفهم عصري للقرآن ص : ٥٢ .

تعقيب :

وسياق آيات البقرة من الآية ٣٠ إلى ٣٨ ﴿ **وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ، قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ؟ قَالَ : إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ * وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ، ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ : أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * قَالَ : يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ : أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ *** ﴾ .

﴿ **وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ ، فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ * وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ، وَكُلَا مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا ، وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ * فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا : اهْبِطُوا ، بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ، وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ * فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ، إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ *** ﴾ .

﴿ **قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى . فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ *** ﴾ .

هذا السياق يدل على أن آدم الملكوت هو بعينه ولحمه ودمه وروحه ـ آدم الأرض ـ وكيف غاب عن الكاتب قوله تعالى : ﴿ **أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى** ﴾ ؟ (النجم : ٣٨) . ﴿ **كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ** ﴾ (المدثر : ٣٨) .

فثواب الله ، لآدم الأرض ، كيف يتم مكافأة على توبة آدم آخر ، هو الذي كان في الملكوت وعالم المثال ؟ هذا مالا يتصوره العقل وقانون العدل .

● **الأكل من الشجرة أهو رمزي ؟**

قال تعالى : ﴿ **وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا ، وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ** ﴾ (الأعراف : ١٩) .

وقال الكاتب :

ها نحن أولاء أمام مخلوق وهبه الله طبيعة مزدوجة فهو روح متفتحة على الملكوت ، يستطيع أن يعيش هو وزوجته متعة الروح .. وزواج الروح ، فيكون له الخلود بدون

حاجة إلى نسل . وهو في الوقت ذاته جسد يمكنه أن يختار متعة الجسد وزواج الجسد ، فيتجدد في شجرة النسل مثل أسلافه من الحيوانات (وهذه هي الشجرة) .

تعقيب :

وقد أثبتنا عدم صحة نظرية التطور .. ومن ثم فدعواه أن الشجرة هي شجرة النسل مثل أسلافه من الحيوانات دعوى باطلة ، إن أراد بكلمة أسلافه أصوله .. أما إن أراد بالأسلاف مجرد من سبقوه من خلق الله ممن ليس هو طورا لهم .. فذلك موضوع له حديث آخر ، وخلاصته أن الشجرة هي شجرة معينة لآدم وقوله سبحانه : ﴿ **لا تقربا هذه الشجرة** ﴾ فيه بيان لشيء واحد من أشياء متعددة ، وهذا يدل على بيان القصد من خصوص النهي ، وقد أثبت العلم أن من الأطعمة والأدوية ماله تأثير على سقوط الشعر فلا غرابة في أن يكون النهي من الله عن هذه الشجرة لحكمة تتعلق أيضا بسلامة البدن ، إلى جانب الحكم التربوية الأخرى ، وفي هذا النهي دعوة إلى ما يؤدي إلى تكريم آدم بالحفاظ على سترته التي تسقط بالأكل من هذه الشجرة ذات الخواص المؤذية ، وفي سترته جلال واحترام ومهابة وصون لذاته ، ولهذا لا عجب إذا قلنا إن الطعام هو طعام على الحقيقة ، والأكل هو الأكل الذي نعرفه ، وقد كان آدم مثلا رجلاً له زوجته .. يأكلان من مختلف الأطعمة الحلال حتى وقعا في تناول ما حرم الله فكان جزاؤهما الخروج من الجنة إلى شقاء الأرض بعد أن عرفا كيف يسلك الصالحون ، وعاقبة الصلاح والطاعة ، ليكون منهما وفيمن يورثانهما خصائصهما البشرية ـ حنين لا شعوري إلى هذه الجنة .. فالمرء يورِّث بنيه كل نفسه ـ بما ذاقت من تجارب وانطباعات وعادات ـ فيما يشبه الخلاصة والبذور وتحملها الجينات ..

إن الله لم يترك آدم في الجنة للمتعة الروحية فقط لكنه منح جسده المتعة التي يحتاجها ، فأذن له أن يأكل وزوجه من الجنة رغداً حيث شاءا ـ إلا شجرة واحدة عيَّنها لهما ليعوِّدهما كبح جماح النفس والسيطرة عليها ، والتمرس بطاعة الله والتزام أوامره لأنها أوامره ، مع غض النظر عن حكمة التشريع إذا جهلناها ، وعما يزينه الشيطان من مزايا فيما حرمه الله ، فإن ما حرم الله علينا ليس بخلاً منه ، ولكنه مجرد اختبار للإنسان ، والأشياء عنده متساوية ، لا غال فيها ولا رخيص ، ﴿ **بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء** ﴾ (المائدة : ٦٤) ومن ثم لم يذكر الله لنا نوع هذه الشجرة ، لأنه لا قيمة لمعرفة نوعها ولا عبرة في ذلك . إنما العبرة في مجرد الامتثال لأوامر الله سبحانه أو

التمرد عليه. فما قيل من أنها شجرة الحنطة ، وما قيل من أنها شجرة الكرم[1] ، لأنها مصدر الإسكار والخمر ، وماقيل من أنها شجرة النسل ، إنما هو حدس[2] وبحث فيما لا طائل تحته[3] .. فالمعصية لله كبيرة مهما كان ما عُصِي فيه من القيمة المادية ، وكما قال الإمام الغزالى : لا تنظر إلى عظمة المعصية ولكن إلى قيمة من تعصيه وعظمته .

● **جنة آدم المعنوية :**

وما ذكره الكاتب من أن « الجنة هى جنة الطاعة ، والإسلام للناموس الإلهى ، وأن الأكل من الشجرة يعنى مخالطة زوجه بالجسد ، مما أدى إلى شقائه بعد هذه المخالطة » كلام لا يسلم له .

استدلال الكاتب :

قال : ومما يدل على أن الشجرة رمز للجنس ما يروى القرآن عن آدم وحواء بعد تذوق الشجرة ، وكيف بدت لهما سوآتهما والسوأة هى العورة ـ وكيف طفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ، أى يغطيانها بأوراق الشجرة خجلاً ، والخجل من الأعضاء التناسلية لا يأتى إلا بعد تذوق اللذة منها ، ولهذا لا يخجل الطفل من أعضائه التناسلية ولا يغطيها ، بينما يخجل البالغ حتى من ذكر اسمها .

ثم نرى القرآن يخاطبهما بعد تذوق الشجرة على أنهما جمع فيقول ﴿ **اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ** ﴾ (البقرة : ٣٦) . بينما كان الخطاب من نفس الآيات قبل الخطيئة هو خطاب إلى مثنى ﴿ **فَكُلاَ مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ** ﴾ (الأعراف : ١٩) . ومعنى هذا أن الاثنين أصبحا ثلاثة وأن الأكل من الشجرة قد أدى إلى الحمل .

وفى سورة طه : ١٢٣ ﴿ **اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ** ﴾ ، وهو خطاب إلى مثنى وجمع فى نفس الوقت ، وفى نفس العبارة ، ولا تفسير لذلك إلا أن يكون الإثنان هما فى ذات الوقت جمعاً ، وأن الأكل من الشجرة أدى إلى التكاثر وكلمة

---

(١) العنب .

(٢) الحدس : التخمين .

(٣) لا طائل تحته : لا فائدة منه .

﴿ **اهْبِطُوا** ﴾ بكسر الباء ، وقراءة ابن حيوة بضمها ، قال الكاتب إنها لا تعنى الهبوط من السماء إلى الأرض ، وإنما الهبوط هبوط فى الدرجة من رتبة التفضيل والانفتاح على الملكوت إلى رتبة الانغلاق على الخواص الأرضية المحدودة ... وكلمة الجنة تعبير مجازى عن الرتبة العالية الملكوتية التى كان فيها آدم قبل المعصية ، أو هى مجرد وصف للحديقة الغنّاء .

مبطلات الدليل :

١ ـ توهم الكاتب أن الأكل من الشجرة هو العملية الجنسية حيث يكشف كل من الرجل والمرأة عن سوءاتهما فلما تم ذلك خجلا من منظرها فسترا العورة .. وهذا الفهم خاطىء ؛ لأن القرآن جعل كشف العورة أمراً تاليا ومترتبا على الأكل من الشجرة ، يعنى أن الأكل تم أولاً ، ثم أعقبه انكشاف العورة كما هو نص الآية الكريمة : ﴿ **فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ** ﴾ (الأعراف : ٢٢) . الجملة شرطية : الشرط إذا ذاقا الشجرة ، والجواب ﴿ **بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا ..** ﴾ الآية ، وهذا يعنى ظهور السوأة والارتياع من كشفها ، والتلهف السريع لسترها بأقرب ما يجدان : وهو ورق الشجرة .

والعجب أن الكاتب يقرر أنهما خجلا فسترا العورة بورق الشجر ، فيجعل الشجرة تعبيرا مجازيا عن شىء معنوى ، وهو إشباع غريزة الجنس ، ويجعل ورق الشىء المعنوى ورقاً حسياً حقيقياً يتلهفان بسرعة إليه ليسترا به ، وهذا منتهى الاضطراب فى الفهم .

ويذكر الكاتب أن الخجل من العورة لا يكون إلا بعد الإشباع الجنسى .. ومن ثم فإن الأطفال الذين لا يعرفون الإشباع الجنسى لا يخجلون من كشفها .. وهو قول غير علمى. فكم من الرجال يفخرون بعد عملياتهم الجنسية بذلك بين أصحابهم ، وهكذا تتباهى بعض النساء ، وإن كنا نَصِمُ هؤلاء بقلة الحياء بحكم التقاليد التى أرساها الإسلام حين نهى عن ذلك .

وفى الوقت الذى يخجل فيه المرء من ذكر أعضاء التذكير والتأنيث للحياء الموروث ، نرى بعض الفلاحين والأساتذة الجامعيين الذين لم تتمكن تقاليد الإسلام منهم ومعاييره الأدبية من نفوسهم وفى قلوبهم ، لا يعبأون بالاستحمام عرايا تماماً أمام زملائهم .

ثم هل نسي الكاتب أندية العراة ؟ بل الشعور العارية ؟ كل هذا ينقض حجته .

أما الأطفال فإنما يفعلون ذلك قبل تأديبهم وتعليمهم ، وقبل أن يمسح عليهم المجتمع بيده وتقاليده .

٢ ـ وأما استشهاد الكاتب بقوله : ﴿ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ ، وزعمه أن الجمع لآدم وحواء والحمل ، فهو خطأ فاحش .

أولاً :

لأنه حين تزورني امرأة حامل لم تلد فإني لا يصح في اللغة أن أقول مثلا « ليلى حضرا » يعني هي وجنينها ، فضمير الجمع لا يطلق إلا على ما كان له وجود في عالم الشهادة ، ولا تقول في امرأتين حُبليين أو إحداهما حُبلى : اذهبوا إلى المدرسة ، أريد بالجمع المرأتين والجنينين ، لأن الجنين ليس أهلا للخطاب ، ومحال أن يخاطب الله بالتكليف ما لا يعقل من الأجنة . ولا يقال إنه نفخ الروح في الجنين ، لأن الروح لا تدب في الجنين في بعض قول أهل العلم إلا بعد أربعة أشهر ، والآية تقول : ﴿ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ﴾ ، والفاء في قوله : ﴿ فَأَخْرَجَهُمَا ﴾ تفيد الترتيب ، والتعقيب ، أي أنه حين وقع الزلل تبعه الخروج من الجنة مباشرة .

ثانياً :

المراد بالجمع آدم وحواء وإبليس كما هو سياق الآية التي بترها[1] الكاتب . فالله يقول : ﴿ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ . وَقُلْنَا اهْبِطُوا : بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ (البقرة : ٣٦) وهو قول بيِّن .

وما ذكره من أن الخطاب لآدم وحواء بالمثنى قبل ذلك فهو في سورة الأعراف . وقد تبع ذكر الحديث عن آدم وحواء حديث عن الشيطان ودوره معهما . ولذا أيضا كان الضمير عائدا على الشيطان وحواء وآدم ، وسياق الآيات ـ ﴿ وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ، فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا ، وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ * فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا ، وَقَالَ : مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ * وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي

---

(١) بترها : قطع جزء منها .

لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ * فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ ، فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ ، وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ ، وَأَقُلْ لَكُمَا : إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ * قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ * قَالَ اهْبِطُوا : بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ * ﴾ (الأعراف : ١٩ ـ ٢٤) .

وأما ما جاء في سورة طه : فالخطاب لآدم وحواء بالمثنى في قوله : ﴿ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً ﴾ ، وأما الجمع بعد ذلك في ﴿ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ فهو التفات لبني الإنسان جميعاً من أمة محمد ، تذكر قصة الصراع بين الحق والباطل ، ووقوف البعض إلى جانب الحق ومعاداة الآخرين لهم ، وتهيب ببني الإنسان أن يستجيبوا للهدى ، وتحذرهم الشقاء إذا لم يستجيبوا لله سبحانه .

ولذا فالقراء يقفون عند قوله سبحانه ﴿ جَمِيعاً ﴾ . ثم يبتدئون القراءة بقوله ﴿ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ، فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى ، فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى * وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا ، وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى ، وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ ، وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى * ﴾ (طه : ١٢٣ ـ ١٢٧) .

وأسلوب الالتفات عن الخطاب في الحكاية الماضية ﴿ قَالَ اهْبِطَا ﴾ إلى الخطاب للحاضر : ﴿ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ . الآيات ، من الأساليب البلاغية الرفيعة التي يعلمها علماء البلاغة ، وكان على الكاتب أن يدرس هذا الفن ، كما كان عليه أن يدرس المنطق وفنّ آداب البحث والمناظرة ، إلى جانب اطلاعه العلمي الواسع في العلوم الحديثة ، لأن دراسة القرآن كما تتطلب ما درسه ، تتطلب التعمق في الدراسات اللغوية والمنطقية .. وفي السنة كذلك .. وفي أسباب النزول : حتى يضمن لنفسه العواصم من القواصم في هذا الطريق الشاق الذي سلكه ، وليأمن العثار في محاولته التي سماها « محاولة » لتفسير عصري للقرآن

وقول الله ﴿ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ، فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى ﴾ ، والهدى هو القرآن ، يدلّ على أن الخطاب في ﴿ بَعْضُكُمْ ﴾ ليس موجها إلى آدم .. وبعبارة

أخرى : هو دليل الالتفات ، مع ما تلا ذلك من خطاب صريح ونداء واضح للأمة المحمدية .

ومن الإنصاف أن نقول : إن ما ذكره الكاتب ـ من تعليل الجمع بوجود الحمل ـ له أصل فى تفسير الجلالين ، إذ قال الجلال المحلى : ﴿ اهْبِطَا ﴾ بما اشتملتما عليه من الذُّرِّيَّة ﴿ بَعْضُكُمْ ﴾ أى بعضُ الذرية ﴿ لبعضٍ عدوٌّ ﴾ . ولكن ما جاء فى تفسير الجلالين لا يعنى الحمل ، ولكن يعنى ما أودع الله فى الصلب والترائب من خاصية الإنجاب .

وفرق بين هذا القول الذى لا يتنافى مع العقل والمنطق وبين كلام الكاتب ، فإن كان قد أراد متابعة الجلالين فقد أخطأ الفهم أو خالفها .

ثالثاً :

لو سلمنا بأن ضمير الخطاب فى ﴿ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ يراد به آدم وحواء لكان على لغة من يجمع المثنى جمع الكثرة من القبائل العربية ، ولا يعنى الجمع إلا آدم وحواء حينئذ .

ومثال ذلك فى القرآن قول الله عن سليمان وداوود . ﴿ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴾ . بعد قوله ﴿ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى الْحَرْثِ ﴾ (الأنبياء : ٧٨) .

أو أن الخطاب لآدم وحواء ـ باعتبار ما سيكون من وجودهما ووجود نسل لهما ، فالجمع فى ﴿ بَعْضُكُمْ ﴾ لا لحمل عُلِم وجوده فى جوف حواء ، ولكن باعتبار ما سيكون ، وهذا لون من البلاغة معروف . وهو ما ذهب إليه الزمخشرى وطائفة معه .(1)

وقال البيضاوى : المراد من الخطاب ليس آدم وحواء بل ذريتهما ، والعداوة هى النزاع على الحياة ، وأخرج القرطبى هذا عن مجاهد والحسن(2) .

وروى البيضاوى قولا بأن ﴿ اهْبِطَا ﴾ خطاب لآدم وإبليس ، وعليه فالنزاع بين بنى آدم وبين بنى إبليس ، وإنما عُبِّر عن بنى كلٍّ بالبعضية ، لأنهم بعض أبيهم وجزء

(1) مفتاح دار السعادة لابن القيم حـ ١ ص ١٦ ط أولى بمطبعة السعادة فى مصر .
(2) المرجع السابق ص : ١٦ .

منه . ومن ثم فالصراع بين الحق والباطل . وهذا ما رجحه ابن القيم ، لأن الله حين ذكر المعصية قال : ﴿ وَعَصَى آدَمُ ﴾ ولم يذكر حواء . ثم قال : ﴿ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً ﴾ . فهذا يدل على أن المخاطب بالإهباط هو آدم ، ومن زين له المعصية ودخلت الزوجة تبعا ، وهذا أن المقصود إخبار الله تعالى للمكلفين من الجن والإنس بما جرى على أبويهما من شؤم المعصية لئلا يقتدوا بهما(1) .

الشجرة فى التوراة :

جاء فى سفر التكوين : أن آدم وحواء لم يكونا يرتديان شيئا ، ويجهلان أن عدم لبس الثياب يكشف العورة حتى أكلا من شجرة المعرفة ، فعرفا وجوب الاستتار .
وهذا الذى روى فى التوراة ونقله الكاتب يكذبه القرآن بقوله : ﴿ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا ﴾ (الأعراف : ٢٧) ، فالنزع إنما يكون لشىء موجود قبل الأكل كانا يلبسانه .

● تفسير الهبوط من الجنة :

صحيح أن المفسرين اختلفوا فى (المهبط) الذى هبط منه آدم وحواء ، وفى المكان الذى هبطا فيه : فنقل عن المنذر بن سعيد البلوطى وأبى مسلم الأصفهانى وأبى محمد عبد الحق بن عطية فى تفاسيرهم عن جماعة أنها ليست جنة الخلد ، وإن كانت فى السماء فى رواية الحسن .

وخالف الحسن آخرون : فروى بسند لم يصح أنها كانت جنة فى الهند ، وقيل بعدن وقيل بجدة ، وقيل هبط بسرنديب من الهند بجبل يقال له (بوذ) أو (راهون) كما نزلت حواء بجدة وإبليس بالأيلة والحية فى سجستان ، فهى لذلك أكثر بلاد الله حيّات . وقيل بل هى جنة الخلد وهو مذهب أهل السنة ، وقالوا : هى التى دخلها النبى ليلة المعراج وقيل بالتوقف . والمعتزلة : على أن جنة آدم بستان باليمن ، لأن الجنة لا تكليف فيها ولا خروج منها ، بينما القرآن يحكى تكليف آدم بها . ﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ﴾ وأجاب أهل السنة بأن التكليف الذى فى الجنة ليس إلا التكليف بالمعرفة والتوحيد(2) .

(1) المرجع السابق ص ٦ و ١٧ .
(2) تفسير النسفى حـ ١ : ص : ٤٢ .

ولا طائل تحت البحث ، وإن كان بعض أدعياء العلم يلجون هذا الباب الذى فتحه الإسرائيليون بأقوال جرت على ألسنة بعض العلماء القدماء [1] ، وقد ذكر ابن القيم مختلف الآراء وأدلتها فى مفتاح السعادة فليرجع إليها من شاء .

ولو علم الله فى بيان هذا خيراً لذكره لنا ، ولكنه سبحانه أراد أن يسمو بأنفسنا عن الخوض فيما لا يجدى لكيلا تشغل أنفسنا والناس به . إذ الوقت هو الحياة ، وإهدارها انتحار آثمٌ من يقترفه ، ولكن مع هذا فإن تفسير الهبوط بأنه هبوط المنزلة (والانغلاق على الخواص الأرضية) خطأ .

(أ) لأن آدم وأى إنسان مسلم لا تُرتَج [2] من دونه الآفاق الروحية نهائياً لمعصية ، بل إنه لا يظل بعدها منغلقا على الخواص الأرضية ولكن الأمر كما قال القرآن : ﴿ **إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون** ﴾ (الأعراف : ٢٠١) والإبصار : هو انفتاح البصيرة إلى ملكوت الله ومعرفة الحق والواجب ، والتخلى عن الإثم والفواحش .

وبعبارة أخرى بالتوبة النصوح ، يعود إلى باب الله فيجده مفتوحا .

(ب) ثم كيف يوصف آدم بالانغلاق على الخواص الأرضية ، وقد قال الله فيه ﴿ **ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى** ﴾ (طه : ١٢٢) . وهل يتصور الاجتباء دون انفتاح لرحمة الله وفضله أمام من يجتبيه ؟ .

(حـ) ثم إن الله ذكر جنة ذات ثمار ، وذكر طعاما وخروجا منها . فلابد أن يكون هذا على الحقيقة . وكما قال فى قوم موسى : ﴿ **اهبطوا مصراً فإن لكم ما سألتم** ﴾ (البقرة : ٦١) يعنى ادخلوا مصر : فإن الهبوط جائز بهذا المعنى .

ولكن لما كانت الجنات اليانعة تكون أكثر ماتكون بربوة ، فإن اللفظ المناسب للخروج من الجنات إلى غيرها كونُ هو لفظ الهبوط . سواء أكانت الجنة فى مرتفع فعلا ، أم لا . ومن بلاغة القول اختيار اللفظ المناسب الذى يحقق براعة المعنى المراد كما هو الأمر هنا .

(د) وقد اعترف الكاتب بأن آدم وحواء غطيا عوراتهما من ورق الشجر .. إذن ـ

---

(١) مفتاح السعادة حـ ١ ـ ص ١٢ وما بعدها .

(٢) لا تغلق .

فالجنة أمر حقيقى ، وهى ذات شجر ، والهبوط منها على الحقيقة وليس على المجاز الذى زعمه الكاتب .

وقال القرطبى فى بيان سر الهبوط من الجنة ـ ردا على ما زعمه الكاتب وأمثاله ـ ما نصه : « لم يكن إخراج الله تعالى آدم من الجنة وإهباطه منها عقوبة له ، لأنه أهبطه بعد أن تاب عليه وقبل توبته ، وإنما أهبطه إما تأديبا له وإما تغليظا للمحنة .

والصحيح فى إهباطه وإسكانه الأرض ماقد ظهر من الحكمة الأزلية فى ذلك ، وهى نشر نسله فيها . ليكلفهم ويمتحنهم ويرتب على ذلك ثوابهم وعقابهم الأخروى ، إذ الجنة والنار ليستا بدارى تكليف . فكانت تلك الأكلة سبب إهباطه من الجنة ، ولله أن يفعل ما يشاء .» [1]

وقيل : كانت الجنة فترة تدريب على أكمل نظام للحياة الإنسانية وليكون آدم فى شوق عارم إليها . يذكر به وبخاله ـ عندما يذكرُها ـ أبناؤه فيجدُّون فى طلبها .

ويستلزم كل ما ذكرناه أن تكون الجنة جنة مادية حقيقية ، وليست بالمعنى المجازى الذى قاله الطبيب مصطفى محمود . أى ليست مجرد (جنة الطاعة والإسلام للناموس الإلهى) . فهذه الجنة المعنوية إنما هى بعض ما وعد الله به المتقين فى الجنة ﴿ **سلامٌ عليكم طبتم فادخلوها خالدين** ﴾ (الزمر : ٧٣) ـ ﴿ **ونزعنا مافى صدورهم من غلٍّ** ﴾ (الحجر : ٤٧) ـ ﴿ **تحيتهم يوم يلقونه سلامٌ** ﴾ (الأحزاب : ٧٤) ـ ﴿ **للذين أحسنوا الحسنى وزيادةٌ** ﴾ (يونس : ٢٦) .

قيل الحسنى هى الجنة والزيادة هى رؤية الله يوم القيامة ـ راضيا عنهم عند غير الأباضية والمعتزلة الذين ينكرون رؤيتنا له سبحانه .

وهذا وقد قال المفسرون : إن زواج آدم وحواء وحمل حواء وولادتها إنما كان جميع ذلك فى هذه الأرض بعد خروجهما من الجنة ، إذ ألقى الله الشهوة الجنسية فى آدم بهذه الأرض بعد أن أهبطه إليها [2]

الرجوع إلى الحق :

كان ماكتبته بناء على ما نشره الكاتب بمجلة صباح الخير ولكنه عندما أعاد نشره فى كتاب أضاف بعد مناقشة القراء له ـ قوله :

---

(١) القرطبى فى تفسيره ٢٧٣ ط : الشعب

(٢) تفسيره الخازن حـ ٣ ـ ص ٢٦٦ .

« ولا مانع من أن تكون الشجرة شجرة تؤكل بالفعل فتؤدى إلى اطلاق الهرمونات واشتعال الرغبة الجنسية ، ومن ثم تُلقي بآدم إلى المخالطة الجنسية ، وتكون الآية صادقة حرفيا ومجازيا » ص ٦٣ .

تعقيب :

وخطأ الكاتب فى هذه المرة - يرجع إلى أنه ذكر الحكمة تخميناً ورجماً بالغيب ، والغيبيات - كما يعلم - لا يجوز التحدث عنها إلا استناداً إلى نص .

والخطيئة هي المخالفة لأمر الله بالأكل من الشجرة - أيًّا ما كانت هذه الشجرة ، أو كانت قيمتها ، أو نوعيتها الغذائية .

ثم إن آدم لقي جزاءه وعرف خطأه بمجرد الأكل ، لا بكميات من الأكل المتكررة تؤدى إلى تمثل هرمونات بدرجة تهيج غريزة الجنس .

وما أحسن ماختم به الكاتب ما قاله إذ قال : « ولا يمكننا القطع فى هذه المسائل ، ويجب أن نقول : إن الشجرة مازالت لغزاً ، وإن قصة الخلق مازالت من أمور الغيب ، لا نستطيع أن نقول فيها أكثر من الاجتهاد »[١] غير أننا نقول إنه من المقطوع به أن الشجرة كانت مادية أمَّا ما نوعها ؟ وما هى ..؟ فهذا هو الغيب ، ونقول إنَّ الخلق لآدم كان من تراب ، وأما أين هبط وكيف تم الخلق ؟ فهذا هو الغيب .

السموات السبع :

اعترف الكاتب بأن العلم بهاغير متحقق : قالوا إن الطيف سبع ، وثَمَّ سبع درجات من الأطوال الموجيَّة ، من الأحمر : إلى البنفسجي . وبالمثل السلَّم الموسيقي سبع درجات فى جميع حالاته ؟ وأن هناك سلما يكور نفسه من أسفل سافلين إلى أعلى عليين ، سبع سماوات وسبع أرضين مثل ما للضوء سبع درجات ، والألوان سبع درجات ، والأنغام سبع طبقات ؟

هذا مجرد احتمال .. ولكنه يشير إلى أن مافى القرآن من أسرار لا يمكن المرور بها مروراً هينا ، وأنها تحمل مدلولات غاية فى العمق[٢] .

تعقيب :

وهنا احترم الكاتب إنسانيتنا ، فاعترف بجهلنا أمام واسع علم الله ، ولكنه أثار

(١) القرآن محاولة لفهم عصرى للقرآن ص ٦٣ .
(٢) نفس المرجع ص ٦٣ : ٦٤ .

سؤالا فقال : كيف جاء القرآن بهذه الموافقات التى اتفقت مع نتائج العلوم والبحوث والجهود المضنية عبر مئات السنين ؟

أمصادفة ؟

وإذا سلمنا بمصادفة واحدة .. فكيف نسلم بالباقى ؟ وكيف يخطر على ذهن نَبِىٍّ أمى مشكلات وقضايا وحقائق لا يعرفها عصره . ولا تظهر إلا بعد موته بأكثر من ألف وثلاثمائة سنة ؟

« وإذا أخذنا بالتفسير الملحد الذي يرى فى ذلك الكلام الذى يجيء على لسان محمد ﷺ صورة من نشاط عقلي باطن انفتح تماماً على الحقيقة المطلقة . إذا قلنا هذا فقد اعترفنا إعترافاً مهذبا جداً ، وعلميا ، بالوحي .. فما الحق المطلق سوى الله ، وما الانفتاح على الله والاتصال به إلا الوحي بعينه ، ولكن القصة لم تنته ، فإن القرآن يزودنا بما هو أكثر من كل ما قاله العلم فيطلعنا على بعض الغيب .. كقصة آدم وإبليس واسجاد الملائكة لآدم[١] » .

● حقيقة الوحي :

ما ذكره الكاتب من تفسير الملاحدة ، وإقرارهم عليه ، وقوله « إنه اعتراف مهذب جدا ، وعلميٌّ بالوحى » فيه إنكار لوجود الملائكة الذين ذكر الله أنه اختار منهم جبريل مبلغا للنبي كلام الله ووحيه : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى * عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى * ذو مِرَّةٍ (أى قوة) فَاسْتَوَى * وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى * ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى * فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ - أى محمد عليه السلام - مَا أَوْحَى * مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى * أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى * وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى * عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى * ﴾ (النجم : ٤ : ١٤) .

وقد روى المفسرون عن رسول الله ﷺ تفسير كل ، وخلاصته أنه رأى جبريل بالأفق فى حجم سد الأفق ، وهو ما تراه فى السماء بالعين المجردة حتى نهاية البصر ، ثم نزل جبريل بصورة مصغرة فقابل النبي وأبلغه ما أوحى الله به إليه ، وهكذا ليلة المعراج رأى جبريل مرة أخرى عند شجرة تسمى « سدْرة المنتهى » جاءت الأحاديث بوصفها .

(١) نفس المرجع .

وقد جاء فى البخارى وغيره أن اليهود سألوا النبى ﷺ عمن يأتيه من ملائكة الوحى فأخبرهم أنه جبريل ، فتنكروا لجبريل وأظهروا بُغْضَهم له ، وفى هذا نزلت الآية ﴿ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللهِ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ * مَنْ كَانَ عَدُوًّا للهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴾ (البقرة ٩٧ : ٩٨) .

وهذه الآيات نص صريح فى أن الوحى له مَلَكٌ كفر به الملاحدة .

وتناول القرآن حديث الوحى والذى يأتى به إلى النبىّ وأنه ثقة عند الله ذى العرش فقال : ﴿ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ * إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِى قُوَّةٍ عِنْدَ ذِى الْعَرْشِ مَكِينٍ * مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ * وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ * وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ * وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ * ﴾ (التكوير ـ ١٨ ـ ٢٥) فنفى بهذا أن يكون الوحى حديث نفس أو تخيل شيطان .

حقاً : إن للوحى طرقا متعددة ، ولكنه فى كل الأحوال ليس إفراز القلب ولا حركته ، ولا تابعا من النفس ، ولكنه إضافات علوية إلى قلب النبى وعقله وافدةٌ إليه ، كما فى الآية الكريمة ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ، أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴾ (الشورى : ٥١) .

قال السيوطى فى تفسيره ﴿ وحياً ﴾ يعنى مناماً أو إلهاماً ـ ﴿ ومن وراء حجاب ﴾ كحديث الله لموسى عند الشجرة المباركة ، ﴿ ورسولا ﴾ أى ملكا كجبريل .. ومن أمثلة المنام وحى الله لإبراهيم أن يذبح ولده ، ووحى الله للنبى محمد ﷺ أنه سيدخل البيت الحرام .. وفى منام إبراهيم قال القرآن : ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْىَ قَالَ : يَا بُنَىَّ إِنِّى أَرَى فِى الْمَنَامِ أَنِّى أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِى إِنْ شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ (الصافات : ١٠٢) .

ولما كان إسماعيل يعرف أن رؤيا الأنبياء وحى ، وليست حديث نفس قال : ﴿ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ﴾ : فهى إذَنْ أمر من الله وليس انفتاح قلب .

وفى رؤيا النبى محمد ﷺ قال : ﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ﴾ (الفتح : ٢٧)

ولما كانت أمراً من الله خرج النبى إلى مكة للعمرة فيما يسمى عام الحديبية ، وندب

الناس إلى ذلك ، واعتبر المتخلفين دون عذر آثمين ، ولم يقبل عذرهم وفضح أمرهم فقال سبحانه : ﴿ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا ، يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ﴾ (الآيات : ١١ من الفتح وما بعدها) .

وليست كل الرؤى كذلك وحياً أمراً مطاعاً بالرغم من أن النبى ﷺ قال : « الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزء من النبوة[1] ـ فهذا الجزء يكفى للفت النظر ولكنه ليس الحقيقة المؤكدة التى نجدها عند الأنبياء ، فهى تحتمل عند غير الأنبياء أن تكون أضغاث أحلام .

وأما الإلهام فليس فى الحقيقة وحياً يوحى ، وإنما هو رأى تفتق عنه الذهن ، وانكشف للنفس ، وتراءى للقلب أو البصيرة ، ومهما يكن من أمره فإنه من باب « الثلثات » فى أصدق أحواله ، كقول عمر فى المدينة لقائده فى بلاد العجم : يا سارية الجبلَ الجبلَ ، ومن باب الإلهام الذى كان فيما زعموه لعبد القادر الجيلانى الصوفى .

روى أنه قال لامرأة : سيكون الجنين الذى فى بطنك ذكراً ، فجاء المولود على غير المعتاد من صدق إلهام الشيخ ، فسألته المرأة عن هذا فقال : القادر كذَّب عبد القادر ، فجرت مثلاً .

أما الإلهام فربما كان مراد السيوطى به هو نفث المعنى عن روح القدس فى قلب النبى ، كقول الرسول ﷺ « إن رُوح القدس نفث فى رُوعى أنه لا تموت نفس حتى تستكمل رزقها فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب ، ولا يحملنكم استبطاء الرزق على أن تطلبوه بمعصية الله ، فإن ما عند الله لا يُنال إلا بطاعته »[2] .

وليس هو الإلهام الصوفى ، ولا إلهام الفيلسوف . وربما كان مراد السيوطى بالإلهام هو ما قاله الخازن والبغوى من مثل إلهام أم موسى ﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى الْيَمِّ .. ﴾ (القصص : ٧) .

---

(١) رواه البخارى عن أبى سعيد ، ومسلم عن ابن عمر عن أبى هريرة ، ورواه أحمد عن أبى رزين ورواه الطبرانى فى الكبير عن ابن مسعود ـ انظر الفتح الكبير بضم الزيادة إلى الجامع الصغير للسيوطى جـ : ٢ ـ ص ١٣٨ .

(٢) لباب التأويل فى معانى التنزيل للخازن ٦ /١٠٧ وبهامشه معالم التنزيل للبغوى .

أما الإلهام بمعنى انشراح الصدر لأمر من الأمر فليس هو وحي الأنبياء ، وإن كان فيهم منه الكثير صفتهم البشرية .

ومن أحوال الوحي ما ذكره النبي نفسه قائلا : إنه كان يأتيني أحيانا في مثل صلصلة الجرس ، وكان أشده عليَّ فيفصم عني وقد وعيت . وكان الملك يلتبس به في هذه الحال حتى إن جبينه ليتفصَّد[1] عرقا في اليوم الشديد البرد ، كما كان يأتيه الوحي في صورة دِحْية الكلبيّ أحيانا أُخرى ، وكان دِحْية حكيما وسيما محببا بين قومه .

وربما أتى الوحي في مثل طنين النحل .

وهكذا .. الطنين أو صلصلة الجرس لا يمكن أن يسميا إلهاما أو انفتاح قلب ، بل إن شئت قلت : هي واردات إلى القلب تأتيه من أعلى ولا تنبثق منه . وحديث النبي ﷺ القائل : (ألا وإني لا أعلم إلا ما علمني الله) قاض ببطلان دعوى الانبثاق ، وصريح في أن الوحي يكون بالتلقي .

وفي لغز الموت[2] قال الكاتب : « إن الوحي كان يأتي الأنبياء بين النعاس (وهو مقدمات النوم) وبين الغيبوبة (الاستغراق في النوم) لأن هذه لحظة عميقة يخرج فيها العقل من إطار ظروفه ، ويتحرر من الألفة والقعود والأحكام العادية ، وينظر حوله من جديد ليصدر أحكاما جديدة أكثر تحرراً وإلهاما » .

« ونيوتن » اكتشف قانون الجاذبية في هذه اللحظة ، وكل المخترعين والمؤلفين والشعراء والمفكرين تفتقت أذهانهم في هذه اللحظة والفرق بين النبي والعبقري في تلك اللحظة .. هي مساحة الرؤية التي تتكشف لكل واحد ، النبي يشبه جهاز تليفزيون به مليون صمام ، ومساحة الرؤية شاسعة ، وقدرة استقباله كبيرة فهو يستطيع أن يستقبل صوراً من المريخ على شاشة (بانورامية) عريضة ، لأنه مؤيد بوسائل إلهية .

والعبقري هو جهاز « ترانزستور » صغير كاد يستمع إلى محطة القاهرة بصعوبة ، لأنه يعتمد على إجهاد الخاطر الذي قد يخطىء ويصيب ، لكن الاثنين يسبحان جنبا إلى جنب في بحر الحقائق .

---

(1) يتفصَّد : يتصبب ـ يسيل .

(2) ص : ٩٤ . طبعة دار النهضة العربية .

تعقيب :

وهذا أيضاً نوع من الخلط ، ينقضه المروى من أن الوحي قد يأتي مناماً ، وقد يأتي يقظة كما ذكرنا ، ولا يجوز الإفتاء بالتخمين في أمر بقول ليس عليه دليل مادي ولا ورد به حديث مروى .

وقد روت عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أن الوحي كان أحيانا يأتيه وهو نائم على فخذها ، فتشعر بثقل يكاد يرضّ[1] فخذها ، فتعرف أنه الوحي ، وهكذا قال زيد ابن ثابت حين نزل الوحي على النبي ﷺ وكان نائما على فخذ زيد .

هذه بعض الصور الثابتة لنزول الوحي في حال الاستغراق في النوم ، تنفي أن الوحي يكون فقط بين النعاس والنوم . ثم إن ظاهرة الثقل تدل على أن الوحي شيء زائد على الذات ، فلو كان مجرد « خروج العقل من إطار ظروفه » كما يقال ، لكان الجسم باقياً على وزنه إن لم يخفّ .

وهذه كلها آثار دالة على أن الوحي ليس شيئاً ذاتياً كما فهم الملاحدة ، وأن فهمهم ليس فيها ذكياً ولا زكياً ، بل غاية في الغباء والخبث .. لقد حدث أصحاب النبي أنهم كانوا يعرفون نزول الوحي عليه ، إذ تأخذه عليه الصلاة والسلام شدة وتأتيه الرُّحَضاء : أي عرق يغسله ، لغزارته . وقد أتى الوحي في صورة رجل يسأل النبي وهو بين أصحابه ، ثم ينصرف وهم يرونه منصرفا ، ثم يختفي أمامهم دون أن يغشيه عنهم حجاب أو بُعْد شقة ، كما في حديث مسلم : عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ ذات يوم ـ إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر ، ولا يعرفه منا أحد ، حتى جلس إلى النبي ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه .. ووضع كفيه على فخذيه ، وقال : يا محمد : أخبرني عن الإسلام ، فقال رسول الله ﷺ الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت ، إن استطعت إليه سبيلا ، قال : صدقت . فعجبنا له يسأله ويصدقه . قال : فأخبرني عن الإيمان قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره شره قال : صدقت . قال فأخبرني عن الإحسان . قال : أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه

---

(1) يرضّ : يفتّ : يضغط بعنف .

فإنه يراك قال : فأخبرني عن الساعة ، قال : ما المسئول عن ذلك بأعلم من السائل ، قال : فأخبرني عن أماراتها . قال : أن تَلِدَ الأَمةُ رَبَّتَها ، وأن ترى الحفاة العراة العالة رِعاء الشاء[1] يتطاولون في البنيان . ثم انطلق فلبثت مليًّا[2] . ثم قال ياعمر : أتدرى من السائل ؟ قلت الله ورسوله أعلم . قال : فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم » ومعنى أن تلد الأمة ربتها أي سيدتها ، أي تكثر السَّرارى أي الإماء ، حتى تلد الأمة بنتاً لسيدها .. وبنت السيد تكون حرة ، ولها منزلة السيد على أمها ، والعالة الفقراء .

مع الدكتور محمد حسين هيكل :

ذكر الدكتور محمد حسين هيكل : أنَّ أول الوحي أن أتى جبريل النبي بصحيفة معه في المنام فقال اقرأ ، فلما استيقظ وقد نقشت الآيات في صدره عجب لما رآه في منامه[3] .

وبالرغم من أن الرواية ليست هي التي جرى عليها المحققون ، وسندها ضعيف فإن هيكل ذكر أن الملك الذي رآه له حقيقة مرئية أتته فيما بعد .

أيقال : الله هو الحق المطلق :

ذكر الكاتب هذه العبارة « فما الحق المطلق سوى الله »[4] والتلامذة في المرحلة الثانوية يعرفون أن من « أساليب القصر » الأسلوب الذي يجتمع فيه النفي ثم الاستثناء ، مثل العبارة التي ذكرها ، فمعناها إذن : الله هو الحق المطلق وليس شيئاً آخر : يعني أنه سبحانه معنى معين محدود ليس له ذات ولا صفات ولا مدلول غير ما ذكره الكاتب .. وهذه سقطة أرجو أن يكون الكاتب وقع فيها جهلاً بأساليب اللغة ، وليس قصداً أو جرياً وراء فلسفة خاصة تنكر ذات الله وصفاته ، وتزعم ذلك الذي قاله ــ دون أن يقصد قصدهم فيما أرى . ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِباً ﴾ .

ما الفرق بين الكاتب والباطنية ؟

الباطنية فرقة من الشيعة متفق على كفرها ، تقول الآن عن النبي ﷺ وعن الوحي كما أنقله عن الغزالي بالنص :

(١) رعاة الغنم .
(٢) لبث مليا : مكثت قليلا من الزمن .
(٣) حياة محمد : ص ١٣٣ ــ ١٣٤ ط : ٩ .
(٤) القرآن : محاولة لفهم عصري للقرآن ص ٥٤ .

« النبي عبارة عن شخص فاضت عليه من السابق (العقل عند الفلاسفة) بواسطة التالي (النفس عند الفلاسفة) ، قوة قدسية صافية مهيأة لأن تنتقش ــ عند الاتصال بالنفس الكلية ــ بما فيها من الجزئيات ، كما قد يتفق ذلك لبعض النفوس الزكية في المنام حتى تشاهد من مجاري الأحوال في المستقبل إما صريحا بعينه ، أو مُدْرَجاً تحت مثال يناسبه مناسبة ما ، فتفتقر فيه إلى التعبير. إلا أن النبي هو المستعد لذلك في اليقظة ، فلذلك يدرك النبي الكليات العقلية عند شروق ذلك النور وصفاء القوة النبوية »[1] .

هل يختلف هذا عما قاله الكاتب (ما الحق المطلق سوى الله وما الانفتاح على الله والاتصال به إلا الوحي بعينه) ؟

الختان وخطيئة آدم :

قال الكاتب : (ويقال إن شريعة الطهارة وقطع القلفة الزائدة من العضو التناسلي كانت الكفارة التي قضى بها آدم على نفسه بعد الخطيئة كمحاولة للخصاء ــ تقززا مما فعل ، ثم أصبحت تقليدا دينيا من يومها[2]) .

تعقيب :

ولا أدري : أجهل الكاتب ما روى عن رسول الله ﷺ في تاريخ الختان ، وأن أول من فعله إبراهيم الخليل عليه السلام ، وكان الخليل قد اختتن بمكان اسمه القدوم « قادوم » ؟ بفتح القاف أو بفتحها مع ضم الدال مشددة أو مخففة أو بزيادة ألف بعد القاف ، أو أنه يرجح الأساطير التي لا أصل لها على ما ورد به الحديث الشريف ، ثم يعلل لهذه الأساطير منطق علم النفس ؟

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما « اختتن إبراهيم النبي عليه السلام وهو ابن ثمانين سنة بالقدوم » وكذا رواه أحمد ، وروى مالك عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب : كان إبراهيم ﷺ أول الناس ضيَّف الضيف ، وأول الناس اختتن ، وأول الناس قص الشارب[3] .

(١) فضائح الباطنية للإمام الغزالي ص ٤٠ : ٤١ .
(٢) القرآن : محاولة لفهم عصري للقرآن ص : ٦٣ .
(٣) ما رواه البخاري في فضل الأنبياء ٨ ــ والاستئذان ٥١ ورواه مسلم على تخفيف القدوم ــ أما البخاري ففيه التخفيف وتشديد الدال ، وبالتشديد هو مكان بالشام اختتن فيه ، وبمعناه الروايات الأخرى .
وهذا ما يستوجب وجوب الجمع بين الروايات ، فلا عبرة بمن قالوا إن إبراهيم ختن نفسه بآلة النجارين المعروفة بالقدوم لأن القدوم بالتخفيف يطلق على المكان وعلى الآلة .. وذلك لأن الحمل على الآلة مستغرب .

وهل يجهل الكاتب ـ وهو الطبيب ـ عملية الخصاء ، والفرق بينها وبين عملية الجبّ .. فالخصاء قطع الخصيتين وعملية الجبّ هي قطع الذكر فلنقص ثقافته اللغوية أطلق لفظ الخصاء وهو يريد الجبّ .

وكيف يتصور من آدم أنه يقدم على الخصاء أو الجَبّ فيقضى على سبب التناسل ، وهو يعلم أنه إنما زُج به إلى الأرض من أجل ذلك .

وكيف يعالج آدم الخطيئة بخطيئة أخرى ـ وهي العدوان على النفس ـ نفسه هو عليه السلام؟

وكيف يقال إنها عملية للتخلص ـ من داعي العملية الجنسية ـ والمعروف أن الختان إنما هو من أسباب استكمال العملية الجنسية فى أحسن أحوالها؟

وكيف يقدم آدم على إفناء نفسه دون أن يستفتى .. وقد كانت خطيئته التى يستغفر منها أنه أفتى نفسه ؟ والرجل الإلهى المطيع لا يتحرك أى حركة إلا بقانون إلهى .. وقد قلنا إنه لا يصح أن تُنسى الخطيئةُ الأولى التى عاش آدم نادما عليها طول حياته .

ثم إن الكفارات من العبادات ، والعبادات لا تكون إلا بنص شرعى ، وإلا كانت بدعة مرفوضة ، وإن كل بدعة ضلالة ، ولا تعالج الخطيئة بخطيئة أخرى .

الفصل السادس

الغيبيات

● **عالم الملائكة والشياطين والجن والمردة**

ـ حديث النمل مع سليمان

ـ السحر

ـ عجل السامرى

ـ النفاثات فى العقد

ـ البرزخ .

ـ ن . والقلم وما يسطرون .

ـ المحو والإثبات .

ـ يوم عند ربك

● **يوم القيامة**

ـ ما هى القيامة

ـ علامات الساعة

الدخان ـ يأجوج ومأجوج

ـ كيف تأتى الساعة ؟

ـ مأخذ بنت الشاطىء

● **البعث**

ـ العلة فى اختيار لفظ ميت فى ﴿إنك ميت﴾

ـ منكرو الروح ـ ﴿ويسألونك عن الروح﴾

ـ كمال القرآن ـ فى كتاب لغز الموت

عالم الملائكة والشياطين والجن والمودة

تناول الكاتب عدة أمور غيبية له فيها أخطاء، وله فيها نظرات جدلية ـ وأهمها ما يلي بعبارة الكاتب.

١ ـ القرين :

من الشياطين قرين ﴿وَمَنْ يَعْشُ (يتصرف)[1] عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ (الزخرف : ٣٦) هي في غرابتها كغرابة الآية ﴿قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ﴾ (الزخرف : ٣٨) لا تدلنا على كنه ومكان القرين.

ومن الملائكة قرين : ﴿وَقَالَ قَرِينُهُ : هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾ (ق : ٢٣) ـ فالتسليم واجب وإن لم يكن لنا إدراك لجوهر القرين.[2]

٢ ـ الملائكة :

قال تعالى : ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ لا أحد يعلم المراد بالثمانية، أهي ثمانية قوانين فيزيقية أو ميتافيزيقية؟ أم ثمانية ملائكة، أم ثمانية صفوف من الملائكة[3]؟!.

نقض الدعوى :

أقول : الإطلاق في القرآن يبيح لنا التفكير في هؤلاء الحملة، مع استبعاد تفسير الملائكة بالقوانين الفيزيقية أو غيرها، لأن قوله ﴿فَوْقَهُمْ﴾ تتضمن ضمير جمع العقلاء، والقوانين مما لا يعقل، وكلُّ تفسير خالف قواعد اللغة العربية فهو مرفوض ﴿وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً﴾ (طه : ١١٣) ـ ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ (الشعراء : ١٩٥).

---

(١) انظر ما ذكرناه في التمهيد لهذا الكتاب.

(٢) القرآن : محاولة لفهم عصري : ص١٢٦ : ١٢٧.

(٣) المرجع السابق ص ١٢٨.

ثم قال : كيف تحمل مخلوقات ، عرش الله ، وكرسيّ الله ؟ ، الله ، الذي يَضُمُّ عرشه كما قال القرآن ـ ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ (البقرة : ٢٥٥) لعل ذلك قوى كهر مغنطيسية هائلة .. ألا تمسك قوانين الجاذبية بالشمس والنجوم فى فضاء الكون ؟

ومع أن التفسير بأن لله قوى كهر مغنطيسية هائلة خلقها شاهدة على عظمته ـ كلام يزيد الإيمان ، فهو لا يصح أن يقال فى تفسير حَمَلة العرش . لأن الله ذكرهم وذكر ضميرهم بالصيغة الدالة على أن صاحبها ممن يعقل .

ثم إن تفسير الكاتب ـ ﴿ وَقَالَ قَرِينُهُ هذا ما لَدَىَّ عَتِيدٌ ﴾ بأنه ملك من الملائكة ، تفسير خاطىء .. وإنما هذا القرين الكافر من أصحابه الكفار .

كما يدل عليه سياق الآية ﴿ لَقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا ، فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ * وَقَالَ قَرِينُهُ : هَذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ * أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ * مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ * ﴾ إلى قوله : ﴿ قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِن كَانَ فِى ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴾ (ق : ٢٢ ـ ٢٥) .

لياقة الملائكة :

قال الكاتب : « ولا تتعدد لياقات الملك وكفاياته ووظائفه ، كما تتعدد وظائف الإنسان ومواهبه » .

ولا أدرى من أين أتى الكاتب بهذه الدعوى التى ينقضها الواقع .. فجبريل أمين الله على الوحى .. وهو نفسه الذى نزل على النبى بقول : لو شئت أن أطبق عليهم (على كفار قريش) الأخشبين (جبلى مكة) لفعلت : فقال له النبى : لا . فعسى أن يخرج الله من أصلابهم من يؤمن بالله ورسوله .

وفى إحدى الغزوات نزل جبريل مددا مع الملائكة ، وقال للنبى كيف تضع سلاحك ونحن لم نضعها : كما فى كتب السيرة .

الشك فى الحديث :

ذكر الكاتب حديث رؤية النبى جبريل فى صورته الحقيقية مرتين إحداهما فى ليلة مقمرة ، وقد سد جبريل الأفق . ثم قال وهو حديث يمكن أن يشك فى صحته .

ومع أن اليوم الذى رأى فيه النبى جبريل يملأ الأفق روى أنه كان بغار حراء وليس فى البقيع ، كما روى الكاتب [١] . ومع أن الكاتب ذكر بعد ذلك أن جبريل قد ينزل إلى الأرض فى أى صورة ، فإن الذى يعنينى أنه سقط فى زعمه إمكان الشك فى صحة الحديث بسهولة ، وهو حديث رواه البخارى ومسلم .

والذى يهمنى أن أذكره أن الطريق إلى رفض الحديث له منهج علمى معروف ، وله فن يسمى علم مصطلح الحديث ، وعلم الرجال ـ أو رجال الأثر .. فلكى يباح له إنكار حديث ما ـ فى البخارى أو غيره لابد له من سلوك منهج المحدثين .. وأن يقدم الأدلة على دعواه ، وإلا كان ساقط المقالة .

زلـة :

قالت بنت الشاطىء فى نقدها الكاتب : « بل أطيل التأمل فى قوله ـ تأويلاً لآيات النجم : ٤ : ٥ ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَى * عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى * ﴾ والتكوير : ١٩ : ٢٠ ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى الْعَرْشِ مَكِينٍ * ﴾ .

وحينما يصف الله أحد مخلوقاته بأنه شديد القوى .. وبأنه ذو القوة والمكانة ، فلا بد أنه هائل عظيم فى قوته ، وفى إمكانياته ، ونفهم من القرآن أن جبريل يمكن أن ينزل إلى الأرض فى أية صورة ، ويحمل الوحى إلى أى نبى من أى عصر وبأى لغة .. ثم لا أملك إلا أن أتلو الآية المحكمة : ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ . وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾ (الأحزاب : ٤٠) وأستغفرالله لى وله [٢] .

وهكذا زل الكاتب حين قال : وفى هذه البشرية من رأى الجن والملائكة والشياطين شهودا (ص : ١٢٣ من كتابه الطبعة الأولى) ، بينما قال الله فى الشيطان : ﴿ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾ (الأعراف : ٢٧) .

ويستثنى من هذا ما روى من أن النبى ربط شيطاناً فى سارية المسجد فهذه خصوصية مروية رواية ثقة ، دون ما نسمعه من خرافات غير موثوق برواتها ، أما الملائكة والجن فقد يُرَوْن فى أشكال شتى ، وهذا مروى فى السنة [٣]

(١) القرآن محاولة لفهم عصرى للقرآن : ص١٢٨ .

(٢) بنت الشاطىء : القرآن والتفسير العصرى ص ١٣٠ ، ١٣٤ ـ ١٣٥ .

(٣) تفسير البغوى لآية ص ﴿ قال رب اغفر لى وهب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى ﴾ عن أبى هريرة جـ٧ ص ٢١٠ بهامش تفسير ابن كثير ، مطبعة المنار سنة ١٣٤٧ هـ . وكذا أخرجه ابن كثير عن مسلم بإسناده إلى أبى الدرداء ، وأخرجه عن أحمد عن أبى سعيد الخدرى . (ابن كثير فى تفسيره جـ٧ ص ٢٠٩) .

خلود الملائكة :

قال الكاتب : إنهم لا يتناسلون ولا يموتون (ص ١٣٠) . ونقول : أما عدم تناسلهم فقال بذلك المتكلمون ، مستندين إلى نصوص واردة فى ذلك ، وأما أنهم لا يموتون ، فهذا أمر لا ندرى من أين أتى به ، وهو يتناقض مع عموم قوله تعالى : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ ﴾ آخر القصص .

ولا شك أن الملائكة شيء ، بل ورد أن إسرافيل عندما ينفخ النفخة الأولى لا يبقى ملك ولا إنسان ولا ذو روح إلا مات ، ثم يقبض الله إسرافيل ، ثم إذا كان الموعد الذى شاءه للبعث أحيا إسرافيل فنفخ النفخة الثانية ﴿ وَنُفِخَ فِى الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ ﴾ . (يس : ٥١)

● **حديث النمل مع سليمان :**

قال الكاتب : العلم يقول الآن – بناء على الشواهد والملاحظات – إن النمل له لغة وكذلك النحل . وكل فصائل الحشرات التى تبنى مجتمعات وخلايا وتنظيمات ، فبدون لغة متبادلة كان يستحيل على تلك الألوف المؤلفة من الحشرات أن تنتظم فى حياة ، وتتوزع بينها الوظائف .

تعقيب :

وهو قول جيد غير أنه قال عقب ذلك : وإدراك نملة لسليمان أمر ممكن مثل إدراك سليمان لله[1] .

ولا أعرف للتشبيه مغزى ، أيريد أن النمل ألهمت سليمان فعرفته كما عرف سليمان ربه ؟ أم يريد أنها أدركت مقال سليمان : ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِى أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ﴾ (النمل : ١٩) . كما أدرك سليمان الوحى ؟ الاحتمالان لا دليل عليهما .

● **السحـــر :**

تأثر الكاتب بما أدخل على التفسير من خرافات فقال : إن أساليب السحر جاءت إلى الأرض لأول مرة فى بابل ، نزل بها ملكان هاروت وماروت .. جاءا إلى الأرض فى شكل بشر[2] ، وقد ذكر علماء التفسير بطلان الحديث الذى يروى أنهما ملكان ،

---

(١) القرآن : محاولة لفهم عصرى ص ١٣٢ .
(٢) المرجع السابق ص ١٣٣ .

ولذا قالوا : إنما أطلق لفظ « ملكان » على رجلين كانا يتظاهران بالصلاح – خداعا للسذج ، والله سبحانه يرسل الرسل للهداية وليس للتضليل ، وحسْبُ الناس من الابتلاء والفتن إبليس .

● **عجل السامرى :**

قال الكاتب : إن السامرى صنع بالسحر عجلا من الذهب له خُوار[1] .

● **وجه الحق :**

لم يذكر القرآن أن السامرى استطاع ذلك بالسحر ، وغاية ما جاء فى الكتاب الكريم ﴿ وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَاراً مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا ، فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِىُّ * فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا : هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى : فَنَسِىَ * أَفَلاَ يَرَوْنَ أَلاَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَلاَ يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلاَ نَفْعاً ﴾ ؟ (طه : ٨٧ – ٨٩)

فقد احتال نساء بنى إسرائيل على المصريات فاستعرن منهن الحلى ، كما حمل اليهود ذهبهم ، ورحل الجميع مع موسى .. ومن مجموع الذهب سبك السامرى لهم عجلا .. جذب أرواقه اليهود فعبدوه .. فهذا تصوير لما فى نفوس اليهود من عبادة المال . ووثنية كوثنيتهم الواضحة فى الآية الأخرى .. ﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِى إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ ، قَالُوا : يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ . قَالَ : إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ * ﴾ . (الأعراف : ٣٨)

وقد ذكر القرآن أن عمليات السحر لا تؤثر فى طبائع الأشياء ، فهى خداع للرائين ليس غير وكما قال القرآن ﴿ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى ﴾ (طه : ٦٦) فغاية السحر التخيل والخداع .. ﴿ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ ﴾ أما فى الواقع فهى لا تسعى .. والمسحور باق على طبيعته ، ولذا قال القرآن ... ﴿ وَلاَ يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى ﴾ (طه : ٦٩) .

● **النفاثات فى العقد :**

قال مصطفى محمود : ثم حكاية الساحرات النفاثات فى العقد . هذا السحر الذى ورد فى القرآن هو علم قديم قد اندثر[2] .

---

(١) نفس المرجع ص ١٣٤ .
(٢) المرجع السابق ص ١٤٣ .

الجواب : ماجاء فى سورة الفلق كناية عمّن يقتلن فى الغارب والندوة كما يقول المثل ، للإيقاع بين الناس بما يشبه السحر : فكما أن الساحر ينفث فى العقد ليوهم الناس أنه يؤكد سحره فإن النمّام يؤكد النميمة .. مما يجعل المرء يصدق ما يسمع من أكاذيب .. وقد جاءت فى سورة الفلق الاستعاذة من النمامات ومن شر النفاثات فى العقد .. كما ورد فى سورة اللهب الآية : ٤ الكناية عن النمامات بحمّالة الحطب ﴿ وامرأته حمّالة الحطب ﴾ أى النمّامة .

وقد أنكر محمد عبده القصة التى تروى أن النبى سحره لبيد بن الأعصم اليهودى ، وأنكر أن تكون كلمة النفاثات فى ﴿ العُقَد ﴾ قد نزلت بشأن لبيد ، إذْ لو صح وقوع الأنبياء تحت تأثير السحر لجاز أن يتّهموا بالغفلة فى بعض الأوقات وأن يكون المروى عنهم مما جاء فى ساعة فقدان عقولهم وغيبوبتهم تحت تأثير السحر . وهذا طعن يوجه إلى إثبات النبوة ، وسلامة ما بلغنا من الوحى .

وحكى البيضاوى عن بعض المفسرين قول من قال .. المراد بالنفث فى العقد إبطال عزائم الرجال بالحيَل .. مستعار من تليين العُقدة بنفث الريق ليسهل حلها .

وصحح المحققون حديث البخارى ومسلم أن لبيد بن الأعصم عمل سحراً للنبى وأن النبى أخبر أصحابه بما أخفاه اليهودى إثباتا لنبوته وأنه يوحى إليه بما يشاء الله من أمور الغيب .. وأما ما يروى من أنه وقع تحت تأثير السحر فكان يخيل إليه أنه فعل الشىء وهو لم يفعله ، فهو حديث موضوع أقحم على الحديث الصحيح ونبه إليه العلماء وصحح القاضى عياض الحديث جميعه قائلا : إن ما أصيب به النبى من السحر كان فى الجوارح والجسد لافى القلب والعقل ، وهو « عرضة للآفات كسائر البشر ، فغير بعيد أن يخيل إليه من أمورها مالا حقيقة له ثم ينجلى عنه كما حصل »[1] كالأوهام التى تطوف بذهن المحموم ثم تزول .

● **البرزخ :**

قال الكاتب : فإذا جئنا للبرزخ . ﴿ ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون ﴾ (المؤمنون : ١٠٠) . ذلك البرزخ الذى يفصل أرواح الموتى عن دنيا الأحياء ، فإن

(١) شرح الشفا للقاضى عياض ٢٧٨/٤ ، ٢٧٩ وشرح النووى على مسلم ١٧٤/١٤ وفقه السيرة للسيوطى ص ٥١١ – ١١٦ الطبعة الخامسة .

القرآن يعود فيلق الضوء على معناه فى آيتين منفصلتين ، ﴿ وهو الذى مرج البحرين : هذا عذب فرات ، وهذا ملح أجاج ، وجعل بينهما برزخا وحجرا محجورا ﴾ (الفرقان : ٥٣) والحجر المحجور هو المنع الممنوع المحظور .

وقال تعالى ﴿ مرج البحرين يلتقيان * بينهما برزخ لا يبغيان * ﴾ (الرحمن : ١٩ – ٢٠) .

ومن الواضح هنا أن البرزخ ليس مجرد الأرض الفاصلة ، فالأرض الفاصلة لم تمنع من مسيل الأنهار لتصب فى المحيطات . وإنما فى القوانين التى جعلت المحيطات فى الخفض من الأرض ، والأنهار تنزل إليها من عوالى الجبال . ولو حدث العكس لتلوثت كل المياه العذبة .

ثم إن الله جعل مياه المحيطات ترتفع فى المد – بفعل جاذبية القمر – ولكن بمقدار .. ولو كان القمر أقرب إلى الأرض مما هو .. لكان المد العالى الذى يحدث كفيلا بأن يجعل المحيطات تصب فى الأنهار فتلوثها ، ولما وجدنا قطرة ماء نشربها ..

إن البرزخ إشارة الى القوانين الفيزيقية التى تمنع وتضبط وتحفظ لكل شىء حدوده ومكانه .. وهذا يفسر لنا ما قاله القرآن الكريم عن الموتى : ﴿ ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون ﴾ (المؤمنون : ١٠٠) فليس معنى البرزخ هنا فاصلا مكانيا يفصل أرواح الموتى عن دنيا الأحياء ، وإنما معناه القوانين المانعة .. فالأرواح بعد الموت تبدأ حياة ذات قوانين مختلفة حالت دون تخاطبنا معها ، لأن بيننا وبينها برزخا : هو اختلاف القوانين بين عالمنا وعالم الأرواح .

تعقيب :

والمفسرون ذكروا أن البرزخ هو الحائل الذى يحول بين الموتى والحياة الأولى .. فما قاله الكاتب من أن الحيلولة هى طبقاً للقوانين ، لا يمنع منها مانع .

كما أن البرزخ الذى بين البحرين : كونه ذا قوانين – لا يمنع من صحة قول المفسرين قديما ، إنه الفواصل الأرضية بين الأنهار العذبة والبحار الملحة ، فما قالوه ، برزخ فعلا تنضامُّ إليه قوانين إلهية أخرى أودعها الله الكون رحمة بمن وبما خلق ، سبحانه وتعالى .

● **ن . ﴿ والقلم وما يسطرون ﴾ :**

قال الكاتب ... وأغلب الظن أنه ليس قلمنا الذى نكتب به المقالات وتلهمنا فيه

الشياطين ، وإنما المقصود به هنا القلم الإلهي الذي يكتب به الله أقدارنا في اللوح المحفوظ ، أو القلم الذي تسطر به الملائكة[1] .

أقول : وأغلب الظن أن الكاتب عز عليه أن يقسم الله بهذا القلم الذي قد تعرضه لحجر القول فقال : إن المقصود بالقلم القلم الإلهي ـ إلى آخر ما قال .. وهو خطأ مسبوق إليه .. وفي التفسير لهذه العبارة أقوال كثيرة .. والذي أريد أن أقوله : إن الله حين أقسم بالقلم أراد تمجيد العلم في ظل تمجيد أداته الأولى وهي القلم ، وكما تلهم الشياطين إضلالنا فكذلك يلهمنا الرحمن عظات بالغة تخطها أقلامنا ، بل نكتب به القرآن الكريم ، والسنّة المطهرة ، والسيرة العطرة ، والعلم النافع ، وكل ذلك مما يجعل للعلم منزلة رفيعة في الحياة .. فكما منّ الله علينا بالنخيل والأعناب ، ومنها شراب نافع ومنها مسكر نجس حرام .. كذلك منّ الله علينا بالقلم إذ أقسم به ـ وهو سلاح ذو حدّين ، لينبهنا إلى وجوب الترفع به عن أن نخوض به أوساخ الفكر . بل إن مما يرجح أن المراد هو القلم الذي نكتب به المقالات أن الله عطف عليه الكتابة التي يسطرها الناس ، مشركهم وكافرهم ﴿ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ . ولو أنه أراد بالقلم الإلهي الذي يكتب به الله أقدارنا لقال : والقلم وما أسطر ، أو وما يسطر ربك .

كما بقي أن يكون المراد قلم الملائكة أنه لم يرد لهم ذكر في الآية ولا الآيات التالية لها . ومما يرجح أنه قلمنا الذي نكتب به أيضا ، أن الآية نزلت بالقلم والكتابة عقب الآية التي نزلت بالقراءة ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ﴾ .. وهذا يدل على أن القراءة والقلم والكتابة هي قراءتنا وقلمنا وكتابتنا .

وقد ذكر البيضاوي أن القلم إمّا قلم الله الذي كتب به في اللوح المحفوظ ، وإما القلم الذي نكتب به لعظم فوائده . وقد ذكرنا وجه الترجيح .

● **المحو والإثبات :**

قال تعالى : ﴿ يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾ (الرعد : ٤١) .

وقال الكاتب : والتفسير الأصح أن الآية للدلالة على سعة المغفرة والرحمة بدرجة تصل إلى اللامعقول ، إلى محول القدر المقدور ، والله حر فعال لما يشاء ﴿ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ ﴾ .. وبذلك أفسح الله الأمل للتائبين ، وجعل التوبة تتخطى القدر المقدور

(١) المرجع السابق ص ١٣٧ .

نفسه .. وهذا دليل على مطلق حريّة الله ومنتهى رحمته . وتفهم هذه الحرية المطلقة مرة أخرى فيما يروى القرآن عن أيام الله فهو يقول في إحدى الآيات : ﴿ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴾ .. وفي آية أخرى يقول عن الملائكة : ﴿ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ (المعارج : ٤) .

ومعنى هذا أن أيام الله هي كما يشاء الله ، فإذا شاء أن يكون اليوم بألف سنة ، وإذا شاء يكون اليوم بخمسين ألف سنة ، فهو ليس خاضعاً لزمنه مثلنا .. وإنما هو يخلق زمنه .. وهذا شرح فلسفي رفيع لمعنى الأبدية ، أو زمن من لا زمن له[1] .

صواب القول :

والمعنى الذي قاله في فتح باب الأمل للتائبين قول من الأقوال التي جاءت في تفسير الآية ، ولكن عبارة (محو القدر المقدور) هي العبارة التي يجب أن يمحوها الكاتب ، فالقدر المقدور شيء نافذ لابد من الإيمان بنفاذه ، كما في الحديث ، « وأن تؤمن بالقدر خيره شره » .

في تفسير البيضاوي للآية قيل في المعنى :

١ ـ يمحو السيئات ويثبت الحسنات مكانها .

٢ ـ وقيل يمحو من كتاب الحفظة مالا يتعلق به جزاء ويترك غيره ثبتا . أو يثبت ما رآه وحده في صميم قلبه .

٣ ـ وقيل : يمحو (قرناً) أي جيلا من الناس .. ويثبت (آخر) .

٤ ـ وقيل « يمحو » الفاسدات « ويثبت » الكائنات .

وقرأ نافع وابن عامر وحمزة والكسائي ﴿ وَيُثَبِّتُ ﴾ بتشديد الباء ، وعنده ﴿ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾ ـ اللوح المحفوظ . إذ ما من كائن إلا وهو مكتوب فيه .

أقول : وحذف المفعول الذي يطلبه كل من الفعلين (يَمْحُو) و (يُثْبِت) يحتمل كلَّ الوجوه التي نقلتها عن البيضاوي ، ولا يحتمل ما قاله الكاتب من محو القدر . فالقدر لا يسمى قدراً إلا بعد وقوع القضاء الذي قضى الله به في علمه ..

(١) نفس المرجع ص ١٣٧ : ١٣٨ .

إنما الذى يتصور بعد وقوع ما قدره الله هو محو الآثار الناشئة عنه من سيئة ، أو إزالة للأثر الموجود ، وبموت الحى وهلاك المادى وهكذا .

كما لا تحتمل قولا آخر نقله البيضاوى ، وهو أن المحو والإثبات يراد بهما الناسخ والمنسوخ ، لأن النسخ والمنسوخ مظهر للتعارض أو التضاد فى نصوص الوحى .. والتعارض مظهر يدل على عدم صحة دعوى أن القرآن مصدره واحد وهو الله ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ (النساء : ٨٢)

وقد تضمن كتاب (النسخ فى الشريعة الإسلامية)[1] بيان بطلان دعوى النسخ فى كل آية قال مفسر إنها منسوخة .. حتى لم يعد مجال لذكر هذه القضية بعد ذلك .

● **يَوْماً عِندَ رَبِّكَ :**

وما ذكره الكاتب عن تفسير الزمن بالنسبة لله فهو جائز ومفهوم ، ولكنه ليس المعنى الذى تحتمله الآيات : فقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ يَوْماً عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ (الحج : ٤٧) ليست فى معرض أيام الآخرة ، ولكنها وردت فيما يحتمل أحد معنيين : أن الله يمهل بالعذاب العصاة مدة طويلة ، لو أحصيت بالأيام المعروفة لكان ـ ليمكن الحساب ـ أن يكون اليوم كالرمز الرياضى الدال على ألف سنة .. وفى الأدب الشعبى للعامية ، وهى متشعبة عن العربية : « يوم الحكومة بسنة » يعنى فى التأنى والصبر .. وسياق الآية يدل على هذا قال تعالى ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ ، وَإِنَّ يَوْماً عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ (الحج : ٤٧) .

فهو سبحانه صبور لا يعجل بالعقوبة .

والاحتمال الثانى : أن تكون بياناً لأمد العذاب وطول أيامه من حيث أن أيام الشدائد مستطالة .

وقال البيضاوى : إنه لا مانع من أن تكون الآية على الحقيقة ، بمعنى أن العذاب فى الآخرة يكون اليوم فيه ألف سنة مما تعدُّ من سنى الدنيا .

وهذه الأوجه الثلاثة قيلت فى آية المعارج : و ﴿ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ

---

(١) بقلم المؤلف ـ نشرته دار العروبة بمصر . وانظر أيضا للمؤلف : لا نسخ فى القرآن .. لماذا ؟ مكتبة وهبة بمصر .

سَنَةٍ ﴾ إذ هو يوم من أيام العذاب ﴿ سَأَلَ سَائِلٌ * بِعَذَابٍ وَاقِعٍ * لِّلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ * ﴾ الآيات

ولفظ (فى يوم) جارٌّ ومجرور متعلق : إما بالفعل « سأل »[1] ، أو باسم الفاعل .. « واقع »[2] .

وإذا علم أن الزمن ينشأ عن دورة كواكب فى الفلك .. وأن عالم الآخرة لا يخضع فيه مقياس الزمن لدورة فلكية معلومة لنا ، فإننا يمكن أن نتصور كيف يتحتم أن يكون اليوم ، وهو وحدة زمنية ، لن يكون له وجود حين لا تكون أسبابه ، وهو دوران الأرض حول نفسها أمام الشمس .

---

(١) والتقدير سأل فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ـ « سائل » .

(٢) والتقدير : بعذاب واقع فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة .

يوم القيامة *

● **ماهي القيامة :**

قال الكاتب[1] : « القيامة باختصار هي تجلي الله بذاته .. وفرق بين وجود الله وبين تجليه بذاته ، فبالتجلي بالذات يحدث القهر التام لكل شيء .. والفناء للصور المادية بأسرها ، فلا صورة بالمادة يمكن أن تقوم أمام ذات الله في توحده وكماله وتجليه ، الجبال تذوب ، وكل صنوف الحياة تصعق ، لا صوت ، لا حياة . لقد رفع الله الحجاب عن سبحات وجهه ﴿ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا ﴾[2] .

ويقول يوحنا اللاهوتي عن هذا النور « والمدينة لا تحتاج إلى الشمس ولا إلى القمر ليضيئا فيها ، لأن مجد الله قد أنارها » . رؤية يوحنا : ص ٢١ .

وهو النور الذي لم تحتمله المخلوقات أول الأمر ، فصعقت ، ثم بعثها ربها في نشأة أخرى ليكون الحساب ﴿ وَنُنشِئَكُمْ فِيمَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (الواقعة : ٦١) أي في صورة مغايرة لا نعلمها .. فالقيامة صورة مكبرة لما حدث لموسى حين تجلى له ربه ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا ، وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ﴾[3] .

أما تفسير القيامة بنظريات علمية عن اصطدام القمر بالأرض ، أو فناء الشمس ، أو تقلص الكون واحتراقه ، أو تمدده ، أو تشتته في الفضاء ، أو اصطدام المادة بالمادة المضادة ، فكل هذا فضول لا مبرر له ، فالإنسان يموت بأسباب وبدون أسباب .. وكذلك تموت الأمة ، وتموت الحضارة وتموت أجناس الحيوان بأسرها وتموت النجوم في أفلاكها .

أقول : وهذا اتجاه لا ينفر منه المؤمنون ، بل إيمان بالغيب كريم .

* القرآن : محاولة لفهم عصري للقرآن ص ١٤١ ــ ١٥٢ .

(١) الزمر : ٦٩ .

(٢) القرآن : محاولة لفهم عصري للقرآن ص ١٤٩ ــ ١٥١ .

(٣) الأعراف : ١٤٣ .

ولكن اختيار الكاتب لفظ [تجلِّي الله بذاته] ــ وهي كلمة لم ترد في الشرع بخصوص وصف القيامة ــ اختيار غير موفق فهو تدخُّل في معرفة كيفية وقوعها ، فما أنكره الكاتب على ذوي التفسير العلمي للقيامة وقع فيه بالتفسير الخيالي الذي لم يرد به نص إلا نص التوراة الذي اعتمد عليه ، والتوراة محرفة لا يمكن أن تصلح مصدراً للعقائد ولا غيرها ، وحسبنا ما صوره الله من صفاتها وأعراضها وما ورد من علاماتها .

● **علامات الساعة :**

لا يعلم أحد وقتها ، ولكن قد جاءت النصوص بعلامات اقترابها ، فمنها الدخان وظهور يأجوج ومأجوج واجتيازها السد ، وخروج الدابة من الأرض تكلم الناس ، وانشقاق القمر ، وأن تبلغ الأرض زينتها ، وقد وردت النصوص بذلك كله ولكن لنا مع الكاتب وقفات .

● **حول الدخان :**

قال الكاتب : قال تعالى : ﴿ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ * يَغْشَى النَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * رَّبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ * ﴾ (الدخان : ١٠ : ١٢)

وفي الإنجيل : رؤية يوحنا « الإصحاح : ٨ » (ففتح بئر الهاوية فصعد دخان من البئر كدخان أتون عظيم ، فأظلمت الشمس والجو من دخان البئر) ، وذكر يوحنا أنه يستمر خمسة أشهر فقال : « وفي تلك الأيام سيطلب الناس الموت ولا يجدونه ، ويرغبون أن يموتوا فيهرب الموت منهم »[1]

تعقيب :

وما قاله الكاتب : قول في الآية من عدة أقوال أخرى : إذ قال البيضاوي في يوم الدخان المبين :

١ ــ بأنه شدة مجاعة ، فإن الجائع يرى بينه وبين السماء كهيئة الدخان ، من ضعف بصره ، أو لأن الهواء يظلم عام القحط لقلة الأمطار وكثرة الغبار ، أو لأن العرب تسمي الشر الغالب دخاناً . وقد قحطوا حتى أكلوا جيف الكلاب وعظامها واستغاثوا بالنبي حين كان بمكة ، وإسناد الإتيان إلى السماء ﴿ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ ﴾ لأن ذلك بكفها عن الأمطار .

(١) المرجع السابق ص ١٤١ ــ ١٤٢ .

٢ ـ أو يوم ظهور الدخان المعدود من أشراط الساعة ، لما روى أنه عليه السلام قال : « أول الآيات الدخان ، ونزول عيسى ، ونار تخرج من قعر عدن أبين ، تسوق الناس إلى المحشر . قيل وما الدخان ؟ فتلا رسول الله ﷺ الآية ، وقال : « يملأ ما بين المشرق والمغرب يمكث أربعين يوماً وليلة . أما المؤمن فيصيبه كهيئة الزكام ، وأما الكافر فهو كالسكران يخرج من منخريه وأذنيه ودبره » .

٣ ـ أو يوم القيامة . أى انتظر يوم القيامة .

والقول الأول يرجحه قوله تعالى : ﴿ إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلاً ﴾ (الدخان : ١٤) ـ فقد كشف الله عن قريش حين استجارت بالنبى فاستسق لها .. وكذا قوله تعالى بعدها توضيحاً لذلك اليوم : ﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴾ (الدخان : ١٥) وكان ذلك يوم بدر ..

والقائلون بأنه يوم القيامة قالوا : هى البطشة يوم القيامة ولكن يمنع من ذلك أنه سبحانه وتعالى قال ﴿ إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴾ أى بعد كشف العذاب إلى الكفر ، والعودة لا تكون بعد الموت .. ولكنها قبل الموت ، وهو ماحدث فى مكة بعد استسقاء النبى لها ، أو مايحدث قبيل قيام الساعة .. وقد رجحنا القول الأول لما ذكرناه .

ورؤية يوحنا لعلها تبشر بالنبى ، فتحكى قصة الدخان الذى جاء قريشا بمكة بسبب القحط .. كما أن الرؤية تحتمل أن يكون الدخان علامة لقرب قيام الساعة ..

أما الخلاف فى المدة : فالحديث أصدق ، لأن له سنداً ، والسند ولو كان ضعيفاً ـ خيرٌ من الإنجيل الذى لا سند له .

● حول يأجوج ومأجوج :

قال الكاتب : يشير القرآن إلى أن يأجوج هم الجنس الأصفر ، (الصين وماق دوريها) عاشوا فى آجال وأحقاب من الجهالة والتخلف ، والشعوب المتقدمة من حولهم تبنى أسواراً من العلم والتصنيع ، وذو القرنين وصُهْر الحديد والنحاس ، كلها رموز للعلم والصناعة التى كانت دائما تحجزهم وراء حاجز من الجهل والتخلف ، وتقيم حولهم سداً .. حتى إذا جاء اليوم الموعود ، ونقضوا عن أنفسهم هذا التخلف وأخذوا بأسباب الصناعة ، وصنعوا الحديد والصلب والقنبلة الهيدروجينية وتكاثروا إلى آلاف الملايين وهدموا السد (رمز الجهل الذى يعزلهم عن العالم) ساحوا فى الأرض وكانت الحرب التى تصنع ختام الحياة ، كما فى سفر الرؤيا الإصحاح العشرين :

(متى تمت الألف سنة يحل الشيطان من سجنه ويخرج ليضل الأمم الذين فى أربع زوايا الأرض ، يأجوج ومأجوج ليجمعهم للحرب ، عددهم مثل رمل البحر (ولعل الألف هى الألف الثانية التى بقى على نهايتها ثلاثون عاماً) [1]

تعقيب :

وهذا الذى استهوى الكاتب عقب عليه بقوله : إنها تتداعى الواحدة لتؤيد الأخرى ، ولا نملك إلا الصمت ، فمثل هذه التأويلات لا يحق لنا أن نؤولها ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللهُ ﴾ ، والساعة لا يعلمها إلا الله ..

وهذا اتجاه قويم من الكاتب ضلَّ عنه الكثيرون بالرغم من أن قوله ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللهُ ﴾ ليس فى موضوع يوم القيامة ، وإنما هو فى شأن المتشابه من القرآن . ولكن ينفى الرمزية التى رواها أن القرآن ذكر القصة وليس فيها إشارات تدل على أن الألفاظ خارجة عن حقيقتها إلى المجاز .

بل كثرة التفاصيل فى الماديات يؤكد أن المقصد هو الدلالة الحقيقية ، وليست المجازية أو الرمزية قال تعالى : ﴿ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوماً لاَ يَكَادُونَ يفقهُونَ قَوْلاً * قَالُوا يَاذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً (أجرا) عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدّاً * قَالَ مَا مَكَّنِّى (جعلنى) فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْماً * (حاجزا) . آتُونِى زُبَرَ الْحَدِيدِ . (كتل الحديد الكبيرة) حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ (جانبى الجبل) قَالَ انْفُخُوا ، حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَاراً قَالَ : آتُونِى أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً ، (نحاس مذاب) فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْباً * قَالَ : هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّى . فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقّاً * وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ ، وَنُفِخَ فِى الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعاً ﴾ (الكهف : ٩٣ ـ ٩٩) .

وقد يقال كيف يمكن الاقتراب من هذه الكتل النارية الملتهبة فى بناء السد ؟ ! أكانت هناك نهضة علمية تتحكم فى الحرارة بالعلم كما تفعل فى العصر الحديث ، ثم بادت كما بادت حضارة المصريين القدماء بعلمهم الواسع فى التحنيط والكيمياء .. أم دخلت المعجزة فى ذلك ؟ !

---

(١) نفس المرجع ص ١٤٤ ـ ١٤٥ .

وفضلا عن ذلك فلا يزال سد الصين العظيم أثرا سياحيا يُزار ، وكذا سد باب الأبواب ، وهو يدل على أن السد حقيقة مادية لبناء ضخم كما قال بعض المفسرين ..
وإسكندر ذو القرنين حقيقة لا يختلف فى وجودها إن اختلف فى تعيين شخصه من بين أشخاص يحملون اسم أو وصف ذى قرنين .

ويقال : إن يأجوج ومأجوج هم المغول والتتار ، الذين زحفوا على البلاد الإسلامية بقيادة جنكيز خان من الشمال الشرق لآسيا مجتازين نهر سيجون ﴿ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ﴾ (الأنبياء : ٩٦) والحدب المرتفع من الأرض وينسلون يسرعون الخطو .

وكان أول غزو لهم غزو بخارى فى ٤ ذى الحجة سنة ٦١٦ هـ ثم اتجهوا إلى سمرقند ، فدخلوها فى المحرم عام ٦١٧ هـ ناهبين ومخربين ، ثم عبروا جيحون إلى نيسابور ، ثم اتجهوا نحو الرى فنهبوها ، ثم دخلوا همذان ثم قزوين وقتلوا من أهلها أربعين ألفاً ، ثم اتجهوا نحو أذربيجان ثم تبريز . وفى سنة ٦١٨ هـ دخلوا مراغة فقتلوا أكثر أهلها ونهبوا ديارها ، وبذلك تمت السيطرة على ملك فارس .

ولما توفى جنكيز خان سنة ٦٢٤ هـ كانت بغداد بعيدة عن شر القوم ، فلما تولى المستعصم بالله الخلافة عام ٦٤٠ هـ دخل هولاكو ـ حفيد جنكيز خان ـ البلاد ، وقتل المستعصم آخر خلفاء العباسيين ، وأباد الكتب فأغرقها فى دجلة ثم وجه جنوده للشام ، ولكن قطز زحف مع بيبرس إلى هناك وعمل على إبادتهم فكان له ذلك عليهم فى عين جالوت ، وهؤلاء هم يأجوج ومأجوج ـ كما قال طنطاوى جوهرى ـ يعبرون الجبال والهضاب بعيدا عن السد الحديدى الذى وعد الله بزواله مع الجبال يوم القيامة .

أما متى ذلك ؟ فإن النبى قال حين استيقظ من نومه « ويل للعرب من شر قد اقترب ، قد فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه » وحلق بأصبعه حلقة صغيرة

وروى عن ابن كثير أنه قال : هذه إشارة إلى فتح باب الشر والفتن التى كان أول بواكيرها قتل عمر ، ثم فتح بابها الأكبر بغارة التتار ، فهذه استعارة . وليس فتح الروم الذى بناه الاسكندر (وقرىء) ﴿ وَهُمْ مِنْ كُلِّ جَدَثٍ يَنْسِلُونَ ﴾ (الأنبياء : ٩٦) والجدث القبر ، فهى جملة مستأنفة والضمير « هم » يعود على الناس عامة .

● **كيف تأتى الساعة ؟ .**

قال تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ

عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً ، فجعلناها حصيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ ﴾ (يونس : ٢٤) وفى الآية الأخرى : ﴿ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ﴾ (النحل : ٧٧) ، فكيف تأتى فى لحظة واحدة والله يقول ﴿ لَيْلاً أَوْ نَهَاراً ﴾ ؟ أجاب الكاتب قائلاً[1] : لا تفسير لذلك إلا أن تكون الأرض كروية دوّارة نصفها ليل ونصفها نهار ، ففى اللحظة التى تقوم فيها القيامة تقع على من فى الجانب الذى يكون به النهار والجانب الذى يكون به الليل مرة واحدة وهذا هو صدق التعبير إعجاز القرآن فى دقة البيان من ناحية ، وفى الإشارة إلى حقيقة علمية وهى كروية الأرض ودورانها من جهة أخرى .

فلو قال « بياتاً » فقط أو « نهاراً » فقط لم يكن صادق العبارة .. تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

ومثل هذه الإشارة العلمية فى الآية قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتاً أَوْ نَهَاراً مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ (يونس : ٥٠) وحين تأتى يقع التجلى فيكون الدمار لكل شىء .. كما ذكرنا فى مفتتح هذه الحلقة .

وهذه دقيقة لطيفة من الكاتب بعدها يكون البعث فى صورة أخرى للناس والحياة ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ (إبراهيم : ٤٨) ـ وهذا البروز أو القيام هو سبب التسمية لذلك اليوم أو هذا الطور بالقيامة .

وفى إنجيل يوحنا اللاهوتى : (ثم رأيت سماء جديدة ، وأرضا جديدة ، لأن السماء الأولى والأرض الأولى مضتا والبحر لا يوجد فيما بعد لأننا كلنا نقوم للقيوم فى انكسار) ، ﴿ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ (غافر : ١٦) .

● **مآخذ بنت الشاطىء :**

أخذت على الكاتب استشهاده على دك الجبال يوم القيامة بالآية ﴿ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا

(١) المرجع السابق ص ١٤٦ ـ ١٤٧ .

يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ ﴾ [1] وذلك أن سياق الآية إنما هو فى قوم موسى عليه السلام [2] . ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً . وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ . وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ ﴾ (البقرة : ٧٤)

وما قالته حق .

* * *

(١) القرآن : محاولة لفهم عصرى للقرآن ص ١٤٩ .

(٢) القرآن والتفسير العصرى ص ١٥٣ : ١٥٤ سلسلة اقرأ .

البعث *

يقول الكاتب : « فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ (الزمر : ٣٠) ولا يقول : إنك ستموت ، بل يقول « إنك ميت » . إذ تحيا بى وتسمع بى وترى وتنطق بى ، وهكذا شأن كل بشرى لا حياة له بذاته ، وإنما الكل معتمد فى وجوده على الواحد الذى خلق » .

تعقيب :

فهل يعنى الكاتب بالاعتماد ـ استناد المعلول إلى علته فى وجوده ، كما يقول الكفرة من الفلاسفة ؟ وهذا جهل لأنه يقتضى بقاء المعلول ببقاء العلة أو فناءه بفناء العلة ـ وهى الله الخالق وهذا محال .

لا أظن قوله إلا خيال واعظ أديب ، فهو ليس لغة علمية ولا إسلامية . حقاً .. الإنسان فى حياته مقترن بها الله ، ولكن الله الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، ونفخ فيه من روحه فأصبحت له حياة ذاتية . بالروح التى فيه فإذا شاء أن يتوفاه قبض روحه وانتزعها من جسمه ففارق الحياة ومات .

● **العلة فى اختيار لفظ « ميّت »**

قال الكاتب : [1] « فى كلمة ـ إنك ميت ـ عنفٌ يوقظ الإحساس .. إنها تضعك أمام واقع مفزع ، وأمام حالة فى الحاضر لا حالة متوقعة فى المستقبل .. إن الواحد منا ليحمل جثته على كتفيه بالفعل ، وفى كل قطرة عرق أو لعابٍ يطرح بُضعةً ماتت من جسده » .

وما قاله الكاتب هو الظلال التى تجعل اختيار اللفظة من الجودة البلاغية بمكان عظيم . ولكنه كلام غير علمى ؛ لأن كلمة « مَيِّتٌ » بتشديد الياء تأتى للدلالة على من

* القرآن : محاولة لفهم عصرى للقرآن ص ١٥٣ .

(١) نفس المرجع ص ١٥٣ .

سيأتيه الموت ، أما من فارق الحياة فعلا فيطلق عليه لفظ « مَيْتٌ » بسكون الياء كما قال الشاعر العربى :

ليس من مات فاستراح بميْت ... إنما الميْت ميّت الأحياء

وقرىء ﴿ إِنَّكَ مَائِتٌ وَإِنَّهُمْ مَائِتُونَ ﴾ بصيغة اسم الفاعل الدالة على الاستقبال أو المضارعة ، والمضارعة قد تتمحّض للاستقبال لقرينة الحال أو قرينة فى المقال ، وهى هنا قرينة الحال ، لأن النبى ومن معه كانوا موجودين عند الخطاب دون موت فلزم أن يكون المراد هو الفعل فى المستقبل .

● **صورة البعث :**

صور الله هذا فى قوله : ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ (الزمر : ٤٢) ـ فالنوم ثم اليقظة هو النموذج المصغر للموت ثم البعث .. فالروح باقية خالدة فلما أعادها الله إلى الجسم الخامد بالنوم ـ كالثور الخامد ـ صحا فجأة كأنه نيرون ـ أو هتلر ـ أو ـ كاليجولا ، وإن الفرق لهائل أكبر من أن يُفسَّر بتغيير مادى يتم فى لحظات »[1].

● **منكرو الروح :**

ينكر الماديون البعث ، لأنهم لا يؤمنون بوجود الروح فضلاً عن خلودها ، ويقولون : « الإنسان ليس إلا الجسد ومجموعة ردود أفعال أو حوافز كحافز الجوع والجنس والخوف تحركه لإشباعها . فإذا مات أصبح تراباً . وعاد إلى الأصل الذى منه نشأ »[2].

والجواب :

١ ـ أنه لو كانت النفس أو الروح المحركة للجسم هى الحوافز لما رأينا الآلاف من الناس يضحّون بلقمة العيش ويسكنهم الزوجى فى سبيل المثل العليا التى يؤمنون بها . والشواهد معروفة .

(١) القرآن : محاولة لفهم عصرى للقرآن ص ١٦٢ .

(٢) المرجع السابق ص ١٥٩ .

٢ ـ وإذا كان المرء هو الجسد فكيف يتحكم الجسد فى الجسد ويخضعه ؟ وإذا كانت النفس هى دافع الجوع أو الشهوة فكيف تخضع غريزة الجوع الجوعَ . وتسيطر الشهوة على الشهوة ؟ إنه لا يمكن تصور ذلك إلا بأن يكون المسيطر على الجسم أو الجوع أو الشهوة شيىء داخل الإنسان غير كل هذه الأشياء المحكومة . يسود عليها ويسيطر ، وهو الذى نسميه الروح[1].

٣ ـ إن الحركة لا يمكن رصدها إلا من خارجها فراكب القطار أو المصعد لا يدرك أحدهما أنه يتحرك وهو فى داخل القطار أو المصعد إذا أغلق عليه ولا يدرك حركتها ، وإنما يستطيع إدراك ذلك لو نظر من نافذة .. ونحن ندرك أشياء . وهذا الإدراك إثبات أكيد بأن هناك شيئين : الشىء المدرك . والنفس المدركة خارجه[2] . فالذى يدرك فى نفس جوعها وجهلها وألمها وحاجتها للجنس والأمن وطولها وعرضها .. هو الروح التى تسيطر على الجسم فتديره متعلقة به ومهيمنة عليه وقادرة على الانبعاث عنه .. ولكن كيف هى وما كنهها ؟ ذلك هو السر الذى يعجز عنه البشر .

٤ ـ الله خالق الإنسان ومسخر الكون له : لا يمكن أن تكون نهاية عباده الموت فلابد من البعث والجزاء وتحقيق العدل . ﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾[3] (القيامة : ٣٦)

٥ ـ وأضيف إلى ما قاله أن الطبيب الأمريكى [دنكاف مكدوجل] يقول : أنه وزن عدداً من المرضى فى لحظات موتهم ، وذلك بأن يضع المريض على سرير حاسب ـ غاية فى الدقة والحساسية ، ومنعزل عن المؤثرات الخارجية ، فوجد أنه عند لحظة الوفاة ـ يرتفع قبّ الميزان ، طارقاً الدعامة العلوية ويسجل فور حدوث الوفاة بمقدار ما فقده الجسم ، فوجده يتراوح بين ٥٠٠ ، ٦٠٠ جرام وليس هنالك تفسير لهذا غير أن الجسم خف وزنه بعد خروج شيء منه هو ما نسميه الروح .

ويقول علماء الطبيعة : الكائن البشرى مكون من جسمين مختلفين فى طبيعة تكوينها ، ومتداخلين فى الوقت ذاته فى بعضهما ومغايرة هذين الجسمين لبعضهما نابعة من اختلاف تردد الذبذبات الاهتزازية فى الثانية الواحدة لكليهما .

(١) نفس المرجع ص ١٦١ .

(٢) نفس المرجع ص ١٦٥ .

(٣) القيامة ٣٦ .

ويؤكد العلماء أن التردد الذبذبي الاهتزازي للجسم الروحي هو أضعاف ماهو عليه الحال بالنسبة للتردد الذبذبي الاهتزازي للجسم المادي .

ويفسر بعض العلماء عدم مقدرتنا على رؤية هذا الجسم الروحي ـ بتردده العالي الخارج عن طاقة إدراكنا الطبيعية ، وعلى سرعته الهائلة التي ينطلق بها ، حيث قدرها العلماء بسرعة الضوء (٣٠٠,٠٠٠) كيلو متراً في الثانية الواحدة . ومن هنا كانت حياة الإنسان متوقفة على علاقة هذين الجاريين المؤقتة ـ والموت ماهو إلا مفارقة النفس أو الروح للجسد لتعيش في عالم البرزخ ﴿ ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون ﴾ . وهناك يكون لقاء الأرواح وتعارفها .

عن يحيى بن عبد الرحمن عن جده قال : لما مات بشر بن البراء وجدت عليه أم بشر وجداً شديداً وقالت : يارسول الله إنه لايزال الهالك يهلك من بني سلمة ، فهل يتعارف الموتى فأرسل إلى بشر بالسلام ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : نعم . والذي نفسي بيده ياأم بشر إنهم ليتعارفون كما تتعارف الطير في رءوس الشجر[١] .

● **ويسألونك عن الروح :**

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ : قُلِ الرُّوحُ مِن أَمْرِ رَبِّي ، وما أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلا قَلِيلاً ﴾ (الإسراء : ٨٥) .

استشهد الكاتب وغيره من المفسرين القدماء والمحدثين بهذه الآية[٢] على أن الروح سر مجهول لا يعلمه إلا الله . وروت كتب أسباب النزول ما يزكّي هذا الذي زعموه . بينما هناك قرائن تدل على أن المراد بالروح في الآية إنما هو القرآن والوحي ، كما في الآية الأخرى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا ، مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلاَ الإِيمَانُ ، وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ (الشورى : ٥٢) .

● **كمال القرآن :**

قال الكاتب : لا يحفل القرآن بالأمور الوقتية المتغيرة ، ويتركها لأصحابها يجتهدون فيها[٣] . وهي عبارة تتردد كثيراً تخالف الحق ، ومطعن خفيٌّ في القرآن .

لقد وضع القرآن الأصول العامة التي توفر لكل أمر من الأمور في أي وقت من

(١) حاتم محمد عبد القادر الأهرام ـ الجمعة ٢٦ فبراير سنة ١٩٧٩ .

(٢) محاولة لفهم عصري للقرآن ص ١٦٩ .

(٣) المرجع السابق ص ١٥٨ .

الأوقات الحل المناسب ، والإطار اللائق ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّاً ﴾ (مريم : ٦٤) .

﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ ، وَهُدىً وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ (النحل : آية ٨٩) .

* * *

فى كتاب « لغز الموت »

لقد بسط الكاتب الحديث عن الموت والبعث والزمن والحساب والقضاء والقدر فى كتابه « لغز الموت » :

وأرى – فائدة للقراء – أن ألخص فكرته فى الكتاب ثم أعود إليها مرة أخرى بالتعقيب على ما أرى أن فيه إضافة إلى ما سبق ذكره . و « لغز الموت » هو فى الأصل بسط لما كتبه « ول ديورانت » تحت عنوان « الموت » فى كتابه « مباهج الفلسفة »[1] .

أما الأفكار التى ذكرها فى الموضوعات الأخرى فقد استوحى الكثير منها من كتاب « فلسفة من الصين » للفيلسوف الصينى « لين بوتانغ » ، وبخاصة ما ذكره بعنوان (فى كوننا ذو معدة) ص : ٥٦ – الترجمة العربية طبعة ١٩٥٣ » وليس فى كتاب « الله والإنسان » أية إشارة إلى أحد الكتابين »[2]

١ – فى الفصل الأول : قال :

يحدث الموت فى داخلنا كل لحظة حتى ونحن أحياء ، كل نقطة لعاب . وكل دمعة وكل قطرة عرق فيها خلايا ميتة نشيعها إلى الخارج بدون احتفال . ص ٥ « حتى الأفكار تولد وتورق وتزهر فى رؤسنا ، ثم تذبل وتسقط .. حتى العواطف تشتعل وتتوهج فى قلوبنا ثم تبرد .. إننا – معنويا – نموت ، وماديا نموت ، وأدبيا نموت فى كل لحظة » ص ٦ .

ولماذا نرتجف من الرعب حين نفكر فى الموت ؟

« السبب أنه الحادث الوحيد المصحوب برؤية مباشرة . فما يحدث داخلنا من موت لا نراه » ص : ١٠ .

أما (أنا) هذه الـ « أنا » لا توجد سابقة واحدة عن موتها . « أنا » من مادة أخرى غير كل هذه الموضوعات . ولهذا أمسك بها وأتناولها وأفهمها ، ولا أستطيع أن أمسك

(١) الله والعقل ص : ١٩٧ .

(٢) الجزء الثانى ص ٣٠٣ ترجمة أحمد فؤاد الأهوانى . ط ١ ١٩٥٦ .

بنفسى وأتناولها . « أنا » فوق متناول الجميع . وفوق متناولى أنا أيضا ، وفوق متناول القوانين والظواهر ، هناك حلقة مفقودة وهى تفتح بابا تدخل منه الفلسفة ، ويتسلل منه الفكر ولكنه باب ضيق جداً يؤدى إلى سراديب أغلبها مغلق ... ورحلة الفكر فى هذه السراديب مخيفة مزعجة ولكنها تثير الاهتمام وأى شىء يبعث الاهتمام أكثر من الحياة والمصير ... ومن أين .. وإلى أين ... وكيف ؟

٢ – وفى الفصل الثانى :

فسر الكاتب حكمة الموت بالنظرية الفلسفية المشهورة القائلة : البقاء للأصلح ، وبالنظرية الشيوعية التى تقول بوجود تناقضات تؤدى إلى هدم القوىّ للضعيف حتى يظل الوجود فى أقوى وأصلح وأفضل صورة ..

ثم فسر الحب فقال : (نحن نعيش فى مأساتنا الشخصية ، ونرى الموت كفجوة تفغر[1] فاها تحت أقدامنا ، فنتشبث بأى شىء نجده حولنا : نتشبث بأمهاتنا وبزوجاتنا ، بأطفالنا .. بأصدقائنا .. نشعر بالحب والشوق والحنين إلى يد نمسك بها ونحتمى من الجرف[2] الذى ينهار تحتنا ، ونبصر بالمرأة تمد لنا يديها وقلبها وجسدها .. وتتراقص مثل كوبرى عائم على نهر الفناء فنهرع إليها محاولين النجاة ، ونشعر بجنون اللذة والسرور والفرح ونحن بين ذراعيها نشعر بأننا نولد من جديد ونبعث ونهرب من المصير .. « إن الحب كله قصة جميلة مؤلفها هو الموت نفسه ، وليس الحب فقط ، بل كل العواطف والنزوات والمخاوف والآمال وشطحات الخيال والفكرة والفن والأخلاق .. كل هذه القيم العظيمة تدين للموت بوجودها ..

« فالفنان يحاول أن يجد سبيلاً إلى الخلود . يحاول أن يترك مولودا غير شرعى على الباب يخلد اسمه أو تمثال أو قصة قصيرة . ص : ٢٣ » .

« لو لم تكن نموت لما شعرنا بالحب فما الحب إلا هستيريا التشبث والتعلق بالحياة ومحاولة تهريبها – كالمخدرات – فى بطون الأمهات »

« لا يوجد شىء فى وجودى أو وجودك أغلى من هذه الكلمة الصغيرة « أنا » ص : ٢٤ »

(١) تفغر فاها : تفتح فمها .

(٢) المكان الذى أكل الماء ما تحته فهو إلى السقوط قريب .

٣ ـ وفى الفصل الثالث :
تحدث عن « أنا » فقال :

« أنا » من الخارج لى حدود : ينتهى طولى عند « ١٧٠ » سنتيمتراً ، لى سقف ينتهى جسدى عنده ، ولكن من الداخل بلا سقف وبلا قعر (أعماق) وأفكار وأحاسيس ورغبات لا تنتهى إلا لتبدأ من جديد ، كأنها متصلة بينبوع لا نهائى ـ وهى أعماق فى تغير دائم. بعضها يطفو على السطح فيكوِّن شخصيتى وبعضها ينتظر دوره فى الظلام ». (ص : ٣٦)

وكأن الكاتب ـ بما يقوله ينزع منزع علماء النفس القائلين بأن اللا شعور والشعور ينسكبان فى بؤرة للنفس هى الدوافع للسلوك الذى يبرز شخصية الإنسان ولكن هذا السلوك تقيده البيئة والعادات والحاجات الشخصية .. ذلك « الأنا » هو الروح داخل ذاتنا ، والروح إرادة لا نهائية لا حدَّ لها إلا نفسها أحس بها ولا أعرفها .. أكابدها ولا أفهمها ، وربما كان السبب أنها أصيلة أكثر أصالة من العقل والتفكير ولا يمكن أن تكون موضوعاً للعقل والتفكير بل العقل موضوعها وخادمها وسبيلها إلى بلوغ أهدافها .. أنا أريد والعقل يبرر لى ما أريد وليس العكس أبدا . « ص : ٣٦ » ولكن ماهى الإرادة ؟ « أنا » كالشوق لا يوصف ، وإنما يكابد ، إنها تنطبق عليها كلمة المتصوف الصالح أبى البركات البغدادى « أظهر من كل ظاهر وأخفى من كل خفى » ولكن هل الإرادة موجودة فى الزمان ؟ وهل تنبض مثل القلب ، وهل تنمو مثل الجسد ، وهل تتعاقب مثل اللحظات . وتنقضى مثل الحالات النفسية ؟ ثم ماهو الزمان ؟

وفى الفصل الرابع : قال : ـ

قال إنشتين : المادة فى حالة انتشار وفى ذبذبة وحركة ، ولهذا فإن لها بُعداً رابعاً هو الزمن ، أو الزمن الملتصق بالكان ، ويسميه « الزمكان » .. المادة مثل حيوان له طول وعرض وسمك وعمر ، والعمر يدخل فى تركيبها كما يدخل فى تركيب الحيوان .

الزمن إحدى الفتلات التى يتألف منها نسيج المادة ، وهو أيضاً إحدى الفتلات التى يتألف منها نسيج الكائن الحى .. (ص : ٣٦) ولكن ماهو الزمن ؟

٥ ـ وفى الفصل الخامس : أجاب عن الزمن ما هو فقال :

إنه ليست دقات ساعة الحائط بمقدمة لك إلا زمنا مزيفاً ، وعواطفنا واهتماماتنا هى

الساعة الحقيقية التى تضبط الزمن وتطيله أو تقصره .. أفراحنا تجعل ساعتنا لحظات .. وآلامنا تجعل لحظاتنا طويلة مريرة ثقيلة مثل السنين « ص ٣٨ » ـ فالزمن فى داخلنا تدفق يتصف بالدوام والاستمرار والاتصال . (ص : ٤٢)

وتحكمنا التقاليد والعرف ، فإذا بنا نقيس الزمن بالساعة وبشروق وبغروب الشمس . فنحن لنا ذات داخلية ، وذات جامدة خارجية تحكمها الغرائز والضرورات الاجتماعية ، والخارجية ، تشبه المرحاض النفسانى نفرز فيه كسلنا وضيقنا ومللنا ونقتل فيه وقتنا بانشغالات رخيصة مثل قرقزة اللب ولعب الطاولة » (ص : ٤٤)

٦ ـ وفى الفصل السادس : تحدث عن الحب وأنه غير الشهوة. فقال :

إن الحب لا يفجره فى القلب إلا التصوف والشعور الدينى ، لأن الدين هو الذى يعيد الإنسان إلى النبع الذى صدر منه ، ويأخذ الإنسان الساقط فى الزمان والمكان ليرفعه إلى سماوات الأبدية ، ولا يرقى إلى هذه السماوات إلا الحب ، منتهى الحب الذى يفنى العابد عن نفسه وعن الدنيا شوقاً إلى خالقه .

وما حُبُّ الإنسان للمرأة أو الفن أو الجمال إلا خطوات الدليل الخفى الذى يقودنا إلى الله المحبوب الوحيد الذى يستحق الحب ، حين نكتشف أن موضوعات الحب للمرأة والجمال والفن لا تملك لها وجوداً حقيقياً ، فالوردة تذبل ، والشمس تغرب ، والمرأة تشيخ ، والجديد فى الفن يبلى » (ص : ٥٤) .

٧ ـ وفى الفصل السابع والثامن :

تناول موضوع الإنسان اهو مسير أم مخير وذكر مشكلة القضاء والقدر وردد المعانى التى نشرها[1] وخلاصتها أن للمرء إرادة فى داخله تضغط عليها ظروف البيئة وحاجات الجسد وطاقاته ، وعليه لكى يسلم ألا يقاوم التيار ، بل يجارى السنن الطبيعية للكون . فيريح يستريح .

* * *

(١) القرآن : محاولة لتفسير عصرى. ص ٩٠ الطبعة الأولى.

« مناقشة الكاتب »

١ ـ إن تفسير الكاتب للموت فى صورة (علمية) بأنه أمر طبيعى فيحدث فى داخلنا كل لحظة عملية موت للخلايا ، وتنتهى بموت كل الجسم .. تفسير ليس علميا) ، لأن الخلايا التى تموت ليست إلا أشبه ما تكون بإفرازات الجسم التى يتخلى عنها الجسم فيغدو أقوى وأصح .. بخروجها ، فهى عملية حياة لا موت إذن ، ويبقى الموت مظهراً للعجز البشرى وللقدرة الإلهية المتفردة بالهيمنة على الإنسان والكون معاً . بصنعه سبحانه بأسباب نتوقعها ، أو بأسباب لم يكن يتوقعها الإنسان .

ولو كان الأمر كما قال الكاتب ، لأمكن تحديد الآجال بعد كشف دقيق على أجهزة الجسم ، وبعد تحليله تحليلاً كاملاً .. وهذا من المستحيلات ﴿ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ (آخر لقمان) .

٢ ـ وأما ما ذكره فى الفصل الثانى من نظرية « البقاء للأصلح » فهو تبرير لمشروعية الاصطراع بين القوى والضعيف ، وتبرير لصرع الأقوى للضعيف .. وهو مالا يقره العلم . فالحياة الفاضلة والمستقيمة تتطلب كل لبنة فى الوجود فلا يعرف مقياس مضبوط للضعيف الذى يجب التخلص منه ، ولا للقوى التى يجب أن يفسح أمامها الطريق . فقد يكون المرء ضعيف البنية عبقرى الذهن . وعبقرى واحد فى أمة أجدى عليها من ملايين الثيران .

إن قصة الحياة والموت فى غايتها العمرانية ليست إلا كما قال القرآن ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ (الملك : ٢) .

٣ ـ إنها للتناقس المتعارف ، لا للصراع المتحارب ، والأول فيه عمران ورفاهية .. والأخير فيه دمار وفناء .

ثم إن تصوير الكاتب للحب بأنه « دافع الهرب من الموت والتشبث بالحياة : فيستعين المرء بالمرأة يحبها ، أو بأطفاله يحبهم ، لأنه يستعين بهم على البقاء ، وفيهم يدفن

مخاوفه » .. تصوير غير علمى ؟ بدليل أن المرء يخرج لملاقاة الأهوال والموت ، من أجل حماية امرأته وأطفاله .

ونحن لا ننسى أننا فى عام ١٩٦٤ م شاهدنا المصرية تنازلت عن كليتها لابنتها كى تخلصها من الآلام التى تعانيها ومن الموت الذى يرتقبها ، فكرّمتها الدولة بمنحها لقب الأم المثالية وغيرها كثير .

وما الإيثار الذى ذكره القرآن ، وروى التاريخ الإسلامى له صوراً حية كثيرة ، إلا الدليل على أن المرء لا يحكمه فى مسيرته الموت الذى نسب إليه الكاتب عمليات الحب والزواج والفن الرفيع يخلد به اسمه .

ولا تدرى لماذا يضطرب فى حديثه عن الحب والفن فيسمى الحب « هستريا » والعمل المبدع « مولودا غير شرعى » فى الفصل الثانى ثم يجعلها فى الفصل الثالث غاية مايصل إليه المتدين » .

٤ ـ ثم تحدث فى الفصل الثالث عن الشعور بالذات أو « الأنا » وجعل العقل والقلب خادمين لما سماه « أنا » الذى له الإرادة التى يعمل فى خدمتها العقل والقلب . وهو حديث خيالى لأنه حديث عن الأمر المجهول للبشر الذى نحس به ولا نستطيع معرفة كنهه ، وما دمنا لا نعرف كنهه فمن العبث أن نقول إن العقل والقلب مسخران له . ولماذا لا يكون ما يسميه « أنا » كيانا ، وأجزاؤه العقل والقلب والجوارح والأعصاب اللمفاوية والسمبتاوية ، أو أن « الأنا » هو التعبير ، أو النتيجة لكل هذه العناصر مجتمعة فى صورة حية ، فليس هنالك خادم ولا مخدوم كما زعم الكاتب .

٥ ـ وما ذكره إنشتين من غريب الحَوْلَى للكاتب إنما هو ترداد لما لم يقم على صحته دليل بين ، فإن الزمن عنصر ـ كالمكان ـ ينمو فيها الموجود ، وتتشكل المادة . هذا معروف بالمشاهدة .

٦ ـ وتفسير الكاتب للزمن تفسير غريب . فما سماه [ذاتاً خارجية] هى كالمرحاض تضبع فيه الامنا ، [ذاتا داخلية] فيها تدفق الزمن قديمه وحاضره ومستقبله خيال لا صلة له بالحقيقة ، وهو سرقة شعرية أو كالسرقة الشعرية من قول الشاعر فى صفة المكان :

لعمرك ما ضاقت بلاد بأهلها
ولكن أخلاق الرجال تضيق

فهل نقول بمقتضى منطق الكاتب ـ إن للمرء مكانا خارجياً يضيق بالآلام ، ومكانا آخر يتسع بالآمال نسميه أيضا ذاتاً داخلية ؟

إن حقيقة الأمر أن ما سماه تدفقاً إنما هو عمل الروح أو العقل ، فى تصور قياسيٍّ به تدرك صورة ما ، فى وقت مضى أو سيأتى ، فالإنسان بذاته واحد لا ينقسم إلى داخل وخارج ، والزمن هو الزمن ، فإسقاط آلامنا عليه عبث .

نعيب زماننا والعيب فينا
وما لزماننا عيب سوانا

الفصل السابع

الجنة والجحيم

- فكرة الكاتب
- بطلان دعوى الكاتب
- رجعية الفكرة ـ جواب القرآن ـ الجهل بالمثل .
- أساليب التوكيد للجزاء المادى .
- فكرة « الناس مقامات »
- الصَّغار والندم والغيرة
- ما حكم تأويل النعيم والعذاب ؟
- عودة إلى جنة آدم .
- أدلة الكاتب على عدم وجود نار وجنة حسِّيين .
- ١ ـ حوار الكفار وبطلان الشبهة
- ٢ ـ الذى يخوف الله به عباده .
- وفى الحساب .
- المغزى العلمى فى الآية ﴿كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً﴾
- الذكر والصلاة ـ وجه المغالطة
- حديث الذر ـ إشكال على الكاتب
- توبة الكاتب .

« الجنة والجحيم »[1] *

● فكرة الكاتب :

قال الكاتب : وكل ما جاء في الجنة والجحيم ألوان من ضرب المثال وألوان من التقريب ، وألوان من الرمز ، وقد ذكر الكاتب أنها أمثال في بدء الآية ﴿ مَثَلُ الجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ المُتَّقُونَ * فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ ، وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ ، وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى ﴾ .

وليس إيراداً لأوصاف حرفية .. فهذا أمر مستحيل لأن الجنة والجحيم أمور غيبية بالنسبة لنا ، لا يمكن تصويرها في كلمات من قاموسنا ، تماماً : كما يسألك الطفل عن اللذة الجنسية فتقول : إنها شيء مثل السكر لقد اخترت له شيئا من خبراته اليومية ، ومع ذلك ، فما أبعد الفارق بين اللذة الجنسية وبين طعم السكر العادي المبتذل .

وبالمثل كان موقف القرآن في مخاطبة البدوي البسيط .. وكل أمنية البدوي في هجير الصحراء أن يعثر على منبع ماء عذب ، لأن كل ما يجد من مياه هي ينابيع مالحة آسنة ، وكذلك اللبن فما أسرع ما يختمر ويتغير طعمه في حر الصحاري فيضرب له القرآن المثل من أعز ما يتمنى ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً ، مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ﴾ (البقرة : ٢٧) ، فكل الغاية هي تقريب تلك المعاني المستحيلة . وهكذا قل فيما جاء بالتوراة والإنجيل .

وفصل القول قوله تعالى : ﴿ فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ ، جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (السجدة : ١٧) .

أما جهنم :

فهي شيء فظيع ﴿ وَيَأْتِيهِ المَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ، وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ، وَمِنْ وَرَائِهِ

---

* القرآن محاولة لفهم عصري للقرآن من (٦٥ : ٨٤) .

(١) المرجع السابق ص ٦٦ : ٧٢ .

عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴾ . (إبراهيم : ١٧) . ﴿ فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالحِجَارَةُ ﴾ (البقرة : ٢٤) . ﴿ لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِم ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ ، وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ، ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللهُ بِهِ عِبَادَهُ ، يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ ﴾ (الزمر : ١٦) .

فالله يقول إنه يورد الألفاظ للتخويف ، فالنعيم والعذاب حق لأن العقل لا يتصور أن يخلق الله هذا العالم بهذا النظام الرائع الشامل ثم لا تكون العدالة متوافرة فيه ، إذْ محال أن يكون الموت ـ وفى الحياة ظالم ومظلوم ، فلا بد من امتداد للحياة ، بحيث يجد الخيّرون جزاء خيرهم والأشرار جزاء شرهم ولكن كيف ذلك ؟ قال الكاتب « الذى سوف يحدث لنا بعد البعث أن كل واحد ستلازمه رتبته ودرجته التى حصلها فى الدنيا لا أكثر ﴿ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَاماً ﴾ (آخر الفرقان) ـ فمن عاش لا يسمع ولا يعقل ولا يبصر الحق فسوف يحشره الله أعمى ﴿ وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ أَعْمَى . قَالَ : رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعمى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً قَالَ : كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا ، وَكَذَلِكَ اليَومَ تُنْسَى ﴾ (طه : ١٢٤ ـ ١٢٦) ـ إنها مجرد صفتك تلازمك . إن الله لا يعذبك ولكن تعذب نفسك بجهلك ﴿ وما ظَلَمْنَاهُمْ ، وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (النحل : ١٨) وفى الآخرة تتزايد الفروق وتتضاعف فما بين اثنين سوف يكون أكثر بمراحل من فارق الدرجة بين حيوان وإنسان .. ﴿ انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ، وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً ﴾ (الإسراء : ٢١ : ٢٧) ـ ﴿ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللهِ ﴾ (الأنعام : ١٢٤) .

« إن هذا الصغار الذى سيعذِّب ويحرق لأنه سيكون حسرة على صاحبه حينما يرى مكانته ومكانة الآخرين ومقدار ما خسر ومقدار ما كسبوا وفى الجنة يقول الله : ﴿ وَمِنَ اللَّيلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ ، عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً ﴾ (الإسراء : ٧٩) ـ إنها إذن مسألة مقامات . كل واحد يبعث على رتبته ومقامه .

« الله لا يعذب للعذاب وإنما يأتى العذاب واحتراق الصدور من إحساس من هم فى أسافل الدرجات بالغيرة الحسد والهوان والخسران الأبدى الذى لا مخرج منه وسوف يكون هذا النكال والتنكيل ، ينكل الواحد منا بنفسه بالدرجة التى وضع نفسه فيها .. والتى انحدر إليها بأعماله فى الدنيا » .

بطلان دعوى الكاتب

رجعية الفكرة :

هذا الاتجاه ليس مبتكراً ولا جديداً ، بل إنه فكر صليبى ويهودى معروف ردَّده الباطنية ، حيث لا يتصور النصارى ولا اليهود حشراً ، وبالتالى لا يتصور أن يكون الجزاء مادياً .. فالبعث عندهم روحى وكذلك الجزاء ، وقد سار فى هذا الفلك قبل الكاتب الدكتور خلف الله فى كتابه الذى أنكر عليه العلماء وهو المسمى « الفن القصصى فى القرآن » وتابعه فى هذا الدكتور عبد المنعم ماجد[1] .

وقد ذهب الوثنيون القائلون بتناسخ الأرواح إلى هذا المذهب أيضاً فقالوا : إنما يكون عذاب المرء بأن توضع روحه فى جسم حيوان خسيس شقى بينما الأتقياء تكون أرواحها فى خلق أرق وأسعد .

جواب القرآن :

وإنكار التصور المادى للجنة والنار أمر قديم ظهر فى الأيام الأولى للدعوة الإسلامية فحين نزلت أوصاف جهنم ، وأن عليها ملائكة غلاظا شداداً قال الكفار : لو كان هذا حقاً لتغلبنا عليهم بكثرتنا ، ونزلت الآية الكريمة ترد عليهم فى سورة المدثر .

والقضية كما صورها القرآن ، وكما جاء الوحى فى الرد على الكفار بصدد موقف العناد الذى وقفه « الوليد بن المغيرة .. تقرأها فى هذه الآيات ﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ * وما أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ * لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ * لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ * عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ * وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً . وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ . وَيَزْدَادَ الذِينَ آمَنُوا إِيمَاناً . وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ : مَاذَا أَرَادَ اللهُ بِهَذَا مَثَلاً . كَذَلِكَ يُضِلُّ اللهُ مَنْ يَشَاءُ ، وَيَهْدِى مَنْ يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ (المدثر ٢٦ : ٣١) .

(١) ماجد : التاريخ السياسى للقرون العربية حـ١ ص ١٢٨ طبعة ١٩٥٦ ـ والفن القصصى فى القرآن ص ١٤٤ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٥٣ طبعة القاهرة « ٥٠ ـ ١٩٥١ » .

فكما قال الكاتب هي مثلٌ : قال من قبله الذين في قلوبهم مرض والكافرون ﴿ ماذا أراد الله بهذا مثلاً ﴾ .

الجهل بالمثل :

وأما قوله : هذا تقريب للبدوي الذي لا يجد الماء العذب واللبن الطازج ، فذكرت له الجنة في الآية ﴿ مَثَلُ الجنّة التي وُعِدَ المتّقون فيها أنهارٌ من ماءٍ غيرِ آسن ﴾ فترديد لقول المستشرقين والصليبيين واليهود : إن دين محمد نزل لقوم بدائيين ، ألا ترى كيف خاطبهم فذكر إبلهم وعَلَمَ جرا .

والكاتب طبيب عذره - والله أعلم أنه قصير الباع في اللغة العربية فكلمة « مثل الجنة » مبتدأ ذكره الله ليقارن بين أهلها وهم فيها ، وبين الكفار وجزائهم .. فالخبر وتمة الجملة هو قوله ﴿ كَمَنْ هُوَ خالدٌ في النّار ﴾ إلى آخر الآية .

ولم يذكر الله أن ما في الجنة من ماء ولبن وعسل وخمر هو مثل - كما فهم الكاتب .

ونص الآية - حتى تتضح الصورة - ﴿ مَثَلُ الجنّةِ التي وُعِدَ المتّقون ، فيها أنهارٌ من ماءٍ غيرِ آسنٍ ، وأنهارٌ من لبنٍ لم يتغيّر طعْمُهُ وأنهارٌ من خمرٍ لذّةٍ للشّاربين ، وأنهارٌ من عسلٍ مُصَفًّى ، ولهُمْ فيها من كُلِّ الثّمرات ، ومَغفرةٌ من ربهم - كَمَنْ هُوَ خالدٌ في النّار وسُقُوا ماءً حَميماً ، فَقَطّعَ أمعاءهُمْ ﴾ . فجملة ﴿ فيها أنهارٌ ﴾ إلى آخرها : بيان لصفة الجنة وحالها فهي كما يقول النحاة جملة حالية ، وليست واقعة خبراً عن مثل .. بل يظل الخبر عن المثل يحتاجه المخاطب ، ولا تتم فائدة الكلام إلا بذكره .. وهو قوله سبحانه ﴿ كَمَنْ هُوَ خالدٌ في النّار .. ﴾ .

والآية أسلوب خبري صورةً ، وهو استفهام للنفي والإنكار بلاغة .. والتقدير هل يستوي في المثل جزاء المؤمن جنة فيها أنهار .. وجزاء من هو خالد في النار ؟[1]

وجمهور المفسرين على أن كلمة (مثل) بمعنى « صفة » وقال الزجاج : (مثل الجنة) جنة تجري فيها أنهار ، كما يقال : مثل زيد رجل طويل أسمر ، فيذكر عين صفات زيد في رجل منكّر لا يكون هو في الحقيقة - إلا زيداً . تلك هي أقوال المتخصصين في علوم اللغة والتفسير تمضي مع ما جرى عليه السلف من المسلمين . إذن

(1) وجرى على هذا الإمام الزمخشري في تفسيره للآية .

ما المراد بالمثل الذي قال الله فيه ﴿ إن الله لا يَسْتحيي أنْ يَضْرِبَ مَثَلاً ما ، بَعُوضَةً فما فَوْقَها ﴾ ؟ (الآية : ٢٦ من سورة البقرة) .

المراد التشبيه والتصوير ، ويتمُّ بذكر المشبَّه والمشبَّه به معاً . كقوله تعالى : ﴿ يأيها النّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فاسْتَمِعُوا لَهُ : إنَّ الّذينَ تَدْعُونَ من دُونِ الله لَنْ يَخْلُقُوا ذُباباً ولو اجْتَمَعُوا لَه . وإن يَسْلُبْهُمُ الذبابُ شَيْئاً لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالمَطْلُوبُ ﴾ (الحج : ٧٣) .

وقيل : إن هذه الآية هي التي نزلت بسببها آية البقرة : ٢٦ السابق ذكرها ، فالمشبه هو الأوثان العاجزة عن الدفاع عن نفسها تبلغ درجة هائلة ، إلى حدّ أنها لو سطا الذباب مع أنه من أغبى الحشرات على شيء من القرابين التي تقدم إليها وسلبت الأوثان إياها لم تستطع هذه الأوثان أن تستنقذها - فهي إذن أضعف من الذباب . وإذا كان الذباب ضعيفاً لا يستحق العبادة . فكذلك الأوثان الضعيفة لا تستحق العبادة .

فهنا في هذه الآية يبين الله أن ما يذكره من تصوير ضعف الأوثان وعجزها ضربُ للمثل ، بخلاف الآية التي ذكرها الله عن صفة الجنة فهي على التحقيق .

ومن المظاهر التي تدل على أنها للتحقيق قول النبي ﷺ « إن في الجنة لشجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام » رواه البخاري ومسلم والترمذي » .

ومن أمثال القرآن ﴿ الله نُورُ السّمواتِ والأرْضِ ، مَثَلُ نُورِهِ كَمِشكاةٍ فيها مِصْباحٌ ﴾ .. الآية : ٥٢ : النور - فالمشبه نور الله والمشبه به مشكاة فيها مصباح ، إلى آخر المنظر .

ومن أمثال القرآن كذلك ﴿ مَثَلُ الّذينَ اتّخذُوا مِنْ دُونِ الله أوْلِياءَ كَمَثَلِ العَنْكَبوت اتّخَذَتْ بَيْتاً وَإنَّ أوْهَنَ البُيوت لَبَيْتُ العَنْكَبوت لَوْ كانُوا يَعْلَمُون ﴾ (العنكبوت : آية ٤١) .

(١) رواه البخاري في بدء الخلق ٨ - وتفسير سورة (٥٦ و ١) والرقاق (٥١ و ٥٠) - ومسلم في كتاب الجنة بلفظ مائة عام لا يقطعها جـ ١٧ ص ١٦٧ - والترمذي (جنة : ١) وتفسير سورة (٥٦ : ١ و ٢) وابن ماجه في الزهد : (٣٩) - والدارمي في الرقاق (١١٤) وأحمد حـ ٤ ٢٥٧ - ٤٠٤ - ٤١٨ - ٤٣٨ - ٤٥٢ - ٤٦٢ - ٤٦٩ - ٤٨٧ - حـ ٣ (١١٠) - ١٣٥ - ١٦٤ .

أولاً : ترى فى المثل أن المشبه هو تعلق الوثنيين بالأصنام واحتمائهم بها ــ رغم ضعفها ــ والمشبه به هو بيت العنكبوت الضعيف ، فكما أن الاحتماء ببيت العنكبوت عبث .. فكذلك الاحتماء بالأوثان ، ووجه الشبه هو الضعف فى كل من المشبه والمشبه به ، واستعراض آيات الجنة والنار يرينا أنها على سبيل الحقيقة وليس من باب ضرب الأمثال .

● **أساليب التوكيد للجزاء المادى :**

بل إن العالم بأساليب اللغة يرى فيها التأكيد للصورة المادية وعدم احتمال إرادة المثل أو المجاز أو التشبيه . ومن أمثلة ذلك ما يأتى :ــ

١ ــ الآية التى ذكرها الكاتب فى محمد : ﴿ **مَثَلُ الجَنَّةِ** ﴾ يؤكد أنها على الحقيقة عدة مؤكدات ، منها :

(أ) التكملة للجملة بالحال : أى ذكر الهيئة التى تكون عليها الجنة بعد ذكر الجنة ، وطول الصورة ، وتفصيلها . ثم ذكر الإجمال بعد التفصيل : فالتفصيل أنهارٌ من ماء .. وأنهار من لبن .. ثم قال فى إجمال ﴿ **وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ** ﴾ . فهذا التنصيص تفصيلياً ــ على أشياء ، مع إعادتها بالنص الإجمالى ــ تأكيد لها .

(ب) ذكر الله المتعة النفسية ، أو صفة الأمن والسلام ، والطمأنينة الروحية ــ فى قوله بالآية ﴿ **ومغفرةٌ من ربِّهم** ﴾ بعد ذكرِ الجانب المادى ــ يؤكد حقيقة الجانب المادى .. فعلماء النحو والبلاغة يقولون : العطف للجمل أو الكلمات على بعضها يقتضى المغايرة بين مدلول المعطوف والمعطوف عليه . فبعد ذكر الأنهار وذكر الثمار ــ قال الله سبحانه : ﴿ **وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ** ﴾ ومن هذا فى القرآن آيات الواقعة (١٥) ــ إلى (٢٦) وآيات الزخرف ٧٢ ، ٧٣ وعلينا أن نفهم الدين حين نتلقاه من مصادره الأصلية ، وهى الكتاب والسنة ــ طبقاً لقواعد لغتها العربية الفصحى ..

٢ ــ آيات المدثر التى ذكرناها : .. مما يؤكد إرادة الحقيقة منها ــ لا المجاز ــ ما يأتى : ــ

(أ) تنوع الأسلوب بين الأسلوب الخبرى ﴿ **سأصليه سَقَرَ** ﴾ والإنشائى [1] ﴿ **وَمَا**

(١) الأسلوب الخبرى يراد به الإخبار أما الإنشائى ففيه صيغة الاستفهام أو التعجب أو الأمر أو النهى .

أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ﴾ ؟ وهو إطناب يكرّر تأكيداً لحقيقة ، وقد بين حالها بأنها : ﴿ **لاَ تُبْقِى وَلاَ تَذَرُ * لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ** ﴾ أى تغير ألوان الناس بسبب إحراقها لهم .

(ب) أسلوب القصر : بالنفى والاستثناء [1] ﴿ **وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلاَّ مَلاَئِكَةً** ﴾ .

(حـ) النص على أن من يشك فى أن ملائكة جهنم ، وهم خزنتها ، تسعة عشر ، كافر أو منافق ، حتى لو آمن بوجودهم ــ قال تعالى ﴿ **وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلاَّ فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا** ﴾ . إلى قوله تعالى : ﴿ **وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللهُ بِهَذَا مَثَلاً** ﴾ .

٣ ــ ومثل قوله تعالى : ﴿ **وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ ؟ نَارٌ حَامِيَةٌ** ﴾ (أواخر سورة القارعة) .

فبعد تقرير أن « أمّه » أى مصيره « هَاوِيَةٌ » يعنى جهنم ، وهو أسلوب خبرى ، أثار سؤلا عن ماهيتها وذكر جوابه ليؤكد المراد منها وهو ﴿ **نَارٌ حَامِيَةٌ** ﴾ . على الحقيقة يريد نفى توهُّم إرادة المجاز .

٤ ــ وقال سبحانه : ﴿ **فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لهم ثيابٌ مِنْ نارٍ يُصَبُّ من فوق رءوسهمُ الحميمُ * يُصْهَرُ به ما فى بطونهم والجلودُ * ولهم مقامعُ من حديد * كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غمٍّ أعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق** ﴾ (الحج : ١٩ ــ ٢٢) وهى تؤكد العذاب الحسى فى أول النص ــ ثم الحسى والمعنوى فى الآية الأخيرة

٥ ــ آيات النساء : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَاراً ، كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جلوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ . إِنَّ اللهَ كَانَ عَزِيزاً حَكِيماً * وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبداً ، لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلاًّ ظَلِيلاً** ﴾ (النساء : ٥٦ ــ ٥٧) .

(أ) تأكيد العذاب بالنار الحسية واضح فى ابتداء الجملة بإنَّ التى تدل على التأكيد ، ثم فى صيغة التكرار والدوام ــ ﴿ **كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ** ﴾ ثم إن التعليل

(١) النفى مثل (ما) فى الآية والاستثناء (إلاّ) فى الآية ، والقصر يفيد زيادة التخصيص والتأكيد ، فكأنه قال : أصحاب النار مقصورة وظيفتهم على جنس الملائكة .

لتجديد الجلود بأنه ذوق العذاب ، يدل على أن العذاب حسّى ، لأنه من أجله تتغير الجلود بأعصاب الحس – ثم إن كلمة ﴿ يَذُوقُوا ﴾ تشير إلى أن الأمر حسّى .

(ب) وفى الحديث عن جنة المؤمنين ذكر أنواع النعمة : فالبدَنُ بالأنهار والثمار يتنعم ، أما الوجدان أو العاطفة فأعدّ لها السكن والزوجات الطاهرات ، أما الاسترواح الذى يكون وراء الطعام والجنس : فأشار إليه بقوله ﴿ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلاًّ ظَلِيلاً ﴾ . وتنوُّع المتعة – يجعلنا نقول : إنه لابد من تغاير جنسها ، وذلك معناه تأكيد أن فى الجنة كل نعيم مادى ، حسى ، وروحى ، ونفسى .

٦ – وفى سورة المؤمنون : ١٠٣ – ١٠٥ ﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَالِدُون * تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُون * أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِى تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُون ﴾ .

ولفح الوجوه حركة مادية حسية بحتة – والتقريع بالتكذيب إنما هو تقريع لتكذيب بأمر حسى يصيرملموسابالآخرة .

٧ – وفى سورة المُلك : تصوير لصورة النار وعملية قذف حسىّ فى أعماقها ﴿ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقاً وَهِىَ تَفُور * تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِير ؟ ﴾ (الملك : ٧ – ٨) .

٨ – وفى سورة التحريم : الآية ٦ : ذكر وقودها المادى ، وذكر زبانيتها والقائمين عليها :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا : قُوا أنفسكم وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ والحجارة ، عليها مَلائِكَةٌ غِلاَظٌ شِدَادٌ . لاَ يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ . وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُون ﴾ .

يقول الإمام حسن البنا : فى الجنة النعيم المعنوى والنعيم الحسى وفى النار أيضاً العذاب المعنوى والعذاب الحسى والنفسى ﴿ ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله قالوا إن الله حرمهما على الكافرين * الذين اتخذوا دينهم لهواً ولعباً ، وغرتهم الحياة الدنيا ، فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا وما كانوا بآياتنا يجحدون ﴾[1] ﴿ ونادى أصحابُ الجنة أصحاب النار أن قد وجدنا ما

(١) سورة الأعراف : ٥٠ : ٥١ .

وعدنا ربُّنا حقًّا فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا قالوا : نعم ... ﴾ (الأعراف : ٤٤)
ولو لم يكن الجزاء مادياً وروحياً معاً .. لكان جزاء أعرج . فالقرآن الكريم يعلن أن الإنسان روح وجسم ، وأن جسمه ومطالبه المادية هى التى تسوقه الى الشر ، وأنه حين يتكفُّ ينكف عن المطالب المادية ، فلا بد هنا من تعويض ، فإذا قيل إن الجزاء روحى فقط ، فأين تعويض الجسم الذى هو متسلط على الروح ؟ فكان لابد إذن من تعويض مادى .. والعدالة فى الجزاء تقتضى هذا المعنى .

● **فكرة الناس مقامات :**

قال الكاتب : « الذى سوف يحدث لنا بعد البعث هو أن كل واحد ستلازمه رتبته ودرجته التى حصلها فى الدنيا لا أكثر، مع فارق الدرجة والنسبة » .

هذه المقالة سبق أن قالها الكفار فى عهد النبى نفسه ، ورد الله عليها وبكّتهم فقالوا : ﴿ لو كَانَ خَيْراً مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ ، وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ : هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴾ (الأحقاف : ١١) ، وحكى هذا عن كفار الأمم السابقة : ففى قصة صاحبى الجنة بسورة الكهف قال الله عن الكافر : ﴿ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ : أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً * وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ ، قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَداً * وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّى لأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْهَا مُنْقَلَباً ﴾ (الكهف : ٣٤ – ٣٦) فتأمل قوله فى الربط بين حاضره ومستقبله الأبدى على أساس من فكرة الامتداد الطبيعى لحياة الشخص حسب منزلته . وفى سورة فصلت (الآية : ٥٠) ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاء مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ : هَذَا لِى ، وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً ، وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّى إِنَّ لِى عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى ﴾ .

تعقيب :

حقا إن الكاتب ، عنى بالمقامات والامتداد : أن الصالح يمتد به أنس الطاعة وجنتها ، فيعيش فى الآخرة حياة مطمئنة – وحسب مجهوده فى الصالحات يكون مقامه عند ربه ودرجته ... وهكذا تكون مقامات الكافر والفاجر عكسية .. ولكن جنّة الطمأنينة النفسية ، أوكما قال الكاتب فى وصفها عند ذكر التخلص من الخطيئة « جنّةُ الطاعة والإسلام للنواميس الإلهية » ، ذكر الله أن أصحابها الذين نالوها يدخلون الجنة . وليس من المعقول أن الذى يعيش فى الجنة يخرجه الله منها ، أو يدخله بها ليكافئه بدخوله فيما أخرجه منه ، أو فيما هو فيه .

﴿ يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ * ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴾ ثم ذكر الجانب المادي ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (الزخرف : ٦٨ : ٧١).

وأعاد ذكر الأنس العائلي مرة أخرى مع الأمن فقال ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ، وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ * سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ (الرعد : ٢٣ ـ ٢٤) وقال تعالى في آخر الفجر: ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴾.

فالنفس الراضية المرضية المطمئنة هي النفس التي في جنة الكاتب ، أي أنهم وصلوا إلى منتهى النعيم الذي يتخيل الكاتب أنه الموعود الذي وعد به الصالحون . فكيف يقول الله لهم بعد ذلك ﴿ وادخلي جنتي ﴾ إلا أن تكون جنة أخرى غير الحالة النفسية ؟ فلا بد إذن أن تكون الجنة التي يدخلها ذوو النفوس المطمئنة بالطاعة الراضية المرضية ، شيء آخر غير الطمأنينة والرضا والسكينة .

● **العذاب بالصغار والندم والغيرة**

ما زعمه الكاتب من العذاب بالصغار والندم إن هو إلا جزء من العذاب فقط ، فقد ذكر الله ندم الكفار والعصاة يوم الحشر والحساب فقال في الظالمين ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ : يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴾ (الفرقان : ٢٧) وقال : ﴿ وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ * يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾ (غافر : ٥١ ـ ٥٢).

وإلى جانب ذكر الله هذا العذاب النفسي لهم ذكر العذاب المادي والحسي فقال : ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ، وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ ، بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ (الكهف : ٢٩).

وهذا التفصيل للصورة التي يجدها الظالمون يعني أنها على الحقيقة . وإن من المعلوم أن البلاغة مطابقة الكلام لمقتضى الحال : والذين نزل عليهم القرآن إما أن يقال : إنهم يدركون المعنويات ، أو لا يدركونها .

فإن قيل : نعم يدركون ، قلنا : ولهذا نزل خطاب الله وذكر لهم ما يدركونه ، فجعل من العذاب عذاباً نفسياً ، وجعل منه حسيا . وما داموا على مستوى يفهمون فيه المعنويات : فذكر المحس[1] لهم لا يكون إلا على حقيقته ، دون تأويل أو تعطيل .

فإن قيل : لا يدركون إلا الحسيَّ قلنا : فلم ذكر الله ما كان معنويا ؟ أيخاطبهم بما لا يستطيعون إدراكه ؟

وقد قال الله : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ ؟ هل نتهم القرآن بعدم البلاغة لعدم توافقه مع مستوى المخاطبين ؟ إن هذا مستحيل ، ولذا كان الواجب التصديق بأن العذاب منه نفسيٌّ ومنه مادي . وقد تحدث الله عن العذاب الروحي ، وكان العرب يتصورون ما قاله سبحانه ألا تسمع قوله في ذلك ﴿ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴾ (الفرقان : ٢٤).

﴿ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ ﴿ يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ * ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴾ . ثم ذكر الجانب المادي ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ، وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (الزخرف : ٦٨ ـ ٧١)

وأعاد ذكر الأنس العائلي مرة أخرى مع الأمن فقال : ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ ، وذرياتهم والملائكة يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ، سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ (الرعد : ٢٧).

وقال سبحانه : ﴿ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ ، وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴾ (الأنعام : ١٦).

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ ، وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ (الأنعام : ٨٢).

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴾ (عبس : ٢٩/٢٨) ومن ثم الإجابة لما ادعاه الكاتب .

---

(١) المَحَسُّ : المحسوس.

ثم إننا لا نقبل من الكاتب دعواه أن الله تنزل فهبط بفصاحة القرآن وبلاغته معنى ومبنى من أجل جهلة البادية ؟ لأن القرآن نزل للناس كافة ، من أعلى القمم العقلية الرائدة إلى من هم لها تبع .. وهم الناس كافة إذن كما قال سبحانه : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً ﴾ . وليس كتابا منزلا للبدو خاصة حتى يُنْزِلَ القرآن إلى معاني بيئة هزيلة .

ما حكم تأويل النعيم والعذاب ؟

قال الإمام الغزالي : من اعتقد بوجود الجنة والنار ولكن قال : إن السعادة عبارة عن لذة روحية تزيد لذتها على اللذة الجسمانية الحاصلة من المطعم والمنكح اللذين تشترك فيها البهائم ، وتتعالى عنها رتبة الملائكة ، وإنما تلك السعادة اتصال بالجواهر العقلية الملكية ، وابتهاج بنيل ذلك الكمال .

واللذات الجسمانية محتقرة بالإضافة إليها ، وإن الشقاوة عبارة عن كون الشخص محجوبا عن ذلك الكمال العظيم كله ، الرفيع شأنه ، مع التشوق إليه والشغف به . وإنَّ ألمَ ذلك يستحقر معه ألمُ النار الجسماني ، وإن ما ورد في القرآن مثلٌ لعوامّ الخلق لما قصر فهمهم عن درك تلك اللذات ، فإنه لو تعدى النبي في ترغيبه وترهيبه إلى غير ما ألفوه وتشوقوا إليه ، وفزعوا منه ، لم تنبعث دواعيهم للطلب والحرب ، فذكر من اللذات أشرفها عندهم ، وهي المدركات بالحواس من الحور والقصور ، إذْ تحظى بها حاسة البصر ، ومن المطاعم والمناكح إذْ تحظى بها القوة الشهوانية ، وما عند الله لعباده الصالحين خيرمن جميع ما أعربت[1] عنه العبارات ونبهت عليه . ولذلك قال تعالى فيما حكى عنه النبي ﷺ ، أعْدَدْتُ لعبادى الصالحين مالاً عينٌ رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، مصداق ذلك في كتاب الله ﴿ **فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون** ﴾[2] . وكل ما يدرك من الجسمانيات فقد خطر على قلب بشر أو يمكن إخطاره بالقلب . فالذى نقطع به أنه لا يجوز التوقف في تكفيرمن يعتقد شيئاً من ذلك ، لأنه تكذيب صريح لصاحب الشرع ، ولجميع كلمات القرآن من أولها لآخرها .

(١) أعربت : أبانت .

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الجنة حديث عن أبي هريرة وحديث ٤٢٣ ، ٥ ورواه الطبراني في الكبير عن المهيمن بن عباس بن سهل بن سعد عن أبيه عن جده كما في الجامع الكبير ٦٧٣٥/٢٢٤٩ .

فوصف الجنة والنار لم يتفق ذكره مرة واحدة أو مرتين ، ولا جرى بطريق كناية أو توسع أو تجوز ، بل بألفاظ صريحة لا يتمارى فيها ولا يُستراب ، وإن صاحب الشرع أراد بها المفهوم من ظاهرها ، فالمصير إلى ما أشار إليه هذا القائل تكذيب وليس بتأويل ، وهو كفر صريح لا يتوقف فيه أصلا .

إشارة اعتراض :

ثم قال الغزالى : « وبذلك تعلم على القطع أنه لو صرح مصرح بإنكار الجنة والنار والحور والقصور ـ فيما بين الصحابة ـ لبادروا إلى قتله ، واعتقدوا ذلك منه تكذيبا لله ولرسوله فإن قيل : لعلهم كانوا يفعلون ذلك ويبالغون فيه حسما لباب التصريح به إذ ومصلحة العباد تقتضى ألا يجرى الخطاب معهم إلا بما يليق بأفهامهم ويؤثر فى نفوسهم ، وإثارة دواعيهم . وإذا رفعت عن نفوسهم هذه الظواهر وقصرت عقولهم عن درك الملذات العقلية أنكروا الأصل وجحدوا الثواب والعقاب .. وسقط عنهم تمييز الطاعة عن العصيان ، والكفر عن الإيمان .

قلنا فقد اعترفت بإجماع الصحابة على تكفير ذا الرجل وقتله لأنه مُصرّح به ، ونحن لم نزد على أن المصرّح به كافر يجب قتله وقد وقع الاتفاق عليه .

وبقى قولكم إن سبب تكفيرهم مراعاة مصلحة العوام . وهذا وهم وظنٌّ محض لا يغنى عن الحق شيئا ، بل نعلم قطعا أنهم كانوا يعتقدون ذلك تكذيبا لله تعالى ولرسوله وردًّا لما ورد به الشرع ولم يدفعه العقل . فإن قيل : فلم أوّلتم آيات الصفات وأحاديثها مثل ﴿ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ و« إن الله خلق آدم على صورته » .. ولم تجرؤوا على الظواهر ؟ قلنا : لإن القرآن صرح بنفى إرادة ظاهر اللفظ فقال : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ .

ومعنى « على صورته » أى خلق آدم على هيئته التى ترونه عليها الآن ولم يمر بأطوار من أطوار الخلق والتكوين .. فالحديث معجزة دالة على صدق نبوة النبى ، لإنه به يمكن الرد على نظرية التطور قبل مجيىء (داروين) بها بنحو ثلاثة عشر قرناً .

(١) رواة البخارى فى الإستئذان : ١ ـ ومسلم : (بر : ١١٥) والجنة ٢٨ ـ وأحمد : جـ٢ ـ ٢٤٤ ـ ٣٥١ ـ ٣٢٣ ـ ٣٣٤ ـ ٤٦٣ .

عود إلى جنة آدم

ذكر الكاتب فى الحلقة الثالثة عن الجنة التى كان فيها آدم ، والتى تنتظر التائبين ما نصه « يشرح لنا القرآن أن الخلاص على الأرض ممكن ، وذلك بإن يفطن الإنسان إلى الخطأ ، ويعود إلى الجنة التى ضيعها أبوه . جنة الطاعة والإسلام للنواميس الإلهية وهذه هى الإنابة والرجعة التى تتكرر فى كل صفحة من القرآن . يفطن الإنسان إنه لا يملك إلا ضميره (قدس الأقداس) الذى تركه الله حراً بالفعل ، فيسلمه خالصاً لله ويتجه به مختاراً طائعاً ، وقد وكل أمر نفسه إلى خالقه وخضع لنواميسه ، يفعل هذا وقد أدرك أن مشيئة الله واقعة إن طوعا وإن كرها ، وإن الله هو الخالق المهيمن على جميع الأسباب وأنه هو الوحيد الذى يملك الهداية والعلم والقدرة[1] .

تعقيب : ـ

ونحن نوافقه على طريق الخلاص من العذاب فذلك هو الذى يسمى .. « التوبة النصوح » ولكن هذه العودة إلى طاعة الله والإسلام إلى النواميس الإلهية التى أودعها كتابه المسطور فى القرآن ، وكتابه المنشور فى الكون ، هى السبيل إلى جنة أخرى مادية فيها المتاع المادى والروحى معا .. كما فى سورة الواقعة مثلاً .

فقد قال تعالى فى النعيم الحسى عن المرقد والطعام والشراب : ﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ * فِى جَنَّاتِ النَّعِيمِ * ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ * عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ * ﴾ أى منسوجة بقضبان الذهب والجواهر ـ ﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ * يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ * بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ * وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ * ﴾ (خمر جارية من منبع لا ينقطع) ﴿ لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ * ﴾ (لا يذهب عقلهم) . ﴿ وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ * وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ .

(١) القرآن محاولة لفهم عصرى للقرآن ص ٥٩ .

– ثم ذكر الجنس فقال : ﴿ وَحُورٌ عِينٌ ۞ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ ۞ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .

– ثم قال عن الراحة النفسية وعواملها ومظاهرها .. ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴾ – أى قولا فاحشا أو مؤثما – ﴿ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴾ (الواقعة : ١٠ – ٢٦) .

– ثم عاد القرآن إلى ذكر فئة أخرى من أهل الجنة ، وذكر جزاءها المادى قائلا ﴿ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ، فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ ﴾ – نبق خضد أى أزيل شوكه ﴿ وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ ﴾ – أى موز منتظم بعضه فوق بعض – ﴿ وَظِلٍّ مَمْدُودٍ ﴾ – أى دائم – ﴿ وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ ﴾ – أى جار دائم ﴿ وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴾ ، ثم ذكر متعة الجنس فقال ﴿ وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ ﴾ – كنى عن السرر العالية بالنساء . ﴿ إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً ۞ فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا ۞ عُرُبًا ﴾ (أى متحببات إلى أزواجهن – أترابا متساويات فى السن ..) .

والتنويع بين ماهو حسى وماهو نفسى ، دليل على إرادتهما معا .. وحمل إحداهما على الآخر ترجيح لأحد الطرفين بدون مرجح ، بل ترجيح للمرجوح ، لأن المألوف أن يحمل المعنوى على الحسى ، وليس العكس ، فيشبه ذو الجمال المعنوى بالقمر ، ولا يشبه القمر بالجميل .

وقد اختلف الأقدمون فى جنة آدم : أهى الجنة التى وعدنا بها فى الآخرة ؟ أم أنها الجنة بالمعنى اللغوى وهو الحديقة ؟ .. ولكلٌ أدلته أما تفسير الجنة بأمر معنوى لم يرد فى اللغة ... ويخالف به فهم العرب الذين حملوا إلينا اللغة ومن بعدهم طوال زهاء أربعة عشر قرناً ، فذلك مالا يمكن أن يجنح إليه عاقل أريب .

وقد اختلف المفسرون فى بيان الشجرة : أهى الحنطة ، أم الكرم ، أم غيرهما من الأشجار المعروفة حسيا ؟ . أما قول الكاتب أنها « رمز الاتصال الجنسى » فقول غريب ومردود . فقول الكاتب : (إن دليل كون الشجرة هو الجماع ، هو أن آدم وحواء خجلا من فعلتهما كما نخجل نحن من العملية الجنسية) قول لا يقبله العقل ..

فقد كانت حواء زوجة ، قال تعالى ﴿ خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها ﴾ وجماع الزوجة حلال ولا خجل منه وكنّى الله عن الجماع باللمس والرفث

وإتيان الحرث .. ولم يعرف فى اللغة الكناية عن الجماع بالشجرة ، وكل تفسير يخالف اللغة فهو باطل .

هذا فضلا عما رويناه من أن الله إنما ألقى الشهوة فى آدم بعد هبوطه من الجنة .

أدلـــة الكاتب
على عدم وجود نار وجنة

١ ـ حوار الكفار :

قال الكاتب[1] : ومما يدل على أن النار فى الآخرة هى غير ما نعرف من نارنا ـ هذه الآيات من سورة الأعراف : ٣٧ ـ ٣٨ ﴿ وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ * قَالَ ادْخُلُوا فِى أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ فِى النَّارِ * كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعاً ﴾ ـ حتى إذا أدرك بعضهم بعضا ـ ﴿ قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاهُمْ : رَبَّنَا هَؤُلاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ ، عَذَاباً ضِعْفاً مِنَ النَّارِ * قَالَ : لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ .

« إنه حوار ومكالمة فى النار يجرى بين المعذبين ، وفى مثل نارنا لا يمكن أن يجرى حوار بين اثنين يحترقان » .

والمعنى الثانى العميق فى الآية : ﴿ وَلِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ ـ إن أمامنا اثنين يتعذب الواحد منهم ضعف الآخر مع أنهما فى نفس المكان . ومعنى هذا أن العذاب فى القلب وليس فى المكان ذاته ، كل هذه الآيات كواشف ذات دلالة تدلنا على أن النار ليست هى النار ولا الجنة هى الجنة ، ولا الله هو الباطن المعذِّب . وإنما سوف يتأتى العذاب من تفاوت الرتب تفاوتاً عظيماً . ثم بالسقوط فى تقييم أبدى لا مخرج منه يلزم صاحبه كما تلزم الأصبع بصمتها » .

بطلان الشبهة[2] :

غفل الكاتب عن طبيعة خلقنا الذى سنبعث عليه يوم القيامة فغاب عنه وجه

(١) المرجع السابق ص ٧٢ : ٧٣ .

(٢) أبقينا المناقشة بالرغم من عدول الكاتب عن رأيه فقال : يحدث أن يتعرض اثنان للحر فيصاب أحدهما بالصداع بينا يحتمل الآخر ، والصداع ألم حسى ومعنوى .

الحق ، إننا خلقنا فى حياتنا الدنيا طبقاً لناموس الموت المجهول سره كجهل سر الحياة ، وقانون الخلايا المتجددة التى تنتهى بالضعف والموت حين يشاء الله للإنسان أن يموت بذلك القانون ، لأننا فى دار الفناء ، أما هناك ، فى دار الخلود ، فسيعاد ، خلقنا بطريقة تقبل الخلود .. فى النار والجنة ، وكما خلق الله الروح قابلة للخلود رغم فناء البدن ، فهو قدر على أن يجعل بعث أجسامنا بحيث تكون خالدة كالروح .

والدليل على أن بعثنا سيكون بطبيعة أخرى أننا رأينا أن النبى ﷺ يصف ضرس الكافر بأنه كالجبل ، وكان تصور هذه الضخامة يقابل من الرعيل الأول بالتصديق التام ، دون استطلاع رأى العلم ، أما فى عصر العلم فإننا حين نستطلعه يؤكد لنا هذه الحقيقة .. إذ أن جسم الإنسان مكون من خلايا متنوعة .

والخلية الحية من أنواع هذه الخلايا .. ثبت علميا أنها تتحرك فى نموها وكيفية غذائها داخل الجسم بطريقة غير التى تتحرك بها لو عزلت عن باقى الخلايا .

فى ١٧ من يناير ١٩١٢ بدأ العلماء أول تجربة لتربية قطعة من نسيج حى بعد مغادرتها لجسد صاحبها ، فرأوا أن قطعة صغيرة تحتوى على بضعة خلايا فردية لو استمرت تربيتها خارج الجسم الإنسانى لوصلت هذه القطعة التى لا يزيد حجمها على ملليمتر مربع ـ فى غضون سنة واحدة ـ قدر وزن الشمس ١٣ ألف مليون مرة .. ولهذا لم يكن غريبا أن تكون أحجام الناس يوم القيامة بطريقة أخرى ، وفى الضخامة التى جاءت فى السنّة ، لأن الله حين ينمى هذه الخلايا الحية ويبعثها قد يحيطها بما يجعلها تنمو نمواً مقيدا بالنسبة لما رئى فى تجربة (د : الكسيس كاريل) التى ذكرناها ، ونموا زائداً عن نموها فى جسم الإنسان الفانى فى هذه الدنيا[1] .

وهكذا القول فى ضخامة أشجار الجنة ، وسعة الدرجات ، بينما سعة تتفق مع طبيعة نمو الخلايا الحية فى شتى المخلوقات من إنسان ونبات ، ولهذا قال الله سبحانه ﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ .

لأنها لا يمكن تمشيا مع المنطق العلمى ، إلا أن تكون بهذه الصورة من السعة .

وبما أن عوامل الحر والبرد تنتهى قبل يوم القيامة بطىّ السموات وشموسها المحرقة

(١) يوم القيامة لعبد الرازق نوفل ص ١١٢ : ١١٤ ـ وحديث الذر وسيأتى آخر هذا الفصل .

وكواكبها القارة[2] ﴿ يَوْمَ نَطْوِى السَّمَاءَ كَطَىِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ﴾ (الأنبياء : ١٠٤) فإن الجو فى الجنة يغاير الجو فى الدنيا . ﴿ لاَ يَرَوْنَ فِيهَا شَمْساً وَلاَ زَمْهَرِيراً * وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلاَلُهَا ، وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً ﴾ (الإنسان : ١٣ - ١٤) .

ولا بد أن تكون النار بدرجة غير التى نعرفها فى الدنيا ، فتلك أجسام أخرى ، لها طاقات احتمال غير طاقاتها المعروفة ، ولذا قال سبحانه : ﴿ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴾ (التوبة : ٨١) وتلك نار قادرة على الاشتعال بما لا يشتعل فى الدنيا من التراب والحجارة ﴿ ناراً وقودها الناس والحجارة ﴾ (التحريم : ٦) .

ولما كان الناس درجات فى معاصيهم كان من العدل أن تكون جهنم درجات عرفت بالدركات ، ولهذا قال سبحانه : ﴿ إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ﴾ (النساء : ١٤٥) - وقال : ﴿ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ ، لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ ﴾ (الحجر : ٤٤) - وقال فى مقارعهم ، وأنها تتناسب مع خلقهم الجديد ﴿ وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴾ (الحج : ٢١) - وفى ثيابهم ﴿ سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ ﴾ (إبراهيم : ٥٠) .

وكما قرر العلم أن الخلية الحية بتضاعف غذاؤها خارج الجسم مئات ، بل آلاف المرات فإننا نتصور كثرة الغذاء ، لدرجة أن الله يسميه إمداداً ﴿ وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ (الطور : ٢٢) .

بل وينص على الكثرة ﴿ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ (الزخرف : ٧٣) ﴿ وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ لاَ مَقْطُوعَةٍ وَلاَ مَمْنُوعَةٍ ﴾ (الواقعة : ٣٢ - ٣٣) .

إن كل شىء فى الجنة أو النار يحمل اسم نظيره فى الدنيا ، ولكنه مختلف فى حقيقته وإن كان مادياً ، وهذا هو الحقيقة التى قال الرسول فيها : مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر» .

وحقيقة أن يكون فى الجنة مالا عين رأت ولا أذن سمعت ، لها نظير فى عالمنا .. فعالم الفواكه به من الفواكه مالم نسعد بمذاقه ، وما سينقضى عمرنا ولا نذوقه ومالا

(١) يوم القيامة لعبد الرازق نوفل ص ١٦٢ - ١١٤ .

(٢) القارة : الباردة .

نسمع عنه - فمثلا فاكهة التين يقرر العلم أنها تبلغ (٢٥٠٠) نوع .. فهل يمكن استيعاب هذه الأنواع لواحد أو مجموعة من البشر ، والعناكب قبائل تبلغ نحو خمسين ألف قبيلة ، والجراثيم كذلك فنحن لم نحط بعلم الكثير .. والإحاطة أمر غير ممكن للفرد .. وإذا كان فى الدنيا مالا عين رأت بالنسبة لمجتمعات كثيرة فما بالنا بعالم الآخرة ؟

وكل امرىء دخل الجنة يجد ألوان المتاع يختار منها ما يشاء ، فمن لم يحب العسل فليختر غيره ، فليس ذكر الله العسل أو اللبن اللذين يكرههما الكاتب معناه إلزام تعاطيهما .. وإنما هو بيان للأصناف المعروفة ، تتفق فى التسمية مع نظيرها فى الدنيا ، وتختلف فى جوهرها ، كما فى الآية الأخرى : ﴿ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِزْقاً قَالُوا هَذَا الَّذِى رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهاً ، وَلَهُم فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ ﴾ ٢ : ٢٥ لا يعتريهن الحيض والنفاس .

وتأتيه ﷺ امرأة عجوز تسأله أن يدعو الله لها بالجنة فيمازحها قائلا : « الجنة لا يدخلها عجوز » فلما رأى فزعها قال لها : ألم تسمعى قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً * فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا * عُرُباً أَتْرَاباً ﴾ (الواقعة : ٣٥ - ٣٧) أنه يعنى أنها تدخلها ، وقد أعاد الله إليها شبابها فلا تدخلها بعُرْوهن الشيخوخة كيانها ، ويغضن جبينها ، وقد صح الحديث بأننا نُبعث غُرْلاً .. يعنى غير مختونين .

وهذا التبديل ليس لخلق الناس فقط ، وإنما سوف يكون لكل شىء . ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرضُ غيرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ ﴾ (إبراهيم : ٤٨) . ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِى الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ * وَحُمِلَتِ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً * فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ * وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴾ (الحاقة : ١٣ - ١٦) .

سوف تتبدل طبيعة السيطرة الروحية ، وتتسع طاقات الجسم بما لم يكن موجودا فى هذه الحياة ، حتى إنه ليرى المغيبات ﴿ فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ (ق : ٢٢) . ثم ألا ترى أن من طبيعة المرأة أن تحيض وكان الله أخبر عن المرأة أنها فى الجنة لا تحيض ، ﴿ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ ﴾ . وهذا مما يدل أن البعث خلق جديد لا يخضع فى الحكم على شؤنه لمقاييسنا الدنيوية .

وأما قوله كيف يتحاوران ؟ فالجواب : لأنهما بخلق جديد يمكن معه ذلك . وكالحوار الذى أخبرنا الله أنه يقع بين أهل الجنة والنار : ﴿ ونادى أصحاب الجنة

أصحابَ النارِ أن قد وجدنا ما وعدنا ربُّنا حقاً . فهلْ وجدتُم ما وعد ربكم حقاً ؟ قالوا نعم﴾ (الأعراف : ٤٤) .

وكما ينادى أصحاب الأعراف أهل الجنة من مواقعهم ﴿ وعلى الأعراف رجالٌ يعرفون كُلاًّ بسيماهُم ونادَوا أصحابَ الجنة أنْ سلامٌ عليكم ﴾[١] – كما ينادون أصحاب النار كذلك ﴿ ونادى أصحابُ الأعراف رجالاً يعرفونهم بسيماهُم قالوا : ما أغنى عنكم جمعكم وماكنتم تستكبرون ﴾ ، وكما ينادى أصحاب النار أصحابَ الجنة ﴿ ونادى أصحابُ النار أصحابَ الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله قالوا إن الله حرمهما على الكافرين ﴾ .

وأما قوله : كيف لا يدركُ كل أن الآخر يجد ضِعْفاً[٢] من العذاب وهو معه فى جهنم ؟

فالجواب : أن كُلاًّ يشغله عذابه ، كما حدث فى معسكرات النازى والصهاينة والسجن الحربى فى التحقيق مع بعض الأفراد يجمعهم اتهام واحد .. فلا يدرى الأسير بم يعامل زميله ، وقد يحسن إلى زميله فى الظاهر ليشتد به الأسى ، بينما زميله يلقى الويلات بعيدا عنه .. وربما لا يدرى به إلا عندما يريد المحقق أن يواجه أحدهما بالآخر .

وقد يكون قوله تعالى : ﴿ لِكُلٍّ ضِعْفٌ ﴾ وعيدا من الله أن يضاعف هذا مستقبلاً ، وليسَ إخباراً عن الماضى والحاضر ، أو خبراً عن الحيا لهم ، وكأنه قال لقد جعلنا لكلٍّ ضعفاً ولكن لا تعلمون ما قررناه .

وقد سقط الكاتب فى إنكار الخروج من النار بزعمه أن الخلود أبدى ، بينما صح عن النبى ﷺ أن العصاة يدخلون جهنم ما شاء الله لهم ، على قدر معصيتهم ، ثم يخرجهم منها بعد أن نالوا جزاءهم ويدخلون الجنة . وفى الحديث « يخرج من النار من كان فى قلبه مثقال ذرة من الإيمان » . قال أبو سعيد : فمن شك فليقرأ : إن الله لا يظلم مثقال ذرة »[٣] .

(١) الأعراف : ٤٦ – ٥٠ .

(٢) الضعف : الشديد من العذاب .

(٣) رواه الترمذى فى صفة جهنم وقال حديث حسن صحيح . وروى عن أنس عن النبى ﷺ يقول الله عز وجل أخرجوا من النار من ذكرنى يوما أو خافنى فى مقام » قال الترمذى هذا حديث حسن غريب .

● مالا عين رأت :

ولا تنافى بين أن يكون فى الجنة والنار ماذكر صريحاً فى القرآن والسنة ومالم يذكر مما لا عين رأت ، فليس حتما أن يكون كل مافى الآخرة مما لا يدرك ، ثم إننا لو أجزنا أن يحمل كل لفظ صريح على التأويل دون قرينة تدل على امتناع إرادة المعنى الأصلى للفظ ، لاستحال أن يفهم عن الله أو عن الناس شىء ، إذ لكل قائل أن يقول : أنا فهمت أنك تقصد بكلامك شيئا آخر غير ما يدل عليه ظاهر اللفظ ، فيختل العمران والتفكير والعدل فى الحياة ، كما أن فى إنكارنا ظاهر اللفظ ادعاء عمليا على أن الله عاجز عن أن يبين لنا مراده ... والبليغ الفصيح لا يعجز عن بيان المراد .

٢ – الذى يخوّف الله به عباده :

فى مطلع هذا الفصل : ، ذكرنا استشهاد الكاتب بقوله تعالى : ﴿ لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ ، ومن تحتِهِمْ ظُلَلٌ ، ذَلِكَ يُخَوِّفُ الله بِهِ عِبَادَه ﴾ (الزمر : ١٦) وقوله « ذلك » اسم إشارة راجع إلى لفظ الجملة لا إلى معناها .. أو أنه سبحانه يريد التخويف فقط لأنه الغفور الرحيم ..

والجواب أن اسم الإشارة راجع إلى حقيقة المعنى .. وأن الله يخوف بذلك عباده المؤمنين ليتقوا عذاب النار فيظلوا مستقيمين على الطاعات . فهو تخويف للمتقين من عباد الله كما قال سبحانه : ﴿ يُخَوِّفُ الله به عِبَادَهُ ، يا عِبادِ فاتَّقونِ ﴾ (الزمر : ١٦) .

والتخويف يكون بالأمر الذى يدخل تحت سلطان الفاعل وقدرته .. بالأمر الذى له وجود معلوم .. فأنت يمكن أن تخوف آخر بالضرب أو بالسجن أو الموت ، ولكن لا تخوفه بمجهول غير موجود « كالاستلاصيم » مثلا تخوف بما له تصور ولو ذهنيا كأم الغول .. أما مالا صورة له ولا وجود ولو فى الذهن .. فهذا مالا يكون .. ومن ثم فإن ما خوف الله به عباده يجب أن يكون له وجود ومما تصوره عباد الله المتقون .

هذا إلى أنه من صفات الذم أن يقول المرء شيئاً لا ينفذه ويهدد بما لا يقع ، وقد قال سبحانه : ﴿ لِمَ تَقُولُونَ مَالاَ تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ الله أن تَقُولُوا مَالاَ تَفْعَلُونَ ﴾ (الصف : ٢ – ٣) .

ومحال أن يذم الله شيئاً ثم يفعله : عدا ما اختص به نفسه كالكبرياء وطلب الحمد

والثناء . فالإقرار له سبحانه بهما له مزية خاصة هى تنزيهه عن المشابهة لخلقه ، وصهر من عداه فى وحدة العبودية لوحدانية المعبود ، بينما هما فى البشر سبب للفرقة وشحن القلوب بالأحقاد ، فصفة الكبرياء وطلب الحمد وطلبهم للثناء .

كما أنه من الإثم أن تَصِمَ الله بعيب نعيب به المعيبين وهو فينا ، جل جلال الله وتنزه عن كل نقص .

ثم إن مقتضى الإيمان بالحشر أن يكون للحشر والجزاء مكان ، وللمكان صفة ، وهذه الصفة هى التى ذكرها القرآن لهم ﴿ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِم ظُلَلٌ ﴾ الخ ..

فى الحساب

قال تعالى : ﴿ اقْرَأْ كِتَابَكَ ، كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً ﴾ ..

وقال الكاتب ..

حتى الحساب هنا يبدو أنه حساب النفس للنفس ، تعالى ذو الجلال أن يحاسب أمثالنا . وأن يعذب أمثالنا ، إنما قد لزم كلَّ واحد عمله كظلّه ، ولا خلاص .. فالحق أن الله رحيم حتى من لم يهذبه العذاب فى الآخرة فإنه يرحمه بعدم إعادته إليها . وقال سبحانه فى علة هذا ﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ ، وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ . والألفاظ الرهيبة التى وصف الله بها القيامة كالقارعة والصاخة .. لتوقظ الغافلين[1] .

تفنيد الدعــوى :

إنكار حساب الله للناس خطأ . أفحش منه الجهل بمدلول الآية : فإنها ذكرت أن لكل إمرىء يوم القيامة كتاباً فيه أعماله ، وسيسلم هذا الكتاب الذى هو بمثابة الإعلان الموجه له بالتهم لينكر ماينكر ويعترف بما يعترف ، وحين تكون التهم حقائق ثابتة تسمو على الإنكار يقال للمتهم : إنها تُهَم تُدينك ولا تستطيع إنكارها .. فهذا المقال توكيد لدقة الحساب .. ومهابته وجديته ، وليس تخلياً عنه وتركاً للأمر فوضى ، واسمع سياق الآية تدلك على هذا المعنى .

﴿ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ منشوراً * اقْرَأْ كِتَابَكَ ، كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً ﴾ . ثم إن كلمة (وَنُخْرِجُ لَهُ) تدل على أن الحساب ليس ذاتيا ، وإنما آتٍ من الخارج ، أى من الله سبحانه وتعالى ، ويؤكد أن الله هو المحاسب قوله تعالى ﴿ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (الممتحنة : ٣) ﴿ فَاللهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ (النساء : ١٤١) . ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ (يونس : ٩٣) .

وقال النبي ﷺ « إنكم تُحشَرون يوم القيامة حُفاة عراة غُرلاً[1] » وفهمت عائشة بفصاحتها العربية الأصيلة أن هذا الحشر للحساب والعرض على الله أمر واقع كما يدل عليه ظاهر اللفظ ، فعجبت كيف يقع هذا وتنكشف العورات التي أمر الله بسترها .. وكان جواب النبي أن شدة الهول تصرف الناس عن أن يذكروا ذلك أو يلتفتوا إليه .. وهذا حديث صحيح صريح لا يحتمل التأويل : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ ، وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ (الحشر : ٧) .

وقد ذكر الله عز وجل جدال المرء عن نفسه في الحساب بين يدي الله . ﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا ﴾ (النحل : ١١١) .

وقد ذكر الله الحشر من أجْل الحساب صريحاً وصوّر الاعتراف في موقع الحساب ، واستنكار المذنب شهادة أعضائه عليه بعد الفراغ من الحساب وإدانته وقذفه في النار قائلا : ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ * حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ : لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا ؟ قَالُوا : أَنْطَقَنَا اللهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (فصلت : ١٩ : ٢١) .

والجرس الرهيب لأسماء القيامة : مع إفادته إيقاظ الغافل ـ فإنه له دلالته على صفة من صفات يوم القيامة وأحوالها ، ومحال أن يكون لله لفظ خالٍ من معنى ، أو مجردٌ عن الحقيقة .

ثم إذا كان الحساب ذاتياً ـ أي من المرء لنفسه ـ فلِمَ أعلن الله عن حشد الخلائق للحساب ﴿ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ * وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلا لأَجَلٍ مَعْدُودٍ[2] ﴾ (هود : ١٠٣ : ١٠٤) ﴿ يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ ﴾ (الإسراء : ٧١) ـ ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعاً ، فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا ، أَحْصَاهُ اللهُ وَنَسُوهُ ﴾ (المجادلة : ٦) ﴿ وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ (ق : ٤١) ـ

---

(١) غرلا : تعود إليكم القلفة التي أزيلت عن الحشفة (رأس القضيب) عند الختان . وقد رواه البخاري (الأنبياء ٨ ـ ٤٨ ـ تفسير سورة : ٥ ، ١٤ ـ رقاق ٤٥ ـ وأخرجه مسلم (الجنة ٥٦ ـ ٥٩) الترمذي (قيامة ٣٠ ـ تفسير سورة ٨ ـ ٢ ـ والنسائي (جنائز ١١٨ ـ ١١٩) وابن ماجه ـ الزهد ٣٣ ـ والدارمي : رقاق ٨ و ٨٢ وأحمد ط : ٢٢٠ ـ ٢٢٣ ـ ٢٢٩ ـ ٢٣٥ ـ ٢٥٣ ـ ٢٩٨ و حـ ٦ : ٥٣ : ٩٠ .

﴿ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجاً ﴾ (النبأ : ١٨) ـ فلم هذه الحشود ؟ والله يقول : ﴿ وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلاقُوهُ ، وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (البقرة : ٢٢٣) ويقول : ﴿ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ ﴾ (القيامة : ٣٠) ـ ﴿ قُلْ إِنَّ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ * لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴾ (الواقعة : ٤٩ ـ ٥٠) ﴿ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ ﴾ (القمر : ٤٦) .

● **المغزى العلمي في الآية :**

إن في قوله تعالى : ﴿ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً ﴾ (الإسراء : ١٤) مغزى علمياً كبيراً ، فكيف يتذكر الإنسان بعد آلاف السنين الأحداث المدونة في كتابه ، والقرآن يؤكد أن بالإنسان مايذكره كلَّ ما حدث ؟

لقد أجرى « فيلكس اشترد » و « موافر » في معهد التكنولوجيا بكاليفورنيا تجربة على جزء من عصب قوقعة أثبتت أن الأعصاب من الأجسام لا تهلك وأنها مهما قطعت إرباً ـ تحتفظ بالمعلومات التي تمر بها وتتذكرها بعد فناء باقي أجهزة الجسم الدموية والعضمية والنفسية . وليس هذا بغريب ، فإن بعض حبات من القمح مضى عليها أربعة آلاف سنة كانت مع قدماء المصريين حين زرعت نمت ، لأن العنصر الحيوي بها لم يمت . ولذا فإن الجهاز العصبي بالبر والبحر أو الجو يظل له قدرته الواعية كاملة ، وإن كنّا لا نسلم أن هذه الأعصاب لا تفنى مطلقاً ، إذ ﴿ كل من عليها فان ﴾ ولو بعد آلاف السنين ، عندما ينفخ في الصور .

ولذا فإن سؤال القبر لا يحتاج إحياء الجسم الميت ، ولا عودة الروح إليه في صورة عودتها للنائم بل يكتفي باتصال ضعيف للروح بقدر ما يتيسر سؤال القبر . فالخلايا العصبية قادرة على التذكر ، وعلى التوافق المطلوب للمواقف المتغيرة . وهذا هو التفسير العلمي الذي يقترب بنا إلى تصديق الحديث المروى عن رسول الله ﷺ أنه نادى الكفار الذين دفنهم المسلمون يوم بدر « قد وجدت ما وعدني ربي حقاً فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً » ؟ رواه مسلم عن أنس[1] . فقيل يا رسول الله أتخاطب جيَفاً ؟ فقال : « ما أنتم بأسمع لي منهم » فإذا أمكن لفيلكس أشترد بأجهزة العلم تحريك الخلايا

---

(١) إحياء علوم الدين ط ص ٣٠٤ ط الحلبي .

النبيلة بأخبارها الماضية فإن هذا يجعل الحساب والبحث والسؤال من الأمور الممكنة علمياً ولا ينكر إمكانها إلا جهول . كما أثبت العلم أن جسم الإنسان يقوم بتوليد القوة اللازمة لنقل الأفكار عبر آلاف الأميال عن غير طريق الحواس .

وفى ندوة عقدها العلماء الأمريكيون والسوفييت فى لوس انجلوس (يونيه ١٩٦٩) ، حول الإدراك خارج الحواس قال العالم السوفيتى د . كوجان بمعهد بريوف للاتصالات الألكترونية فى موسكو ، فى بحث تلى فى الندوة : (إن الحسابات القائمة على التجارب تشير إلى أن جسم الإنسان يولّد أربعة أو خمسة أمثال التيار الكهربائى الذى يعتقد أنه ضرورى للتخاطب أى نقل الأفكار من شخص إلى آخر عبر مسافات طويلة) . وتحدث عن تجارب أجريت على آدميين عملوا كأجهزة إرسال . وآخرين كأجهزة استقبال ، وتبودلت الأفكار على بعد وصل مسافة تقرب من ثلاثمائة آلاف كيلو متر .

فاستقبال فكر الآخرين فى لحظة زمنية عبر آلاف الأميال كعُمر وسارية كان يظن أنها من غرائب فِعْل الروح حتى كشف العلم فى هذه الأبحاث أنها تتم عن طريق كهربا معينة موجودة فى الجسم المادى للإنسان . ولكن كشف الإنسان لنفسه اليوم يقرر عظمة إيمان عمر وعظمة الحقيقة التى يمكن أن نستنبطها الآن : « من عرف ربه فقد عرف نفسه » .

بدون أجهزة العلم الحديث اكتشف الأولون بجهاز الإيمان هذه الحقيقة ، بل علمهم الله إياها عند الحاجة أليست لونا من البيان الذى قال الله عنه ﴿ خَلَقَ الإِنسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾ (الرحمن : ٣ : ٤) ، فما الحكمة فى هذه الكهرباء؟

إنها فى الحياة الدنيا ذات علاقة مباشرة مع الجهاز العصبى وخلاياه .. إذ أثبت العلم أن الخلايا العصبية تتغير فيها الطاقة الكهربية باستمرار لتسببه الإحساس أىّ إحساس بالألم أو السعادة أو الحركة .. وكل الجهاز العصبى مترابط بشبكة كهربية ، وقد أثبت العلم الحديث أن هذه الكهربا خارج الجسم أيضا ، ويمكن استخدامها دون أن يفقد اتصالها بالخلايا العصبية[1] .

---

(١) يوم القيامة : ص ٨٠ ـ ٨٢ .

إن استخدام هذه الكهربا خارج الجسم بصفة دائمة أو منتظمة ومستمرة ، قد يأتى يوما ما ، وقد يشير إلى أن هذه الكهربا الموجودة فى الخلايا العصبية قد انتقلت بأحاسيس وأفكار صاحبها إلى إحساس وفكر آخر ، أى إنها اتصلت بالخلايا العصبية فى الشخص الآخر وسرت فيه ، والوسيط بين الخلايا العصبية فى المرسل والمستقبل هو الروح تنقل روح المرسل الفكر من الأعصاب إلى روح المستقبل ، ثم من روح المستقبل تلقى أعصابه تلك الأفكار الوافدة من الجسم المرسل ..

وبهذا يتضح لنا أن الحوار الذى يقع فى النار ولم يتصوره الكاتب ـ يقرر العلم إمكانه ، فالخلايا العصبية بأفكارها وكهربائها متصلة بالكهربا الخارجية للجسم أيا كان هذا الجسم . وفى أى وضع كان ، والتيار الكهربى العصبى والذى يكون خارج الجسم يترجمان هذه الأفكار ، فتحملها الروح إلى روح الشخص الآخر ، حيث تلتحم بالكهربا العصبية والخارجية ، لذلك الشخص المرسل إليه ، ويترجم إجابته التى تذهب لمخاطبة الأول بنفس الطريق ، ولا يعنينا تحريك اللسان بالذبذبات الصوتية ، فالمهم هو الوصول إلى الغاية من هذه الذبذبات التى نسميها كلاما ، وقديما قيل :

إن الـــــكلام لفى الـــــفؤاد ، وإنما
جـــعـــل الـــلـــسـان على الـــفـؤاد دلـــيلا

وكما قال شوقى :

وتـــعـــطـــلت لـــغـــة الـــكلام وخـــاطـــبـت
عـــيــنـــاى فى لـــغـــة الهوى عـــيـــنـــاك

وليس الحوار وقفاً على جارحة اللسان والشفتين ، فإن هناك اللغة التى تسمى (الفنتريولوكى) .. أى التحدث من البطن ..

ولفظ الفنتريولوكى مركب من مقطعين أولها ، بمعنى البطن والآخر بمعنى الكلام ، وهو فن يستطيع المجيدون له أن يحدثوا أصواتا ويتكلمون بدون أن يحركوا شفاههم ولا عضلات وجوههم ، وفى صورة يخيل بها إلى المستمع أن الأصوات تصدر من البطن ، لا من أعضاء النطق ، وأنها تنبعث من شخص آخر ، لا من المتكلم .

ويزاول هذا الفن بقصد الرياضة وتربية المهارة عدد كبير من الهواة ، كما يزاوله بغية الدّجل بعض المشعوذين ليوهموا السذج أنهم متلبسون بالجن الذين عن طريقهم يستطيعون الوصول إلى الغرائب والعجائب وقد ذكر « د . على عبد الواحد وافى » أن

العلامة « جونثمان » كان يتدرب على هذا الفن فأدهشه أن ابنه الصغير الذى لم يكن قد تجاوز الثانية عشرة من عمره قد سبقه كثيرا فى هذا المضمار ، لمجرد مشاهدته لحركات أبيه وهو يتمرن على هذا الفن ، وسماعه الأصوات ، وبدون أن يقصد أبوه مشاركته له فى هذا المران .. وذلك طبقا لقانون محاكاة الأطفال — فى المرحلة من أواخر السنة الأولى إلى أوائل السابعة — للغير .. فى الأصوات بمختلف أنواعها ، وما أذيع عن المرأة الباكستانية عام ١٩٧٠ أنه سمع فى بطنها جنين يقرأ القرآن الكريم ويتكلم ، إنما يفسر بذلك وليس حديث جنين .

وبعد ما كتبناه لأستاذنا ظهر أن المرأة كانت تخفى فى نفسها جهاز ترانزوستور ، فما يسمعه الناس هو من الإذاعة ، وقد عوقبت فى بلدها لخداعها .

كما أن الحوار ليس وقفا على اللغة الصوتية .. فهناك الحوار بعلامات مورس وهو مفهم ، وهناك الحوار تحت البحر باهتزازات معينة بحبال تربط بها الضفادع البشرية .. وهكذا ..

هذا هو تصوير العلم لإمكان أن يحاسب المرء نفسه فى الآخرة ، وأن يكون هناك تفكير وحوار وترداد لأفكار بين أجسام قد تكون محرقة ، لأن مناط الفهم والفكر هو التيار الكهربى فى الخلايا العصبية وما تنضحه على الجسم متصلا بها فى كل جسم فيه روح .. وبهذا لا غرابة فيما روى من أن الجماء تقتص من القرناء يوم القيامة و[1] والجماء (الحيوان الذى لا قرون له) من القرناء ، ذات القرون .

ولا غرابة أيضاً فى أن تسمع أن أعضاء الجسم ستنطق بما تعلم .

﴿ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا : أَنطَقَنَا اللهُ الَّذِى أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ (فصلت : ٢١) فحديث الجلود قائم كما قال الله ، ربما بما فيها من أعصاب تتذكر وتتوافق مع ما يرد عليها من استجواب .. ونقول : « ربما كان بهذا التصوير العلمى » ، لأنها أمر غيبى ، وحقيقته اليقينية لا يعلمها إلا الله ، وإذا كان الله قد أمدَّ اللسان فى

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل (زيادة ابنه عبد الله) حـ ١ رقم ٥٢٠ وهو فى الجامع الكبير للسيوطى حـ ٢ رقم ٩٤٢ /٥٤٢٨ — ط مجمع البحوث الإسلامية — وفى الهامش ص ١٧٧٢ قال الشيخ أحمد شاكر إسناده ضعيف ، وذكره الهيثمى فى الزوائد حـ ١٠ ص ٣٥٢ فى كتاب البعث — القصاص . وقال رواه الطبرانى فى الكبير ، والبزار وعبد الله بن أحمد ، وفيه الحجاج بن نصير ، وقد وثق على ضعفه — وبقية رجال البزار فى هذا الحديث من رجال الصحيح غير « العوام بن مزاحم » وهو ثقة .

الدنيا بالقدرة على البيان عما تلقته أعصابه من المجموع العصبى ، فإن من الممكن فى الآخرة — حين تكون الروح أكثر شفافية ، والجسم أكثر سيطرة على نفسه وأضخم وأقوى — أن يسخر ذلك الجسم ، مع هاتيك الروح أى جزء منه لإحداث أصوات لغوية معبِّرة .

ومن الخطأ أن تقيس وسائل التعبير عن إنسان فى الآخرة — وهو بتكوينه الجديد فى صورته الجديدة يوم القيامة — بالإنسان الذى فى هذه الدنيا ، ففرق بين عالم الغيب وعالم الشهادة هذا .. إنه خطأ منطقى إلى جانب الخطأ العلمى . ولا يقال : إن هذا التذكر هو الحساب ، لأننا نقول : إنه لابد من مذكر أو مثير لهذه الذكريات والأفكار والإجابات .. كما قال الله تعالى ..

ولعل القارىء مشوق إلى معرفة كيف كشف العلم الحديث بقاء الأعصاب محتفظة بالمعلومات وقادرة على التصرف طبقا للمثير .

ذكر الأستاذ عبد الرزاق نوفل هذه التجربة التى أجراها (فيلكس أشترو) فقال : بدأ العالم تجاربه على ذاكرة قواقع . وهل للقواقع ذاكرة ؟ اصطاد الرجل عدداً من القواقع ، ووضعها فى حوض به ماء بحر ، وأحضر لها مصباحا كهربيا لينير لها الحوض ، وأراد أن يعلمها شيئاً تعيه فى مخها البدائى ، مخ لا يخرج عن كونه عقدة عصبية صغيرة ، كان يحضر لها الطعام فى الثامنة صباح كل يوم ، ثم يضىء المصباح ، ويعود فى الثامنة من صباح اليوم التالى ليضىء المصباح ويضع الطعام .

كانت القواقع — فى بداية الأمر — لا تعرف معنى إضاءة المصباح ، ولكن بالتكرار والصبر والمثابرة تعلمت أن إضاءة المصباح معناها أن الطعام قد حضر ، وعرف الرجل ذلك بالملاحظة .

فكلما أضاء المصباح حدثت حركة غير عادية فى الحوض ، وتبدأ القواقع فى البحث عن طعامها فى الحال .. لقد تعلمت القواقع إذن ووعت هذه الأحداث فى ذاكرتها ، هذا ظاهرها .. فماذا فى باطنها ؟

أخذ العالم قوقعا وحطمه وأخرج مخه ، أعنى تلك العقدة العصبية الصغيرة وفصص خلاياها ، وأخذ خلية عصبية واحدة قطرها نصف مليمتر وأوصلها بسلكين رفيعين كالشعرة ، وأوصل السلكين بجهاز أليكترونى ليسجل ، فماذا سجل ؟ سجل ذكريات القوقع الذى تحطم وراح فى حوض المهملات .. سجل ذكريات خلية واحدة .

لقد كانت دهشته بالغة .. ففي الوقت الذي كان يطفىء فيه المصباح ويضع الطعام
رأى في الثامنة من صباح كل يوم – كان التسجيل يرتفع إلى أربعين نبضة أو إشارة كل
دقيقة ، وتستمر النبضات في قمتها ثلاث ساعات ثم تهبط تدريجيا إلى عدد قليل عن
العشرة في الدقيقة الواحدة ، ثم تعود الخلية إلى إرسال نبضات مرتفعة مرة أخرى في
صباح اليوم التالي وهكذا .

لقد كانت العقدة العصبية في حياة القوقع بمثابة الجهاز الواعي الذي ينظم لها
حياتها تماماً كالمخ الذي في رؤوسنا ، فمازالت تتذكر الأحداث وتحتفظ بالمعلومات التي
تلقتها .. وكرر الرجل تجربته .. وتكررت نفس النتيجة ..

لقد كانت إشارات الخلية العصبية لا تتوافق فقط مع صباح أو مساء ، ولا مع
حب أو طعام ، بل تتوافق مع ماكان يجرى بعيداً ..

ذهب الرجل إلى الشاطىء بعد ١٤ يوماً فوجد المياه ترتفع بسبب ظاهرة المد ..
ولاحظ في نفس الوقت أن الخلية اليتيمة المعزولة كانت تخترق في ذاكرتها البدائية هذا
الوضع ، وكأنما كانت ترسل هذه الإشارات ظناً منها أن قوقعها المحطم لايزال معها ،
فتعطيه إنذاراً ليزحف على الصخور حتى لا تغمره المياه .

يحدث هذا رغم بعدها عن البحر ، أما خلايا الإنسان العصبية فهي أكثر ذكاء ،
وقد أثبت العلم أنها تظل تعمل وتحس وتستجيب حتى بعد موت صاحبها .. وقد سماها
العلماء ، الخلايا النبيلة أو الخلايا الثمينة .. وهي تختلف عن كل خلايا الجسم[1] .

أكتب هذا لأرد إلى ساحة المؤمنين بدار الجزاء قوماً لا يؤمنون إلا بالمنطق الحسي
والتجريبي وإن كنت أنا شخصيا لا أعتبر صحيحاً تفسير الأستاذ عبد الرزاق نوفل للآية
الكريمة ﴿كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا﴾ بالكشف العلمي لفيلكس اشترو وزميله
« موازر » فإن بقاء بعض الخلايا حية لا يعني إمكان إعادة العلم والحياة إلى الميت ، ولا
يعني أن البعث لا يعني إعادة الروح للإنسان يوم البعث بل البعث هو إخراج الموتى من
قبورهم بعودة الروح إلى أجسادهم .

---

(١) يوم القيامة ص ٧٠ – ٧٢ ط الشعب .

حديث الذر

قال الكاتب :

قبل ميلادنا : كانت لنا ثمة حياة كأرواح ، وفي ذلك تقول الآية القرآنية البديعة
﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَا﴾ (الأعراف :
١٧٢) ، فالآية تروى ماكان في الغيب قبل الخلق الدنيوي ، وكل الخلائق مما خلق الله
ويخلق وسيخلق : مثل الذر في كفه ينظر إليهم ويشهدهم على أنفسهم : ﴿أَلَسْتُ
بِرَبِّكُمْ﴾ . فيقولون : ﴿بلى شهدنا﴾ .. وهو بهذا يأخذ عليهم ميثاقا غليظا ، لأنه
يعلم أنه بعد الهبوط في الأرحام ، وانسدال حجاب اللحم الكثيف ، وتزول غشاوة
الحواس والشهوات والغرائز والأهواء أنهم سوف ينسون تماماً ، وسوف يتخبطون في
نكران وكفر وجهالة[1] .

تفنيد الدعوى :

وما قاله الكاتب قاله بعض غير المحققين من أهل العلم ، غير أنه زاد في الجملة
عبارة (في كفه ينظر إليهم) وهي تدل على خيال غير موفق ، لأن مسائل العقيدة تؤخذ
بالنص ولا يحل الزيادة فيها . ففي أي نص جاء هذا .

هذا فضلا عن أن الحديث المروى بهذه القصة غير صحيح .

● **إشكال على الكاتب :**

١ – قال تعالى ﴿وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ
الْمَقْبُوحِينَ﴾ (القصص : ٤٢) .

وإذا كانت لعنة الله هي طرد الملعون من رحمة الله التي تتمثل في الماديات
والمعنويات . فإن ما يكون يوم القيامة وهو التقبيح والايلام النفسي يكون مظهراً
للّعنة .. فما يقبح به المرء هو أن يرى في وضع مزر ، وليس ممكناً إلا بعذاب له صورة
مادية ووضع مادي ظاهري يُرى فيُستقبح .

٢ ـ قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَاراً كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَزِيزاً حَكِيماً ﴾ (النساء : ٥٦) .

ولا فائدة من ذكر تجديد الجلد إلا التنصيص على أن العذاب حسيٌّ ومادىٌّ ، لأن الجلد هو الذى يحمل أعصاب الحس ، فهو بمثابة موطن لعدد كبير من الأعضاء المستقبلة الصغيرة .. التى يسجل كلٌّ منها ـ على حسب طبيعته الخاصة ـ تغيرات العالم الخارجى .. وإن جسيمات اللمس المنتشرة على كل سطحه تستجيب للضغط والألم والقيظ والبرد ، كما أن الجهاز العصبى المركزى الذى يشمل المخ والمخيخ والنخاع المستطيل والنخاع الشوكى يستقبل الأعصاب الحسية التى تصل إليه من سطح الجسم .. أى من جلده كما قال (د . الكسيس كاريل) فى كتابه « الإنسان ذلك المجهول » .

إن الله لو لم يرد التنصيص على أن العذاب حسىٌّ ومادى لما ذكر هنا التنصيص بهذه الصورة العلمية التى لا يدركها البدوى .. بل هى من تحقيقات العلم الحديث .

٣ ـ ذكر الله سجلات أعمال العباد وكاتبيها فقال : ﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ (ق : ١٨) ، وقال : ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً ، وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً ﴾ (آل عمران : ٣٠) ، وقال : ﴿ وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ، كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا : الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * هذا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (الجاثية : ٢٨ : ٢٩) .

وقال تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ * فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَأُوا كِتَابِيَهْ ﴾ (الحاقة : ١٩ : ٢٠) ثم قال ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ : يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ * وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴾ (الحاقة : ٢٥ ـ ٢٧) .

ولو كان الحساب ذاتياً ، هو استجرار الماضى لمعرفة أسباب ضنك الحياة التى يستشعره العصاة فى الآخرة ، لما كان ثمة داع إلى ملائكة يكتبون أقوال المرء ويسجلون أعماله ، ثم لما نشرت هذه الكتب ، وسُلِّمت لأهلها شهادات تقدير للمتقين ، وإعلاناً عن الاتهامات السوداء للمخطئين العاصين . ثم لما ذكر الله أنه أبقى أصوات الناس وأعمالهم مدخرة تُنقل صورها كما تنقل الصورة التلفزيونية ﴿ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ

تَعْمَلُونَ ﴾ .. ﴿ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ ﴾ وقد أثبت العلم أن هذا من باب الحقيقة المقررة المعلومة والمحسَّة فعلاً ، فكلام كل إنسان مدخر فى الجو لا يتلاشى ولا يختلط بغيره ، ولكل إنسان بصمة خاصة فى اصبعه تميزه عن ملايين الناس ، وبصمة صوتية تميز صوته كذلك فلا تتلاشى مع غيره . وقد اخترع جهاز لتسجيل بصمات الصوت فى منتصف يونية عام ١٩٦٩[1] .

ألسنا نستطيع عزل أصوات المتكلمين عن بعضها بحيث يمكن أن تلتقى بالمذياع صوتاً اختلط بذبذبات ملايين المتحدثين .

وهكذا تسجل أعمال الناس فنراها على الشاشة المرئية ، ولا يقال إننا فى التسجيل السينمائى نلتقط من شىء موجود ، فإنه الآن يمكن تصوير أى اجتماع بعد انصراف المجتمعين ، لقد التقطت صورة لتجمع عدد من السيارات بأمريكا ثم اجتمعت وخلا المكان تماماً منها ، ثم التقطت صورة أخرى بطريقة معينة فكان هى إياها ، وأصبح من وسائل كشف الجرائم والأحداث الخطيرة استعمال جهاز خاص بتصوير الأحداث فى أماكنها بعد وقوعها ، فآثارنا باقية على الزمان حتى تلقانا وتلقاها يوم القيامة ، وصدق الله العظيم : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ .. وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ ﴾ (يس : ١٢) .

وإحصاء كل شىء فى الوجود أمر قائم كما قال الله سبحانه ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَاباً ﴾ (النبأ : ٢٩) ـ ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ ، وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وما تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا ولاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ (الأنعام : ٥٩) .

إن البشرية الآن وصلت فى الاحصاء إلى رقم « الجوجول » وهو واحد على يمينه ١٠٠ صفر ، وإلى رقم « الجوجول بكستات » فهو واحد وأمامه جوجول من الأصفار أى جوجول أس عشرة بلغة الرياضيين .

وقد أحصيت أوراق الشجر فى الولايات المتحدة فوجدت ورقة [بليون البليون : واحد وأمامه ١٨ صفرا] .

وقد حسب ذرات الأكسجين فى حجرة ، وكمية النقود الألمانية بالماركات فى ألمانيا

(١) هو جهاز اليكترونى يحول الموجات الصوتية إلى صورة لها ثلاث أبعاد : طول وعرض وعمق .

فى أقصى درجات الانهيار الاقتصادى ، فوجد أن كلاً منها واحد وعن يمينه ثلاثون صفراً فقط .. وقيل إن عدد الكلمات التى تكلمها الناس منذ آدم وحواء حتى اليوم لم تصل إلى بليون كلمة .

وإذا كانت مقدرتنا العلمية وصلت إلى هذا ، وإلى حساب عدد الالكترونات الموجودة فى المجموعة الشمسية بواسطة نظرية « اينشتين » ألا يتضح لنا أن عملية الحساب بالنسبة له سبحانه أمر علمى ميسور .

فكيف وهو خالقنا ورازقنا بهذه الصورة ، فأعطى كل شىء خلقه ، ومنحه رزقه ، وهو يضمن بلايين الخلق . ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ ؟ (الملك : ١٤) .. بل إنه عليم ..

● توبة الكاتب :

فى مجلة الهلال العدد الصادر فى ديسمبر ١٩٧٠ سأل سائل الكاتب عن رأيه الذى سبق أن نشره عن الجنة والنار وقال : ألا تعتقد ياسيد مصطفى أن تفسيركم لما فى الجنة من أنهار العسل واللبن ومختلف الطيبات بأنها مجرد رموز يمثل صدمة ، وخاصة بالنسبة للفقراء الذين يعيشون على أمل التمتع فى الجنة .. تعويضاً عن الحرمان الذى وجدوه فى الدنيا .. إن كانوا صالحين ؟ فكان جوابه : أنا لم أنكر اللذة الحسية والمتع الحسية فى الآخرة ، وإنما قلت : إن هذه اللذة الحسية لا أحد يعرفها تفصيلاً .. فليس العسل المحكى عنه فى القرآن هو العسل الذى نعرفه ، ولا اللبن هو اللبن ، ولا النساء هن النساء ، وإنما هى درجات من اللذة ، هى بالنسبة إلينا غيب ، ومهما يكن ، فالقرآن لم ينزل لإشباع أحلام الفقراء .. وإنما نزل يقدم لنا منتهى العلم ..

ولما كانت شبهات الكاتب التى رجع عنها لاتزال فى أذهان غيره ممن لم يظفروا مثله بمراجع ، أو بذوى رأى وتخصص يرجع إليهم ، فإننا قد آثرنا استبقاء المناقشة .. ، لأنها لم تكتب تسجيلاً لاتهام شخص ، وإنما كتبت للتعلم والهداية ، وإلى كافة الذين يتجهون نحو الدراسات الإسلامية من الشباب ومن المتقاعدين بعد الإحالة إلى المعاش ليس لهم سلوى إلا المناقشات العلمية والجدل ..

الفصل الثامن

الحلال والحرام

- مدار التحريم والحل .
- تناقض الكاتب .
- ومن الناحية الموضوعية .
- النظرات المباحة .
- حكم مس الأجنبية للشهوة .

الحلال والحرام*

* مدار التحريم والحل :

قال الكاتب : إن مدار الحلال والحرام على الفائدة والضرر ، فكل مافيه ضرر محرم ، فالزنا حرام ، لأنه فوضى تختلط فيها الأنساب وتخضع النفوس للنزوات .. وحرم الله لحم الخنزير .. ونحن نعلم الآن أن حيوان الخنزير هو مستودع فيروس الأنفلونزا والدودة الشريطية وأنه أغلظ أنواع البروتين وأشدها تعقيداً .

ولو ألقينا نظرة على الحيوانات آكلة الخضروات كالغزال والجمل والأرنب والحمل والحصان والدجاج والحمام للاحظنا أنها كلها رقيقة وديعة ، بينما الحيوانات آكلة اللحوم كالسباع والنمور والضباع والذئاب والثعالب ، ومثلها فى الطيور النسور والصقور ، كلها تشترك فى صفات القسوة والوحشية والضراوة ، ولا شك أن هناك علاقة بين الإسراف فى اللحم كطعام ، ونشأة صفات خاصة فى النفس مثل الحدة والصرامة والقسوة .. ولأن لحم الخنزير هو أكثر اللحوم غلظة وأعقد البروتينات الحيوانية تركيباً ، فربما كان ضرره على آكله أبلغ من جميع اللحوم الأخرى ، والله يعلم ونحن لا نعلم .

« والله هو العقل الكلى المحيط .. وهو لا يضع سنّةً بلا سبب »[1] .

تعقيب : -

وهذا القول يردنا إلى البحث الذى طرحه العلماء فى القرن الثانى والثالث الهجريين واستمر مطروحاً حتى الآن ، وهو أتدور الأحكام الشرعية مع الحكمة ؟ أم العلّة ؟ أم يجب التزام النص ولا يصح الخروج منه إلى الاجتهاد والقياس وتلمس العِلل فى الأحكام ونصوصها ؟

---

* القرآن : محاولة لفهم عصرى للقرآن ص ٨٥ - ٩٦ .

(١) المرجع السابق ص ٩١ : ٩٢ .

* **تناقض الكاتب :**

وسنترك هذا البحث لمن يريده ، فليُرجع إليه فى كتب أصول الفقه ، ولكن الذى يمكن أن نتناوله هنا هو كلمة الكاتب « والله يعلم ونحن لا نعلم » ومعناها أننا يجب أن نلغي عقولنا ـ عندما يأتينا النص ـ عن كل شيء ، إلا فهم النص والعمل بمقتضاه ولا نسمح لأنفسنا بالخروج عليه .

وهذا حق ، ولكنه يتناقض مع ما قاله الكاتب من أن غض البصر فى عهد الميني جيب والديكولتيه والجابونيز والباروكات أمر صعب فى مثل شارع سليمان باشا ، ولا ضرر فيه ، إلا أن تكون النظرات خبيثة ، فتختطف العقل والقلب الشهوات ، فيفقد الإنسان هدفه ، وينسى وجهته ، ويتشتت ، ويأخذ سبيله وراء ظهر عريان ، وينسى المشوار الذى جاء من أجله[1] .

وبالمثل حكاية الفستان الطويل الأكمام والقصير الأكمام . لا يمكن أن تكون الفضيلة أمتاراً فى القماش تزيد وتنقص .. وقد تلبس امرأة فستاناً طويل الذيل والأكمام ، ثم تمشى بطريقة من تريد أن تخلع فستانها فى كل خطوة .. وإذا تكلمت سمعت بحة تسيل دعوة وإغراء .. فالعبرة بالقلب ﴿ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ ﴾ (الأحزاب : ٥) ـ وفى الحديث برواية مسلم « إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم » .

إن التعرى لشهوة هو الذنب الذى يلوث القلب ، أما اختيار زى لمجرد التوافق مع عرف العصر فهو مما يغتفر ..

ومن الواقع أن الكم القصير لو أصبح تقليداً يتبعه الجميع فسوف تنتفى الإثارة لأنها سوف تصبح العادة المألوفة التى تعتادها العين .. وبالمثل : لو أن الكم الطويل أصبح عرفاً عاماً يتبعه الجميع فإن ذلك الكم لن يصبح دالاً على شيء ، وإنما سيصبح حكمُهُ حُكم الجلد الخارجى ، وفرق بين التعرى للشمس والتعرى للشهوة على البلاج ، واختلاف القلب فى الحالين يحدد مكاننا بين الذنب والبراءة .. فالطهارة من الشهوة تجعل ما تبقى من خلاف مع الشريعة فى أحد حرفياتها ذنباً ، ولكن من هين الذنوب التى تغتفر .

(1) القرآن محاولة لفهم عصرى للقرآن ص : ٨٦ .

النقـد :

إن هذا الكلام يتنافى مع قول الكاتب « والله يعلم ونحن لا نعلم » .. هذا من الناحية الشكلية .

* ومن الناحية الموضوعية :

هذه دعوة سبق إليها أبواق الاستعمار من قبله ، ممَّن أرادوا هدم تقاليد الإسلام تقليداً إثر الآخر .. وكأنهم الصورة التطبيقية للحديث الشريف الذى رواه أبو أمامة الباهلى عن رسول الله ﷺ .

« لينقضن عرا الإسلام عروة عروة ، فكلما انتقضت عروة تشبث الناس بالتى تليها وأولهن نقضاً الحكم ، وآخرهن الصلاة »[1] .

وبيان ذلك :

(١) أن معظم النار من مستصغر الشرر .. فالنظرة الصغيرة تقود إلى النظرة التى تجعل النفس بعدها ، تشد انتباه الناظر ، بل تشده نفسه حتى يضرب فى الأرض على غير هُدى ، متبعاً هذه الكاسية العارية .. وشوقى شاعر مصر لا يجهل أديب مقالته ..

نظرة فابتسامة فسلام فكلام فموعد فلقاء

فهى بريد الزنا كما يقولون .

ومن قواعد الفقه الإسلامى المحفوظة « باب سد الذرائع » ، وهى قاعدة منطقية من القواعد النظرية المقررة فى منطق الحياة الاجتماعية ، يعرفها حتى العوام فيقولون فى أمثالهم « الباب الذى يأتيك منه الريح سده لتستريح » .

فالضرر إذن من أى نظرة قائم وموجود ، إلا ما أباحه الشارع من نظرات وهى :

١ ـ النظر للزوجة والأمة المملوكة للناظر :

نظر الرجل إلى زوجته وأمته إن كان فى مجتمع لاتزال فيه الإماء من سبايا الحرب وحدها ، أو ما كان من نسلهن ، فهى حلال كلها .

٢ ـ النظر للمحارم :

ونظرة الرجل إلى ذوات محارمه من نسب أو رضاع أو مصاهرة جائز فيما عدا ما بين

(1) رواه احمد جـ ٥ ص : ٢٥١ .

السرة والركبة ، كأمه وأخته وخالاته وعماته بغير شهوة ، فإن هزته الشهوة وجب عليه غض البصر رغم شدة القربى .

٣ ـ للخطبة :

والنظر لأجل النكاح ، ورغبة فى الخطبة ، فينظر إلى الوجه والكفين كما قال الشافعية وإلى ما يدعوه إلى نكاحها من الساقين أو الذراعين عند بعض الباحثين . والحق أن ما يدعو إلى النكاح هو الوجه الذى فيه بهجة ووسامة المرأة ، واليدان اللتان يعرف منهما مدى الرئ والطراوة .. مع ما يظهر من المرأة عفوا وبالرغم منها كالقوام أو القدم أو المعصم .. ثم صوت المرأة وطريقة كلامها .. ثم ما وراء هذا يستكمل معرفته النساء من أهله كأمه وأخته ، فإذا رضيها وتمت خطبتها لم يجز له بعد ذلك أن يرى إلا وجهها وكفيها عند الضرورات التى أباح الشرع فيها ذلك كأى امرأة أجنبية إذ عِلَّةُ حِلِّ النظر قد انتهت .

هذا هو مذهب الضحاك والأوزاعى وعطاء والحسن ، وهو اختيار أبى جعفر محمد ابن جرير الطبرى فى تفسيره (جـ١٨ ص ١٢٠ ـ ١٢١) ـ خلافاً لمن يقول : المرأة بحضرة المحارم كلها عورة .

والذى اختاره ابن جرير هو مذهب أبى الشعثاء والنخعى وغيرهما ، ورواه ابن جرير عن ابن عباس ، كما رواه ابن كثير والبغوى فى تفسير آية النور ﴿ **ولا يُبدين زينتهنّ إلا ما ظهر منها** ﴾

٤ ـ النظر للعلاج :

والنظر للعلاج : فيباح إلى المواضع التى يحتاج إليها فى العلاج فقط ، فهى ضرورة والضرورات تقدّر بقدرها ، ويكون النظر للمداواة بحضرة مَحْرم أو زوج ، أو امرأة ثقة ، وبشرط عدم وجود امرأة تقوم بالعلاج بدلاً من الرجل فى كفاءته اللازمة للعلاج .

٥ ـ النظر للشهادة :

والنظر من أجل الشهادة للمرأة أو عليها تحمّلاً أو أداء ـ يعنى لكى يعرف الحقيقة فيشهد بها مستقبلاً ـ أو عند أداء الشهادة فيقول هذه هى المرأة التى رأيتها تفعل كذا .

٦ ـ النظر للتعامل :

ويحل نظر الرجل للمرأة كى يشهد عليها ، أو يراها لأنه سيتعامل معها فى صناعة أو تجارة أو زراعة .

وفى كل أحوال النظر للشهادة أو التعامل يحل النظر للوجه فقط دون غيره ، إلا عندما تقتضى الشهادة أمراً وراء ذلك ، كالشهادة على الزنا أو الشهادة من المرأة لأخرى لرؤية علامة البلوغ من عانة أو ثدى أو من المحرم للمرأة حين يطلب منه ذلك ولا يوجد من النساء من يغنى عنه فى هذا ، ولا أظننا نعجز عن الحصول على امرأة مسلمة تخرجنا من حرج الضرورات .

٧ ـ فى تعليم الرجل للمرأة :

كما يحل فى التعليم النظر إلى الوجه وحده ، سواء كان تعليماً صناعياً أو دينياً ، وذلك بشرط المرأة المعلّمة ، وعدم الشهوة ، وعدم الخلوة ، والتزام المتعلمة ارتداء الزى الإسلامى .

* **حكم مس الأجنبية للشهوة :**

ومتى حرم النظر حرم المس لأنه أبلغ فى اللذة وإثارة الشهوة ، بدليل أنه لو مس فأنزل أفطر ، ولو نظر فأنزل لم يفطر ، وفى الأثر : لأن يزحم أحدكم خنزيراً ملطخاً بطين أو حماة خير من أن يزحم منكبه منكب امرأة ، رواه الطبرى[1] وعنه ﷺ أنه قال « من مسّ كفه كف امرأة فكأنما مس جلده قطعة من النار »[2] . ولهذا درج الصالحون على ألا يصافحوا النساء إلا مع حائل ، وإذا أُعجلوا عن الحائل لم يطيلوا أمد المصافحة خشية أن تتحول إلى مثير ، واقتداء بالنبى ﷺ إذ روى أنه لم يصافح امرأة قط ، وحكم الاقتداء بعمل النبى الذى لم يصاحبه أمر أو نهى قولى أنه فعل مستحبٌ ، فإذا كان هناك نص قاله النبى بصيغة الأمر أو النهى كان العمل به واجباً وليس مجرد سنة مستحبة ، فعن عائشة رضى الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ يبايع النساء بالكلام ، بهذه الآية ﴿ **على أن لا يشركن بالله شيئا** ﴾ **قالت : وما مست**

(١) وضعفه العلماء .

(٢) وهو منصوص على أنه شديد الضعف .

يده أمرأة قط إلا امرأة يملكها[1] ، ولم يصح فى الباب إلا هذا الحديث من أفعال الرسول ولكن لم يرد عنه حديث ينهى عن المصافحة بالذات لا صحيح ولا سقيم ، بالرغم من أن المصافحة عادة اجتماعية مما تعمُّ به البلوى .. ولو صح فيها شىء لاشتهر فى كتب الصحاح .. وكل ماروى فى غير المصافحة لا تحمل عليه المصافحة إلا إذا قصد بها المجون والتشهى ، لا إظهار الاحترام وقصد التحية ، وهكذا كل المثيرات ، فكل ما حرم نظره متصلاً حرم نظره منفصلاً كشعر وقلامة ظفر من يد المرأة[2] حيث تشدّ انتباه العشاق والمحرومين .

(ب) ودعوى أن التعرى حين يكون عادة يصبح غير مثير ، كما أن الحجاب حين يكون عادة لا يمنع الإثارة ، يكذبه الواقع . ففي باريس وحديقة هايد بارك وشتى حدائق أمريكا مع طول عهد الناس هنالك بالاختلاط والسفور فلا تزال الإثارة الجنسية تعمل عملها ، حتى أصبح الإشباع العلنى فى هذه الأماكن عادة ، كما تفعل بعض الحيوانات السفلى ، بينما تترفع حيوانات أخرى عن ذلك وتطلب المكان البعيد عن رؤية الآخرين عند اللقاح ، وغريزة الجنس ـ ككل الغرائز ـ فطرة وطبيعة نفسية تأخذ فى تكوينها مراحل ثلاثاً :

(١) نظرة وإدراك .

(٢) انفعال عاطفى للمنظور والمدركات .

(٣) ثم سلوك عملى واتخاذ موقف إيجابى نحو المنظور كما قال مكد وجل ، فالنظرة مثير للانفعال الذى يتحول إلى حركة واستجابة للحاجة النفسية باتفاق الشعراء والفلاسفة كما رأينا .

وأما قول الكاتب :

« إن المرء قد يرى الجمال فيقول إعجابا وتعظيما لله .. (الله)[3] » فانحراف عن أبسط أصول الدين .

(١) محمد بن أحمد الشربينى الخطيب : الإقناع فى حل ألفاظ أبى شجاع . باب النكاح حـ ٤ : ص ٤٣ ـ ٤٦ ط أولى ، دار الطباعة المحمدية بالقاهرة .

(٢) رواه أحمد حـ ٦ ص ١٥٣ ـ ١٦٤ ـ ٢٧٠ ـ ورواه البخارى فى شروط تفسير سورة : ٦٥ ـ ٢ طلاق ـ أحكام : ٤٩ ومسلم وإمارة : ٨٨ و ٨٩ وأبو داود إمارة ٩ ـ والترمذى تفسير سورة (٦٠) و ٢ ـ وابن ماجه (ص : ٤٣) .

(٣) القرآن : محاولة لفهم عصرى للقرآن ص ٨٧ .

فالله يتعبَّدنا بالطريقة التى يريدها وقد أنزلها فى كتابه .. والغاية التى زعمها الكاتب من استشعار عظمة الله وماله من جلال فيما خلق من الجمال ـ سلوك إلى الطاعة ، من طريق المعصية . وقديماً قيل : « ليتها لم تزن ولم تصدق » ، والغاية لا تبرر الوسيلة .

ثم إن الذى علينا هو التزام النصوص ولو لم نفهم الحكمة فيها ، سواء كشف الزمان لنا عن وجه الحكمة ، أم كانت حكمة الله فى أن يظل وجه الحكمة خافياً عنا .. ثم إننا نحن المرضى والله هو الشافى ، فعلينا أن نأخذ الدواء ولا يحدد المريض الدواء ومعه الطبيب .

(حـ) المرأة التى تلبس الثوب الطويل وتمشى تكاد تخلع ثوبها ، وتثير بصوتها غريزة السامع ، آثمة أيضاً ، لأن الله حرم كشف العورة كما حرم المثيرات . ﴿ وَلاَ تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَى ﴾ (الأحزاب : ٣٣) ﴿ فَلاَ تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِى فِى قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَعْرُوفاً ﴾ (الأحزاب : ٣٢) ـ مهما كانت المرأة صالحة ، أو كانت بعيدة عن مظنة إيقاعها فى حبال الرجل لمنزلتها الاجتماعية التى تسمو بها على مستواه كأمهات المؤمنين ، وكنساء زعماء ودعاة الإسلام .. وكزعيمات الحركة النسائية الإسلامية .. حتى رنة الخلخال وبريق الحلى أو الثوب ، مثيرات محرمة . ﴿ وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا ﴾ أى ما انكشف فى أثناء العمل كالخاتم ﴿ وَلاَ يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ ﴾ (النور : ٣١) .

وقد ذكر النبى نساء النار فقال : « صنفان من أهل النار لم أرهما ، قوم معهم سياط كأذناب البقر يجلدون بها أبشار الناس ، ونساء كاسيات عاريات مائلات مميلات ، رءوسهن كأسنمة البخت المائلة لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها ، وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا » .

(د) وقول الكاتب : إن طهارة القلب من الشهوة يجعل المخالفة لحرفيات النصوص مما يغتفر[1] ، يذكرنى بقول النبى : فى الحديث الصحيح ما معناه : إن الفاجر أو الكافر ـ يأتى الذنوب كجبال أحد يظنها لخفتها كالذباب يقول بيده هاء هاء .. أى بحركة يده يمكنه أن يدفعه .. والرجل التقى يأتى الذنب الصغير يظنه كجبل

(١) عند جمع المقالات فى كتاب أسقط الكاتب هذه العبارة ، وإنما أبقينا المناقشة لوقوع بعض الناس فى هذا الفهم الخاطئ .

أحد ، وروى ابن ماجه عن ثوبان (ض) عن النبي ﷺ أنه قال « لأعلمن أقواما من أمتي يأتون يوم القيامة ، بأعمال أمثال جبال تهامة بيضاء ، فيجعلها الله هباء منثوراً » ، قال ثوبان : يا رسول الله صفهم لنا ، جَلِّهِمْ لنا ، لا نكون منهم ونحن لا نعلم . قال : « أما إنهم إخوانكم ومن جلدتكم ، ويأخذون من الليل كما تأخذون ، ولكنهم قوم إذا خلوا بمحارم الله انتهكوها[1] » .

ورحم الله الإمام الغزالي إذ قال : لا تنظر إلى نوع المعصية ولكن انظر إلى عظم من تعصيه ..

هذه هي النظرة التي يجب أن تصاحبنا عند أي مخالفة لحروف الكلمات المباركات من كتاب الله وسنة رسوله .. وفتح الباب أمام رحمة الله للتوابين موضوع آخر له لغة أخرى ، لا تدفع إلى الخطيئة إنساناً وأنت تقول له : « الله غفور » .. فإنك بهذا تحرض على الخطيئة » ..

ولكن قل للمخطىء : تخلَّ عن خطاياك وتعالى إلى الله ، فإنه يمدُّ يده إليك كما تمد الأم لطفلها يدها لتنقذه من عِثاره .. والله أرحم بالعبد من الأم بولدها .

(هـ) وقول الكاتب : « إن الله لا ينظر إلى الأجساد » صحيح ، لكن صحيح أيضا أننا ننظر إلى الأجساد والأعمال ، ونظراتنا لها أثرها فينا .. وأنه ما من باطن إلا وله ظاهر ، فالطبيب عادة يعرف من صُفْرة حدقة العين أن الإنسان مريض بالمرارة ، ويتوقع من شدة السمنة أو شدةُ الهزال أنها دليل على مرض السكر لمن يشكو أعراضه ، ويعرف من النبض نوع المرض الداخلي ، هذه هي القاعدة الأصلية .. ثم وراء هذا أمور شاذة أو مكمِّلة ، لها قواعدها المضبوطة التي يجب أن تلاحظ ، مع عدم التخلي عن القواعد العامة الأصلية .. في منطق الدين والطب وشتى العلوم .

كيف والتطبيق العلمي في عهد النبي ﷺ يدل على أن ما سماه الكاتب « حرفيات » مقصود تماماً .. وأن هذا العرى بكل صوره هو الذي كان في الجاهلية الأولى ، فنهى النبي ﷺ عنه ، ووثّق النهي ، فيما يروى أن أسماء عندما دخلت عليه

---

(1) الترغيب والترهيب لعبد العظيم بن عبد القوى المنذرى المتوفى سنة ٦٥٦ هـ ، جـ ٣ ص ٢٤٢ - ٢٤٣ الطبعة الثالثة للحلبي سنة ١٩٦٨ .

مرتدية ثوبا شفافاً فقال لها : إذا بلغت المرأة المحيض لم يصح أن يرى منها إلا هذا وهذا وأشار إلى الوجه والكفين . رواه مسلم .

ودخل بعض النسوة على أم المؤمنين عائشة في ثياب رقيقة فقالت : « إن كنتن مؤمنات فليس هذا ثياب المؤمنات » . فالثياب الشفافة والعارية الصدور ، وما إلى هذا .. ما هو إلا ترداد لمدنية العصر الجاهلي التي حاربها الإسلام أوَّلاً .. وما قوله : ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ ﴾ نهيا عن كشف العنق والصدر والكتفين حيث يلفها الخمار جميعاً ، إلا علاجٌ لهذا النوع من الجوبونيز والصدور العارية وتصفيف الشعر والباروكة ..

وما قوله تعالى : ﴿ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ﴾ إلا نهيٌ عن الثوب القصير كالميني جيب والمكروجيب .. وليكون الثوب كاسياً حتى القدمين بأي سبيل للكساء .

خاتـــمة

في هذه الفصول الثمانية أتيحت لنا فرصة للتعرف على حقائق هامة لا بد للمسلم من أن يعيها .

ففي الفصل الأول ، عدة المفسر ، تناولنا ما يجب على المفسر أن يعلمه ، وبينا أهمية الإلمام التام بالقرآن وقراءاته حتى الشاذ منها ، فإنها على الأقل تعطينا ضوءاً من أضواء التفسير والفهم ، وأشرنا إلى حتمية التضلع من علوم اللغة العربية بكافة فروعها . فإن انحراف كثير من الفرق والأفراد إنما يرجع إلى الجهل بالحقيقي والمجازي من أساليب القرآن ، وذكرنا ضرورة التعرف على أسباب نزول الآيات التي ارتبط نزولها بسبب ، وعلى مناهج البحث في الشريعة الإسلامية ، سواء ما يسمى « أصول الفقه » أو « مصطلح الحديث » أو « علم الرجال » وبينا ضرورة الدراسة الواسعة للبيئة التي نزل فيها القرآن ، فهي أم الصور البيانية للغة القرآنية ، وكذا دراسة السيرة النبوية ، لتعرف كيفية التطبيق للنصوص ، ونزيل بفعل رسول الله ﷺ اللثام عما قد يشتبه علينا فيه الأمر من المهام .

وعرفنا وجوب الانفتاح على العلوم الكونية والاجتماعية والنفسية والصوفية ، وكل ما خلق الله من معارف ساقها إلى البشر ، لأنها تعطينا شواهد تزيدنا يقينا بمنزل الكتاب وصدق آياته ، وهي في ذاتها بيان وأضواء لحقيقة أمها القرآن .

وذكرنا اتفاق المسلمين على أن الفتوى لا تؤخذ إلا من ورع عدل يمارس العمل بأحكام الشرع فتتكشف له العلاقة التي بين النص والتطبيق ، ويتذوق وتستشف روحه — من طول الالتصاق بالقرآن والنشأة في محضنه — طبيعة حقائقه العليا ، فيدرك من الأسرار ما لا يدركه الواقفون على شاطىء البحر يتفرجون على الغواصين ويرتقبون ما يطرحه البحر لهم من أعماقه على سطحه .

وتناولنا في هذا الفصل الفرق بين حرية الإنسان في أن يفهم من كتاب الله بقدر استعداده ومواهبه ما شاء ، وبين نشر مفهومه على الناس دون تثبت والتزام للشروط

الواجب توافرها لمن يتعرض للتفسير ، كما ألمحنا إلى خطورة الاتجاه إلى إخضاع القرآن لما تسميه « النظريات العلمية الحديثة » أو « السبق القرآني للعلوم » وهي نظريات قابلة للتطور والتغير والبطلان ، ووضحنا أثر هذا المنهج في تقويض المسيحية وثورة العلم ورجاله على الكنيسة في الغرب حين أقحمت على الحقائق السماوية مقررات علمية خلعت عليها صفة الوحي ، ثم تطور الفكر والكشف العلمي بما ناقض هذه المقررات العلمية التي خلطت بحقائق الوحي السماوية ، مما كان له أبعد الأثر في رواج الإلحاد بالغرب .

وفي الفصل الثاني :

تناولنا القرآن وإعجازه : وفيه تحدثنا عما سماه مصطفى محمود موسيقى القرآن وبيّنّا أول شطحاته وهي قوله : إن السور المفتتحة بحروف هجائية مقطعة كأنها مفاتيح الشفرة ، ولم يكن النبي على علم بها ، وذكرنا سبعة أوجه في تفسيرها . وبينا الخطأ في قذف الكاتب للنبي بجهل شيء من القرآن ، لأنه لا يستساغ أن يكون المتحدث الرسمي عن البيان الإلهي جاهلاً بشيء مما يذيعه على الناس . وأضفنا إلى هذا مآخذ بنت الشاطىء على الكاتب وأمثاله ممن تجتذبهم كلمات الشعر ولغة العصر كقولهم « سيمفونية القرآن » أو « المعمار القرآني » وما وقع لمصطفى محمود من اضطراب موضوعي حول قوله « القرآن ليس كتاب علم ولا فلسفة ولا سياسة » ثم يقول : إن التوحيد في القرآن نشأت عنه كل أعداد المعارف والعلوم وهو يدلك على علوم لم تعلم بعد ... الخ .

ثم تناولنا الحديث عن صور إعجاز القرآن وما يضرب به المثل للإعجاز العلمي : مثل تقديم السمع على البصر في الآية الكريمة ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ﴾ (السجدة : ٩) ومثل حديثه عن قوة خيوط العنكبوت في الآية ﴿ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا ﴾ وذكرنا وجه الخطأ في التفسير لا الحقيقة العلمية من حديث إن تفسيره يبعدنا عن الغرض التصويري للآية .

ثم تناولنا الكشف الصوفي لغيب محجب مطلسم ، وبينا أنه « لا يعلم الغيب إلا الله » .

وفي الفصل الثالث :

تناولنا قضية التوحيد ، وفيها تعرضنا إلى نظرية الفيض أو العلة والسببية التي تورط

فيها الكثيرون ، ومنهم بعض الصوفية الذين يأخذ عنهم الكاتب بعض عباراتهم ، وبينا فساد هذا الاتجاه ، وعرضنا للبحث عن أسماء الله الحسنى وتورط الكاتب فى خلع ألقاب على الله لا تليق بجلاله مثل : هو المعلم الأول ، وهو يذكرنا بالمدرس الأول ، ومثل تحريف معانى أسماء الله كشرحه « النور » فى قوله سبحانه ﴿ **الله نور السماوات** ﴾ بأنه النور الذى ترى به الأشياء ، وشرحه « القيوم » بأنه الذى « به » تقوم الحياة ، فهو قيوم ، وبينا بطلان التفسير ، إذا اراد بكلمة (به) ما يقوله الفلاسفة من أن كل ما فى الحياة من أشياء ذات اتصال بذاته ، سواء من يعنى بهذا أنه ﴿ **سبحانه وتعالى عما يقولون** ﴾ هو الحياة والكون بما فيه ، ومن فيه ، وأن الكون بموجوداته هو المظهر للألوهية ، أو من يعنى أنه (سبحانه) علّة الكون .

وعرضنا لدعوى الهجرة فى الإسلام ، وأنها من مكان إلى مكان ابتغاء وجه الله ، وفساد دعوى الصوفية أن الهجرة المكانية أمر حقير ، كما عرضنا لدعوى أن الصوفى لا يشعر بعمله الصالح ، وبينا التفسير الخاطىء لهم فى الآية ﴿ **وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ** ﴾ . كما بينا بطلان القول بأن المتصوف واليوجى والراهب كلهم على درب واحد . والقول بأن جميع أهل الكتاب من يهود ونصارى ومسلمين على هُدًى ، وذكرنا التفسير الصحيح للآية ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ** ﴾ (البقرة : ٦٢) .

كما بينا فساد القول بأن الصوفية فى ارتضائهم تباين مشارب أصحابهم بين تارك للشهوات وعازف عن الزواج على قدم عيسى ، وآخذ بالحق والعدل والقول على قدم موسى ، الخ .

وعرضنا لبشرية النبى وبطلان قول من قالوا : النبوة أمر غير بشرى فى ذات ، حقيقتها ليست بشرية ، وقد سترت الذات بأفعال البشر ثم عرضنا إلى الإدراك الصوفى ودعوى أنه فوق إدراك النفس والعقل ، وبه إتجاه الصوفى ، وبينا أن الذوق الصوفى وإلهامه ليس حجة شرعية ، كما عرضنا إلى تفسير الجهاد بأنه جهاد النفس ، إلى امتناع الصوفى عن دعاء ربه أن يكشف عنه الضر .

وعرضنا لذم الصوفية علم الفقهاء والمحدِّثين والسخرية بإسناد روايتهم للحديث ، وبينا أن الرواية قديماً منهج علمى ، نظيره الآن إثبات المراجع فى البحوث العلمية .

وعرضنا لعدد أسماء الله الحسنى ووقوع الكاتب فى الأخذ عن الكتابيِّين بما يشعر أن

كتبهم أغزر مادة فى باب أسماء الله ، وهكذا بينا وجه المغالطة فى بيان فضل الذكر وعلاقته بالنجاة يوم القيامة وأن فضله على الصلاة لا يمنع حتميتها وأنه بدونها لا ينجو الذاكرون من عذاب الله . ثم عرضنا لبيان عدم الكهنوت فى الإسلام ، وأن الناس إخوة جميعا وعباد للرحمن ، وسقطات الكاتب فى حديثه عن امرأتى نوح ولوط عليهما السلام واتهامها بالخيانة الزوجية ، وفى حديثه عن الحدود ، وزعمه أنها تسقط بتوبة المتهم أمام الحاكم ، وبينا خطأ الكاتب فى تفسيره للسرقة بأنه مظهر للبطالة ، وفى تجريحه خلفاء بنى أمية بأنهم جعلوا قصورهم مسارح للمتع الحسية على الطريقة القارسية .

وفى الفصل الرابع :

تحدثنا عن الإنسان أهو مسير أم مخير ؟ وسقوط الكاتب فيما هو شائع من النهى عن الحديث فى القدر ، وبيان المراد من هذا النهى وبينا كيف يهدم الكاتب بنفسه مذهبه القائل بأن الإنسان ابن بيئته وابن عصره وابن مجتمعه ، بعد أن قال : الإنسان عندى مُجْبَر على مايفعل .

ثم تناولنا مشكلة الحرية والكفاف التى أثيرت فى كتاب « لغز الموت » وناقشنا قول من يقول : « ولا يحق للقارىء أن يصرخ لأنه لا يملك إلا الكفاف » ، ونبهنا إلى أن هناك فرقاً بين الكفاف والجفاف ، ودعاء النبى « اللهم إنى أعوذ بك من الكفر والفقر » .

كما ناقشنا – فى حديثنا عن منطقة العجز – تفسيره آيات الليل ﴿ **فسنيسره لليسرى** ﴾ أو ﴿ **فسنيسره للعسرى** ﴾ وآية الفتح ١٨ ، وآية الأنفال ١٨ ،وآية الصف : ٥ وقد استشهد بها فى غير المواضع التى هى شواهد لها .

كما وجهنا النظر إلى التصحيف – أى تبديل بعض الكلمات أو الحروف فى الآيات ، ووضحنا الفرق بين طبيعة العلم الذى نعلمه والعلم الذى هو صفةَ الله تتكشف بها الموجودات على ماهى عليه ، وصوبنا الخطأ فى قوله : « إن ما يدور فى القلب هو موضوع المحاسبة بالدرجة الأولى ، وليس مايجرى على مسرح الفعل » ، والخطأ فى تقليد الكتابيين واقتباس مصطلحاتهم مثل : « القلب أو الروح » « قدس أقداس » ، ثم بينا أن ما قاله عن مكان « الروح » قول لم يتفق عليه الفلاسفة ، وأن الكاتب يناقض نفسه

فيقول : الله يدع القلب حرا ويقول : (فهو يحول بين المرء ونفسه) ، وعرضنا للآية ﴿ واعلموا أنَّ الله يحول بين المرء وقلبه ﴾ عند المفسرين .

وفى الفصل الخامس :

لغز آدم وحواء : كان الحديث عن نظرية داروين وبطلانها بعبارة جيدة لولا وصف الله بأنه « الفنان وأنه يفكر ويهندس » وأنه « العقل الكلى » والله يقول ﴿ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِى أَسْمَائِهِ ﴾ ولولا إيهام عباراته التفرقة بين القرآن وبين كلام الله ، وأن فى القرآن مالا يفهم .

وتناولنا القرآن ونشأة العالم ، وما تعرض له القرآن من الآيات الكونية كالسديم ، وكروية الأرض ، ومسارات الكواكب ، والمياه الجوفية ، وخلق الإنسان والدواب ، ونظرية التطور ، وتفسير الأيام فى قوله سبحانه ﴿ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ بأنها تعنى الأزمنة الجيولوجية ، وتفسير آية الأعراف : بأنها تعنى خلق الإنسان على مراحل زمنية ، ثم خلص إلى أن جاء آدم عبر مراحل من التخليق والتصوير والتسوية استغرقت ملايين السنين بزماننا وأيامنا بزمن الله ، وكذا تفسير الآية ﴿ الَّذِى أَعْطَى كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾ بأنه هدى مسيرة التطور حتى بلغت ذروتها ، ثم تقرير أن آدم الأول يحاكى آدم الصورة والمثال الذى خلقه الله فى الملكوت ، فهو آدم جديد ، وقد بينا فساد هذه التأويلات .

ثم كان تساؤل : هل الأكلُ من الشجرة أمر رمزى ، وتفسير الشجرة بأنها شجرة النسل كما ادعى مصطفى محمود ، ثم تفسير جنة آدم بأنها جنة معنوية ، وتفسير (اهبطوا) بأن ضمير الجمع يعنى آدم وحواء والجنين فى بطنها .

واستشهاد الكاتب بنص فى التوراة على معنى الاستتار والعورة يعارضه القرآن ، وقد رددناه إلى الصواب ، وكان الكاتب مهذباً حين أعلن رجوعه إلى الصواب عندما أعاد طبع ما نشره ، وإن كان فى توبته لم يزل مشوش الفكر ، فلم يكن حازماً ، ولكنه يجعل ما قاله المفسرون القدماء والمعاصرون جائزاً ، وجائزاً فقط . ثم يسقط مرة أخرى فى وصفه الله بأنه « الحق المطلق » وصفا لا على سبيل النعت ولكن على سبيل القصر ، وقارنا هذا القول بقول الباطنية .

ويسقط فى تفسير الوحى بإقراره قول الملاحدة بأنه صورة من نشاط عقل باطن

انفتح تماماً على « الحقيقة المطلقة » ، وبينا أقوال المفسرين وحديث الرسول فى طرق نزول الوحى ، كما بينا قيمة الإلهام وحقيقته وأنه ليس وحياً .

وبينا فساد قول الكاتب فى (لغز الموت) إن الوحى يأتى الأنبياء بين النعاس والغيبوبة كإلهام العباقرة مع الفارق فى الدرجة ، وختمنا الفصل بالحديث عن ختان آدم وربط الكاتب له بالخطيئة الأولى ، وأنه محاولة من آدم للتكفير عنها ، ثم أصبحت تقليدا دينياً ، وبينا هذا الوهم .

فى الفصل السادس : الغيبيات :

ومن السقطات التى بيناها تفسير الملائكة الذين يحملون العرش بالقوانين الفيزيقية ، وهكذا بينا خطأ القول بأنه لا تعدد لطاقات الملك وكفاياته ووظائفه كما تتعدد وظائف الإنسان ، وخطأ الشك فى حديث رؤية النبى لجبريل فى صورته الحقيقية مرتين ، وبينا كيف أخطأ الكاتب فى المكان الذى روى أن النبى رأى جبريل فيه يملأ الأفق ، فقد كان فى حراء ، لا كما يزعم الكاتب أنه بالبقيع ، ومن الخطأ دعوى أن فى البشرية من رأى الجن والملائكة والشياطين شهوداً ، فقد روى هذا فى الملائكة والجن بصور تشكلوا فيها ، أما الشياطين فالقرآن يقول : ﴿ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾ وبدون دليل قال الكاتب : الملائكة لا يموتون ، بالرغم من عموم الآية ﴿ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ . وفى الحديث عن لغة النمل كانت عبارة الكاتب غير واضحة بمراده إذ قال : إدراك نملة لسليمان مثل إدراك سليمان لله ، فليس بظاهر وجه الشبه . ثم وهم الكاتب فتابع خرافات الإسرائيليين المروية عن السحر وتاريخه ببابل ، وذكرنا قول المفسرين فى هذا ، وقد أمعن فى الخطأ إذ قال – بدون رواية صحيحة ولا أثر تاريخى – إن السامرى صنع العجل بالسّحْر ، وجرى فى تفسير سورة الفلق مجرى ذكرنا ما يقابله من تفسير الإمام محمد عبده والبيضاوى فى ﴿ النَّفَّاثَاتِ فِى الْعُقَدِ ﴾ ومن الغيب البرزخ ، فسّره بالقوانين الفيزيقية (الطبيعية) التى تمنع وتضبط وتحفظ لكل شىء حدوده ، وذكرنا وجه الجمع بين قول قدامى المفسرين والمعاصرين .

ومن الغيب « القلم » ، وبينا ضعف قول الكاتب : « وأغلب الظن أنه ليس قلمنا الذى تكتب به المقالات » ، ومن الغيب المحو والإثبات الذى فى الآية ﴿ يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ ﴾ . وبينا فساد قول الكاتب : « إن الآية دلالة على سعة المغفرة بدرجة تصل إلى اللامعقول ، إلى محو القدر المقدور » .

وعرضنا لتفسير الكاتب لآية الحج : ٤٧ ﴿ يوماً عند ربك ﴾ ، وبينا أن الآية فى موضوع غير ما استشهد له بالآية .

ومن الغيب القيامة : وقد فسرها بتجلى الله بذاته ، وذكرنا أن التفسير لم يرد فى الشرع ، وهو تدخل فى معرفة كيفية وقوعها ، ثم ذكرنا علامات الساعة واستشهاد الكاتب بما فى الإنجيل عن الدخان وضعفه ، وذكرنا التأويل ليأجوج ومأجوج واعتبار السد رمزاً للجهل ، وبينا فساد هذا التأويل .

وقد أخذت بنت الشاطىء على الكاتب قوله إن دك الجبال يوم القيامة تشير إليه الآية ﴿ وإنَّ منها لما يهبط من خشية الله ﴾ ، بينما الآية فى قوم موسى عليه السلام .

ومن الغيب الإيمان بالبعث بعد الموت ، وقد بينا العلة فى اختيار اللفظ القرآنى ﴿ إنك ميت ﴾ بدلا من « ستموت » على وجه أفضل وأنق مما قاله الكاتب ، كما بينا تفسير المراد بالروح فى الآية ﴿ ويسألونك عن الروح ﴾ وأنها هى القرآن .

وعرضنا للقول بأن « القرآن لا يحفل بالأمور المتغيرة ويتركها لأصحابها يجتهدون فيها » وبينا أنه مطعن خفى فى القرآن ، فقد وضع الأصول العامة التى توفر لكل أمر من الأمور فى أى وقت من الأوقات الحل المناسب .

ثم لخصنا كتاب لغز الموت ، وفيه عرض لفكرته عن الموت والبعث والزمن والحب والقضاء والقدر وبينا فساد فكرته عن كيفية الموت بأنه عملية طبيعية ناشئة عن موت الخلايا ، وفساد فكرة « البقاء للأصلح » ، وفساد تصويره للحب بأنه دافع الهرب من الموت والتشبث بالحياة ، فيستعين المرء بالمرأة يحبها أو بأطفاله يحبهم الخ ، وفساد تصويره الشعور بالذات أو « الأنا » موجوداً وفى خدمته العقل والقلب ، وبيّنا فساد سلوكه مسلك أنشتين فى تفسير الزمن وعلاقته بالمادة بأن كلاً منها إحدى الفتلات التى يتألف منها نسيج الكائن الحى ، وفساد تغير الكاتب للزمن .

وفى الفصل السابع : الجنة والجحيم :

بينا بطلان قول الكاتب (كل ما جاء فى الجنة والجحيم ألوان من ضرب المثال والرمز) وقوله (إن الله لا يعذبك ولكن تعذب نفسك بجهلك) و (إن هذا الصغار هو الذى سيعذب ويحرق) وقوله : « وإنما يأتى العذاب واحتراق الصدور من إحساس مَنْ هو فى أسافل الدرجات بالغيرة والحسد والهوان » ، وسوف يحرق هذا الإحساس

الصدور كما تحرقها النار وأكثر ، وسوف يكون هذا النكال والتنكيل ، نكل الواحد منّا بنفسه بالدرجة التى وضع منها نفسه ، وذكرنا الدلائل على وجود عذاب ونعيم حسيين إلى جانب العذاب والنعيم النفسيين والمعنويين ، وذكرنا فتوى الإمام الغزالى فيمن ينكرون الجزاء الآخر المادى .

ثم ناقشنا الكاتب فى تفسيره جنة آدم والعودة إليها بأنها « جنة الطاعة والإسلام للنواميس الإلهية ، وهذه هى الإنابة والرجعة التى تتكرر فى القرآن » ، وتفسير حوار الكفار فى النار وبيان بطلان الاستشهاد به على عدم وجود نار حسّية للعذاب فى الجحيم وبيّنا بمنطق العلم عدم الغرابة فيما روى عن ضخامة أشجار الجنة وسعتها وعظم أجسام الكفار ، وبينا سقوط الكاتب فى إنكار الخروج من النار بعد الدخول ، وبينا إمكان أن يكون فى الجنة والنار مالا عين رأت ، وبينا حقيقة مرجع اسم الإشارة فى ذلك الذى يخوف الله به عباده »[1] . وبينا فساد تفسير الكاتب الآية ﴿ كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً ﴾ بأنها تعنى حساب النفس للنفس دون أن يحاسبنا الله بنفسه وأن يعذبنا وبينا المغزى العلمى للآية كما قال العلميون ورأينا فى قولهم ، وبينا إمكانية الحساب للموتى بمنطق العلم الحديث ، وتناولنا حديث الذر والأرواح قبل أن تخلق الأشباح ، وتعجب الكاتب من أن ينظر الله إلى المخطئين بعين غاضبة .

وفى الفصل الثامن : الحلال والحرام :

تناولنا مدار التحريم والحل ، وبينا تناقض الكاتب فى قوله (والله يعلم ونحن لا نعلم) ثم قوله « إن غض البصر أمر صعب فى مثل شارع سليمان باشا ولا ضرر فيه إلا أن تكون النظرات خبيثة ، وبالمثل حكاية الفستان الطويل والأكمام والقصير الأكمام ، وإن التعرى لشهوة هو الذنب ، أما اختيار زى لمجرد التوافق مع العصر فهو ما يغتفر ، وبينا بطلان هذه القضية من حيث الشكل والموضوع .

وذكرنا قاعدة (سد الذرائع) فى الإسلام وقول الفقهاء ، إن النظر إلى المرأة على سبعة أضرب . وذكرنا حكم مس الأجنبية للشهوة ، وفساد قول الكاتب « إن طهارة القلب من الشهوة يجعل المخالفة لحرفيات النصوص مما يغتفر » .

---

(١) الزمر : ١٦

وفى عموم هذه الدراسة أودعنا كل كلمة جميلة فيها طرافة للكاتب ، لأنى أعدُّ الكاتب المخلص شريكاً فى بحث الحقيقة وتشييد بناء الفكر النظيف ، وأعتقد أنَّا شركاء فى واجب البحث عن الحقيقة وإبلاغها طلابها ومن هم فى حاجة إليها ـ ولو لم يطلبوها ـ فى ظلال الحب والإخاء . فاللهم أجعل ما كتبناه عملاً نافعاً تحت راية القرآن .

* * *

فهرس الكتاب

الموضوع	رقم الصفحة

الموضوع	رقم الصفحة

الفصل الرابع

الفصل الخامس

الفصل السادس

الموضوع	رقم الصفحة

الفصل السابع

الفصل الثامن

***

رقم الايداع ٥٥٨٠ / ١٩٧٦

الترقيم الدولى ٠ - ٥٩ - ٧٠٦٥ ISBN

دار النصر للطباعة الاسلامية
٢ - شارع نشاطى شبرا القاهرة
ت ٧٧٣٩٩١٠